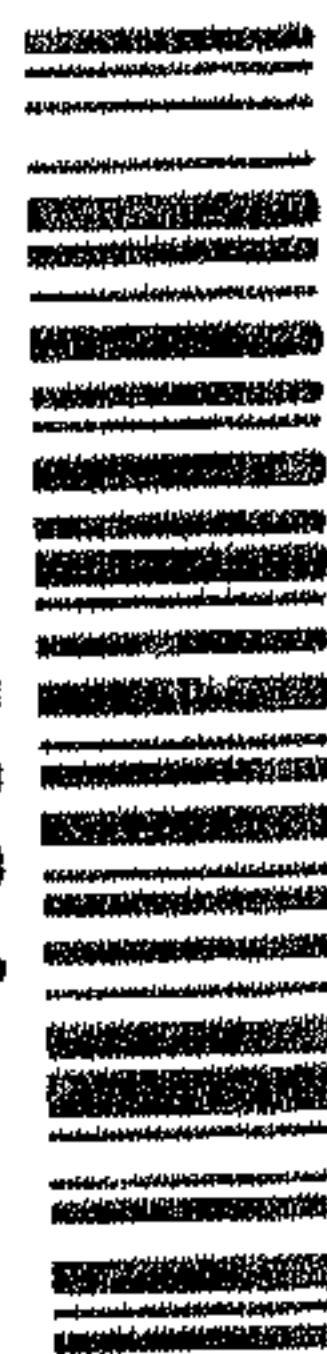




Bibliotheca Alexandrina



0118994

الأدب المصري

في

ظلال الحكم العثماني

١٩٢٢ هـ - ١٢٢٠ هـ = ١٩٠٧ - ١٨٠٥ م

تأليف

محمد سيد كسلاني

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن

١٩٥٤

الأدب المصري
في
ظل الحكيم العماني

١٩٢٢ هـ - ١٢٢٠ هـ = ١٥١٧ - ١٨٠٥ م

تأليف

محمد سيدكيلاي

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن

مقدمة

قال جورجى^(١) زيدان عن الأدب فى العصر العثمانى : « فسدت ملكة اللسان ، وجمدت القرائح . وأصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية فى هذا العصر من الضعف والانحطاط لما استولى من الجمود على القرائح ، وتوالى على الأمة من الذل فى تلك الفترة المظلمة . وأصبح الكاتب أو الشاعر إنما يهيمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع ، حتى خرجوا بذلك عن الذوق المألوف ، فأضاعوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه من الصنائع اللفظية . فذهبت المعانى ضحية تلك الأساليب الباردة . ويشبه ذلك مبالغة أهل زماننا هذا بتزيين ظواهر المرأة بالأزياء الجديدة حتى خرجوا بها عن الغرض الأصيل من خلقتها ، فأصبحت مثل سائر أدوات الزينة ، إنما يلتفت فيها إلى شكلها الخارجى . وكثيرا ما جر اجتهادها فى ذلك إلى الوقوف فى سبيل وظيفتها الطبيعية فى جسم العمران . وهكذا اللغة فى العصر العثمانى بعد أن كان المراد بالألفاظ التعبير عن المعانى وتصوير الأفكار ، اشتغل الكتاب بتنميق الألفاظ وأضاعوا المعانى »

فمن هذا نرى أن جورجى زيدان حكم على الأدب العربى كله من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، ومن شمال العراق إلى جنوب اليمن بأنه كان أدبا منحطا متكلفا ، لا أثر للحياة فيه .

وتابع جورجى زيدان فى هذا الحكم كل من جاء بعده من الكتاب الذين تعرضوا لهذا العصر . وقد صورت الكتب المدرسية العصر العثمانى فى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٤ / ٢٧٣ طبع سنة ١٩١٣

صورة بشعة . فلا عجب أن سرى اعتقاد راسخ في الأذهان ؛ مضمونه أن العصر العثماني لا يستحق الدرس والبحث ، وأنه بخلو مما يصح أن يطلق عليه اسم الأدب ، ولم ينبج من الشعراء من يستحق اسم الشاعر ، ولا من الكتاب من تجوز نسبته إلى الكتابة .

وترتب على هذا الحكم الخاطيء ، حكم آخر مضحك وقع الناس فيه حين درسوا الأدب الحديث . فهم مثلاً يقولون إن محمود سامي البارودي أول من أحيا دولة الشعر بعد العدم ، وخلص القصيد مما علق به من قيود الصنعة اللفظية كالجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها . ويزعمون أنه أعاد إلى الشعر العربي ديباجته التي أخلقت إبان العصر العثماني . ويمدحونه لأنه رجع إلى أساليب القرن الرابع ، جاهلين أو متجاهلين أن لكل عصر أساليبه ، ولكل بيئة ألفاظها وتعابيرها وموضوعاتها وما توحى به .

وكان من الممكن أن أصدق هذه الأحكام التي صدرت ضد أدب هذا العصر كما صدقها الناس ، وأخذها قضية مسلماتها ، لا تقبل الجدل والمناقشة كما فعل غيري ، وأن أختار موضوعاً آخر لا كتب فيه ، فما أكثر الموضوعات التي تحتاج إلى الدرس والاستقصاء . ولكنني بدافع من حب الاستطلاع شرعت اقرأ بامعان ما وقع في يدي من الآثار الأدبية التي تركها أدباء مصر في تلك الحقبة . فراغني ما اتضح لي من فساد الأحكام التي أصدرها جورجى زيدان ومن تابعه .

وإزداد اعتقادي يوماً بعد يوم بوجود دراسة أدبنا في هذه الفترة . وتبلورت في ذهني الفكرة ، وتجمعت لدى المعلومات ، وقطعت في القراءة مرحلة طويلة ، لم أتردد بعدها في أن أجعل من دراسة هذا العصر موضوعاً لهذا الكتاب .

أما المنهج الذي سلكته فهو :

تمهيد عن الحالة السياسية منذ أواخر حكم السلطان الغورى إلى دخول
العثمانيين مصر ، وما استحدثوه من أنظمة جديدة للحكم . وتتابع الولاة ،
وما طرأ على سلطتهم من ضعف ، وظهور المماليك على مسرح الحكم من جديد .
وأشرت إلى بعض الفتن التي وقعت وعرضت للحملة الفرنسية وظهور محمد على .
ثم درست الحالة الاجتماعية من حيث علاقتها بالأدب شعره ونثره .
وتناولت الحالة الفكرية ، وما أسدته مصر إلى العالم الإسلامى من خدمات
ثقافية في ذلك الوقت . وبهذا ينتهى الباب الأول .

وفي الباب الثانى تكلمت عن الشعر وأساليبه . وبينت بالأدلة القاطعة
مبلغ الخطأ الفاحش الذى علق بالأذهان عن أساليب الشعر فى تلك الفترة .
ثم درست بيئات الشعر . فخصت فصلاً للمدرسة البكرية ، وآخر للمدرسة
العلوية ، وثالثاً للمدرسة الأميرية ؛ وهى تشمل الشعر الذى قيل فى السلاطين والولاة
والأمراء من مدح أو هجاء أو رثاء . ووضحت موقف الشعراء المصريين :
هل كانوا بجانب الشعب أم كانوا مع الظالمين ؟ وبعد هذا أفردت فصلاً للشعر
الشعبى ، وهو الذى ينبع من صفوف الشعب ، وعبر عن آماله وآلامه ،
وأفراحه وأحزانه .

وقصرت الباب الثالث على دراسات تكملية فى الشعر . تناولت فيه الأغراض
التي أكثر الشعراء من القول فيها كالغزل ، والوصف ، والإخوانيات . وقد
حرصت على توضيح آثار البيئة المصرية ، وإظهار معالمها فى كل ما تناولته .

أما الباب الرابع فيحتوى على تراجم لبعض مشاهير شعراء ذلك العصر

وفي الباب الخامس دراسة للنثر على اختلاف أنواعه . فهناك النثر الفنى
الذى ورثه أدباء العصر العثمانى عن القدماء . وهناك المقامات التى كثرت
فى تلك الحقبة واستخدمت فى شتى الأغراض . وهناك الرسائل ، ونقد المجتمع ،

ولغة التأليف . والأدب الشعبي وأقصد به القصص التي ألفت في ذلك العصر
كسيرة الظاهر بيبرس ، والأميرة ذات الهممة .

وترجمت لعدد من الكتاب ، والعلماء ، والمؤرخين ، وأصحاب السير .

* * *

وغنى عن الإشارة أن الأدب للمصرى في العصر العثماني لم يكن منحطاً
ولا ميتاً كما قالوا . ولم يكن همّ الشعراء والكتاب الجرى وراء المحسنات
اللفظية كما زعموا . بل كان أدبا حيا ، له أهداف يسعى إليها ، وأغراض
يتجه نحوها .

فالمدرسة البكرية جديدة في بابها ، فريدة في نوعها ، لاعهد للمصريين
بها من قبل . والتعاليم البكرية التي تقوم عليها تلك للمدرسة تعاليم غريبة
لم تعرفها مصر إلا في خلال العصر العثماني . فقد جعل البكريون من أبي
بكر الصديق شخصية تقابل شخصية الإمام على عند الشيعة الإسماعيلية .
وقد شجعت الدولة العثمانية تلك الحركة خدمة لسياستها ، ومنحت شيخ
السادة البكرية سلطة واسعة ، ونفوذا محترما .

والمدرسة العلوية وإن كانت قديمة إلا أنها اختفت منذ سقوط الدولة
الفاطمية . وقد زجعت إلى الحياة مرة أخرى خلال هذا العصر .

* * *

وإن الشعر الكثير الذي قيل في وصف الحدائق والبساتين ، والبرك
والدواليب ، ونهر النيل والخليج ، والأزبكية وبولاق ، والروضة وبركة الرطلى ،
والقصور والطيور ، لم يكن متكلفا مصنوعا ، بل هو شعر له طابع أصيل
في الفن الشعري . ينبض بالحياة ، ويزخر بالعواطف الصادقة ، والأحاسيس
الناطقة ، والمشاعر المتدفقة .

لقد اندمج الشعراء في هذه البيئة الفاتنة ، وارتعوا بين أحضان الطبيعة على شواطئ بركة الأزبكية ، والخليج ، وبركة الرطلى ، وفي جزيرة الروضة ، وعلى شاطئ النيل العظيم ببولاق . وارتبطوا بهذه الأماكن ارتباطاً وثيقاً حتى أضحووا لا يطيقون لها فراقاً ، ولا يرون العيش إلا في ظلها وبين أشجارها وطيورها . وإذا اضطروا أحدهم إلى الابتعاد عن القاهرة نظم القصائد في الشوق إلى تلك الأماكن . وإنك لتجد في شعره ألم الفراق ، ولوعة الاغتراب . وفي سيرة الظاهر بيبرس ترى المجتمع المصرى ممثلاً أوضح تمثيل .

* * *

وإني أحمد الله الذي وفقني إلى الكشف عن الأدب المصرى في تلك الفترة الطويلة ، وإزاحة الستار عما أحاط به من إهمال وجهل وغموض ، وتصحيح الأحكام الخاطئة التي صدرت ضده . وهذا هو الأصل في تأليف الكتب ، أى أن يكون هدفها كشف شيء جديد ، وإضافة معلومات كان الناس يجهلون بها إلى معلوماتهم التي يعرفونها .

وفي نهاية هذا الكتاب يجد القارئ جملة من قصائد بعض شعراء مصر في ذلك الحين . وبمطالعها نتبين مكانة الشعر إذ ذاك ، ومقدار مالقه من الغبن والجحود ، نتيجة للأحكام الخاطئة التي صدرت ضده من قوم لم يكلفوا أنفسهم مؤونة الدرس والبحث .

وإني لا أدعى أنى وصلت في بحثى إلى درجة الكمال ، ولكنى أستطيع أن أقول - بلا فخر - إنى فتحت الباب على مصراعيه ليدخل منه كل من أراد الدخول ، والله المعين والموفق إلى الصواب .

محمد سيد كيلانى

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٦٥

الباب الأول

الفصل الأول

الحالة السياسية

كان السلطان قانصوة الغورى يحكم مصر قبل الفتح العثمانى . وفى عهده كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، فتحوّلت تجارة أوروبا إلى هذا الطريق بعد أن كانت تمر بمصر . فخرت البلاد من جراء ذلك أموالاً باهظة كانت تجبها على تلك التجارة . فلا عجب أن ساءت الأحوال الاقتصادية إلى حد كبير . فاضطر الغورى إلى إئثار كاهل الشعب بالضرائب ، وبالغ فى مصادرة أموال الأعيان والتجار حتى لم يسلم منه أحد ، ومات تحت عقوبته بسبب اللال كثيرون . وشرع يغتصب أموال اليتامى ، ويولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ويقرر عليهم الأموال الباهظة ، فيأخذ هؤلاء من الفلاحين أضعاف ما يدفعونه للسلطان . حدث هذا فى مصر والشام ، فتمنى الناس الرحيل عن بلادهم من شدة الظلم .

وانعدم وجود البضائع التى كانت ترد من أوروبا . ثم إن الغورى فرض ضرائب باهظة على كل ما يباع ويشتري ، فارتفعت أسعار الحاجات ارتفاعاً فاحشاً .

وكان يبيع الوظائف للناس نظير مبالغ طائلة حتى وظائف القضاء .

وينفق ما يجمعه من الأموال في بناء القصور الفخمة . قال ابن (١) إياس
« ولو شرحنا مساوية كلها لطال الشرح في ذلك » .

وخربت الثغور وأقمرت من أهلها ، قال ابن (٢) إياس يصف مدينة
الإسكندرية سنة ٩٢٠ هـ « فتلاشت المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل
إن الخبز طلب بها فلم يوجد ولا الأكل » .

وكانت سياسته الخارجية فاسدة كذلك . فحينما نشب النزاع بين شاه
إيران إسماعيل الصفوي وبين السلطان سليم ، انضم الغوري إلى الشاه وكاتبه
وتبادل معه الهدايا .

ومن أخطائه الكبرى خروجه لمحاربة العثمانيين في أطراف الشام . فتكبد
جيشه المتعاب ، فضلا عن أن أهل الشام كانوا يضرعون له العدا . فأنحاز
قائداه خيرى بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالي نائب حماة إلى السلطان
سليم الذي وعد الأول بولاية مصر ، والثاني بولاية الشام . فدارت الدائرة
على الجيش المصرى بسبب هذه الخيانة ، وبسبب تخاذل المهاليك . فانهزم
المصريون في « مرج دابق » قرب حلب وقتل الغوري . وقد نظم شعراء
مصر في تلك الواقعة شعرا كثيرا ، ومنهم من عرض للمظالم التي ارتكبتها
الغوري وجعلها عاملا حاسما في هزيمته . قال ابن إياس (٣) :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى منذ تزأيد ظلمه فى القاهره
زال عنه ملكه فى ساعة خسر الدنيا إذن والآخرة

وقال :

لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الورى
والأشرف الغورى كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافترى

(١ ، ٢) بدائع الزهور طبع استانبول ٥ / ٩٠ ، ٤ / ٤٢٤

(٣) ٥ / ٢٠ وما بعدها .

والموت أوجب هزمه مع جيشه قد كان ذلك في الكتاب مسطراً
أعماله ردت عليه بما جنى والدهر جازاه بأمر قُدراً

وقال بدر الدين الزيتوني من قصيدة زجلية طويلة :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجوم طالع ساير
وبهذارب السما قد حكم والفلك دار ولم يزل دابر
ثم انطلق السلطان سليم قاصداً مصر في آخر سنة ٩٢١ (١٥١٧) وكان
الماليك قد اختاروا الأمير طومانباي سلطاناً على البلاد . وبعد مقاومة لم
تدم طويلاً انهمز السلطان الجديد وشنق على باب زويلة . وفي ذلك
يقول ابن إياس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ومصيبة عمت بليتها الورى
ومنها وفيه إشارة إلى شنق طومانباي :

شنقوه ظمناً فوق باب زويلة ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب عفوا عن عظام جرمه واجعل بجنات النعيم له قرى
وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية . قال مجد بن قانصوة :
كانت في مصر ملوك أظهروا فيها العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيها خرائب
وهي أضحت بعد عز قرية في حكم نائب

ولما تم للعثمانيين فتح مصر جمع السلطان سليم عدداً كبيراً من أرباب
الصناعات وبعثهم إلى الأستانة . كما أنه نقل مقادير كبيرة من الرخام والأعمدة .
والكتب النفيسة . قال ابن إياس :

لهفى على سوق الصليبة كيف قد خربت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله من كل بيت كان يغدو أزهرها
زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على أم القرى

فتهدمت أحياء كثيرة كانت عامرة مثل حي الصليبية ، وشيخون .
والحسينية .

* * *

وكان خيرى (١) بك أول ولاية العثمانيين بمصر . وقد اشتهر بالعسف .
والظلم . ومات سنة ٩٢٨ هـ ثم تعاقب الولاة على مصر . وحاول أحمد باشا
الذى تولى سنة ٩٣٠ هـ أن يستقل بحكم البلاد . فأمر أن يخطب له ، وضرب
النقود باسمه ، ولكنه بالغ فى الظلم فحقد عليه الناس ، وأخيراً تمكن بعض
قواد الجيش العثمانى فى مصر من القضاء على حركته . ثم شنق على باب
زويلة سنة ٩٣١ هـ .

وكان بعض الولاة العثمانيين على درجة طيبة من الاستقامة وحسن السيرة .
ومن أشهر هؤلاء الولاة :

داود باشا الخادم الذى حكم من سنة ٩٤٥ - ٩٥٥ وكان كريماً محباً للعلم
والعلماء ، مغرماً بمطالعة الكتب العربية حتى إنه جمع عدداً وافراً منها . وفى
أيامه انتشر الأمن وساد الرخاء . وقد بنى مدرسة عظيمة . ومات بالقاهرة .
ودفن بها .

وسنان باشا (٩٧٩ - ٩٨١) وكان مغرماً بإقامة المباني فأنشأ عدة
مساجد ومدارس وحمامات وأسواق .

ومسيح باشا (٩٨٢ - ٩٨٨) الذى ضرب بيد من حديد على اللصوص
وقطاع الطرق ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وبذلك تطهرت البلاد
من شرهم ، واستراح الناس من أذاهم .

(١) لطائف أخبار الدول للاستحقاق ص ٧٠ وما بعدها . المطبعة البهية بمصر سنة ١٣٠٠ هـ

وقد أبقى السلطان سليم على المماليك فخر بوا البلاد وأقبروها . ولو أنه استأصل شأفتهم لتمتعت مصر بالهدوء والسكينة ، ولأمكنها أن تسترد خريتها واستقلالها بأيدي أبنائها .

* * *

وقد ظل الولاة العثمانيون محتفظين بسلطانهم وهيبتهم إلى سنة ١١١٩ هـ حيث اختفت قوتهم ، وحل محلها نفوذ شيخ البلد . وكان يشغل هذا المنصب أحد بكوات المماليك الذين انقسموا في ذلك الوقت إلى حزبين كبيرين : أولهما يعرف بالقاسمية ، نسبة إلى قاسم بك . والثاني الفقارية ، نسبة إلى ذى الفقار بك واشتهر القاسمية بكثرة المال والبخل . والفقارية بالكرم . واتخذ القاسمية اللون الأحمر شعارا لهم ، والفقارية اللون الأبيض . وتعصب كل منهم للون الذى يعيل إليه حتى فى أوانى الأكل والشرب . وقد اشتد النزاع بين هذين الحزبين على مشيخة البلد ، وكثرت بينهما المعارك والفتن والدسائس . وكان الولاة يشجعون ذلك ، ويسعون فى الإفساد بين الطرفين طمعا فى استرداد نفوذهم .

ومن أشهر مشايخ البلد « إسماعيل ^(١) بك » رئيس حزب القاسمية الذى بقى فى المشيخة إلى سنة ١١٣٦ وذلك بفضل اتحاده مع الفقارية ، ولكن الولى العثمانى اجتهد فى إثارة الفتنة بين الحزبين فانتهى الأمر بقتل إسماعيل بك . ثم أخذت المعارك تلعب دورها حتى انتصرت الفقارية انتصارا تاما وقضت على القاسمية ، وكان ذلك سنة ١١٤٢ هـ

ومن الفقارية ظهر على بك ^(٢) الكبير سنة ١١٧٧ وقد سعى للاستقلال بمصر وتكوين إمبراطورية تتألف من مصر والشام والحجاز ، وكاد ينجح فى مساعيه لولا ما قام به العثمانيون من خلق الدسائس بينه وبين تابعه محمد بك

أبي الذهب . وانتهت هذه الدسائس بقتل علي بك . ثم لم يلبث أبو الذهب أن مات بعد قليل ، فألت مشيخة البلد إلى إبراهيم بك ، وإمارة الحج إلى مراد بك . فظهر بينهما تنافس كاد يؤدي إلى الحرب .
وفي ذلك الوقت رأى العثمانيون^(١) ضرورة استرجاع نفوذهم في مصر بعد أن تلاشى تماما ، فأرسلوا حملة وصلت إلى الإسكندرية سنة ١٢٠٠ هـ وبعد قتال يسير انهزم المماليك في الرحمانية وفروا إلى الصعيد . إلا أن العثمانيين لم يستفيدوا من هذا النصر لاشتباكهم في حرب ضد روسيا واضطرابهم إلى سحب جيشهم من مصر . فعاد مراد وإبراهيم إلى القاهرة واستردا نفوذهما وأمعنا في ابتزاز أموال الأهلين وإيقاع المظالم بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية الفرنسية .

وفي سنة ١٢١٣ هـ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد استغل بونايرت رغبة الدولة العثمانية في القضاء على المماليك حين أرسلت جيشها سنة ١٢٠٠ لتتحقيق هذه الغاية ، فأعلن في منشوره إلى المصريين أنه إنما جاء للقضاء على طائفة المماليك الظلمة ، وليعيد مصر إلى نفوذ السلطان . كما أن المماليك اعتقدوا أن السلطان أراد أن يقضى عليهم هذه المرة بوساطة الفرنسيين . وإذا كان المماليك قد انهزموا من قبل أمام العثمانيين ، فإنهم انهزموا كذلك هزيمة شنيعة أمام الفرنسيين الذين ظلوا يحكمون مصر إلى سنة ١٢١٦ هـ حيث تم جلاؤهم عن البلاد .

وقد كثرت القلاقل والاضطرابات عقب جلاء الجيش الفرنسي ، واستمرت الأحوال تسير من سوء إلى أسوأ حتى تولى محمد علي حكم مصر سنة ١٢٢٠ هـ وقد حاول المماليك أن يستردوا نفوذهم الضائع مستعينين بالإنجليز ، ولكنهم باءوا بالفشل .

* * *

ولما استتب الأمر للعثمانيين شرعوا يدخلون نظاما جديدة في القضاء لاعهد .

(١) المرجع السابق ١٠٥/٢ .

المصريين بها من قبل . فصدر أمر إلى القضاة بأن يحكموا في بيوتهم . ثم عينوا (١) أميراً عثمانياً في وظيفة القضاء ولجعل مقره بالمدرسة الصالحية ، وأطلق عليه لقب « المحضر » يعاونه على تنفيذ الأحكام جماعة من الإنكشارية . وتقرر ألا تنفذ الأحكام الشرعية قبل عرضها عليه . وكان يحصل على رسوم من المدعى والمدعى عليه ، ويحقق معهما بوساطة ترجمان . وحكمه نهائى لا نقض فيه ولا إبرام .

ثم فرضوا رسوماً على المحاكمات التي تجرى عند القضاة الآخرين . قال ابن إياس معلقاً على تلك الحوادث « وقد ضعفت قوة الشرع الشريف في هذه الأيام جداً » والحق إن قوة الشرع كانت ضعيفة منذ عصر للماليك . فقد كان القضاة يدفعون مبالغ طائلة للسلطان نظير تعيينهم . ولم يفعلوا ذلك إلا لثقتهم في المغانم والأرباح التي تعود عليهم من هذه الوظائف . وقد ذكر ابن إياس هذا في تاريخه ، وأتى بما يندى له الجبين . وعلى كل حال فإن هذه الأنظمة الجديدة قد سببت ضيقاً وتبرماً عند المصريين . قال أحد شعراء ذلك العصر :

يارب زاد الظلم واستخوذوا والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا إلاك فانظر لنا ونجنا منهم وخذهم إليك

وقال ابن إياس :

لهني على الشرع الشريف وحكمه قد كان في زمن القضاة موقرا
يالهدف قلبي للشهود بمجلس كانوا بهم تقضى الحوائج لاورى
الله أكبر إنها لمصيبة وقعت بمصر ما لها مثل يرى

وقال آخر :

كان شعار الدين ظاهر كالشموس والمجالس من الشهود في الجلوس

(١) ابن إياس ٥ / ٢٢٠ وما بعدها .

شبه أقمار ترتاح إليها النفوس هم جمال الإسلام وقم القسوس
اختفت دى الشمس بظلم النهار
وقضاة الإسلام محي رسمهم والشهود اختفوا وضاع اسمهم
صار على العقد جاليه. وسمهم وقضاة القضاة بترسيمهم
طول النهار مع الأمين في حصار

١ وفرض العثمانيون (١) تحصيل رسوم على عقود الزواج وقضايا الطلاق .
وقرروا أن تجرى شئون الزواج والطلاق على يد أحد القضاة في منزله .
فتضرر المصريون من ذلك ، ثم أبطلوا نواب القضاة والشهود فأقفرت منهم
المدرسة الصالحية . وقد احتج الفقهاء على نظام الزواج والطلاق الجديد ،
ولكن احتجاجهم لم يأت بنتيجة . وفي سنة ٩٢٨ هـ عين السلطان سليمان
قاضيا يلقب بقاضى العسكر ومنحه سلطة واسعة تشبه سلطة وزير العدل
الآن . فكان يتولى تنصيب القضاة وعزلهم . وأمرهم أن يتخذوا المدرسة
الصالحية مقرا لهم كما كانت الحال من قبل . ولا تعتبر أحكامهم نافذة إلا بعد
مصادقته عليها . وعين كذلك قاضيا للمواريث سماه « قاضى الترك » ومشرفا
على أوقاف الجوامع والمدارس . وقد أصدر هذا القاضى أمرا بمنع النساء
من الخروج إلى الأسواق ماعدا العجائز فقط . ومنعهن من ركوب الحمير .
وفرض عقوبة صارمة على كل من تخالف ذلك « ووقعت منه أمور (٢)
شنيعة ماتقم من الجهال والمجانين » وكان كما وصفه ابن إياس « طاعنا في السن
أعور ، ذا لحية بيضاء ، قليل الرأسال من العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى
شيئا في الأحكام الشرعية . وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء »
لذلك كان موضع دعاية المصريين وسخريتهم . وقد هجاه بعض الشعراء ،
فمن ذلك قول أحدهم :

رأيت مسيحاً أعورا قبل موتنا أتى من بلاد الروم يمنع رزقنا
يقدم قانوناً على شرع أحمد فنسأل رب العرش يكشف كربنا
وقال ابن إياس :

رأيتك لا ترى إلا بعين وعينك لا ترى إلا قليلاً
فإن تك قد أصبت بفرد عين فخذ من عينك الأخرى كفيلاً
فقد أيقنت أنك عن قريب إذن بالكف تلتمس السبيلاً

* * *

ثم شرعوا في مسح الأراضي الزراعية بما في ذلك الأوقاف وفرضوا
عليها الضرائب الفادحة ، فرحل الفلاحون عن قرانهم . قال ابن إياس :
كان ابن عثمان مدجاً مصر مثل الضيف رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا في الشتا والصيف أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف
وكان المصريون يحرصون على اقتناء الكلاب للحراسة من اللصوص
وقطاع الطرق . فصدر سنة ٩٣٤ هـ أمر وصفه ابن إياس بأنه حادث غريب .
وهو أن الوالى العثماني أمر بقتل الكلاب ، فوقع فيها مقتلة عظيمة حتى
كادت تفنى . وفي ذلك يقول ابن إياس :

تأملوا ما جرى بمصر من حادث عم بالعذاب
فما رعى الترك في دماء فكيف يرعون دم الكلاب ؟

فلما كثر قتل الكلاب توجه الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى الوالى
ورجاه أن يصدر أمره بعدم التعرض للكلاب . فأجاب الوالى هذه الرغبة ،
ودعا الناس للزينى بركات ، وسكن الاضطراب الذى حدث بسبب
هذا الموضوع .

* * *

وعلى الرغم من أن مصر كانت ولاية عثمانية فإنها حافظت إلى حد كبير

على مكاتها بين العالم الإسلامي . فكانت كعبة طلاب العلم ، إليها يفدون من مختلف البقاع الإسلامية حيث يجدون في الأزهر أروقة خاصة ، لكل طائفة رواق له أوقاف ، فيسكنون ويأكلون ويدرسون ، ثم يعودون إلى بلادهم بعد أن ينالوا نصيبا من الثقافة . وسرى ذلك مفصلا واضحا عند الكلام على الحالة الفكرية .

وكان المحمل يخرج من مصر إلى الحجاز ، كما أن مصر كانت ترسل إلى الحجاز مقادير كبيرة من الحبوب ، ومبالغ من المال لتوزع على الفقراء وأبناء السبيل .

وكانت العلاقات التجارية والثقافية وثيقة بين مصر وشمال أفريقية . وقوافل الحجاج والتجار تمر بمصر في طريقها إلى الحجاز . كما أن العلاقات كانت وثيقة جدا بين مصر والشام ، وبينها وبين جزيرة العرب .

وهناك علاقات تجارية بين مصر وجنوب أوروبا . فالسفن تصل إلى مصر محملة بالبضائع الأوربية حيث يتم استبدالها بالمحاصيل المصرية . وكانت تقيم بالقاهرة والإسكندرية بعض الجاليات الأوربية ، من أفرادها من يعمل في الصناعة وبخاصة ما يتعلق بشئون المباني وإصلاح الساعات ، ومنهم من يشتغل بالتجارة ، ولهم أحياء خاصة بهم . وكان لبعض الدول قناصل في القاهرة والإسكندرية .

* * *

وقد وقف الشعب المصري من العثمانيين في بدء الاحتلال بموقف السخط والتبرم ، وذلك لما أحدثوا من أنظمة جديدة في القضاء وفيما يتعلق بالزواج والطلاق . ولكن حدة هذا السخط أخذت تخف بالتدريج ، واستطاع الولاة الذين عرفوا بالعدل والاستقامة أن يقضوا على سخط المصريين وكرهيتهم للحكم العثماني .

وكذلك كان مسلك الجنود العثمانيين في بدء الاحتلال من أكبر دواعي نفور (م ٢ الأدب المصري)

للمصريين من الحكم الجديد . فكانوا يقطعون الطريق في البر والبحر وينهبون كل ما وجدوا من البضائع . وظلت حوادث اعتداء الجنود على الناس تقل وتكثر تبعا للظروف ، ولكنها لم تنقطع طوال العصر العثماني . ويبدو أن المصريين نظروا إليها على أنها حوادث فردية لا علاقة للدولة بها .

وقد كان اشتباك الدولة العثمانية في جروب دأمة مع المسيحيين من العوامل الرئيسية التي أكسبتها قلوب المسلمين في مصر وفي غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ اعتبرت حامية الإسلام ، والذائدة عن المسلمين . وقد كسب السلطان العثماني منزلة مقدسة لا في قلوب المصريين فقط، بل في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . فكانوا يرفعون أصواتهم مؤمنين على دعاء الخطباء يوم الجمعة حينما يدعون بالنصر لسلطان المسلمين ولوزرائه وقواده وعساكره في البر والبحر إلى يوم الدين . فقد كان السلطان هو المجاهد والغازي في سبيل الله ، وحامي حمى الحرمين الشريفين .

وقد أدرك بونايرت هذه الحقائق حينما جاء لغزو مصر فنوه في منشوراته بصداقة فرنسا للسلطان ، وذكر أنه حضر إلى مصر للقضاء على طائفة المماليك وإرجاع مصر إلى حكم السلطان . وما فعل ذلك إلا لعله بالمكانة المقدسة التي يحتلها السلطان في قلوب المصريين .

ولما اختفى نفوذ العثمانيين وحل محله نفوذ المماليك الذين كانوا في نزاع دائم حول خيرات البلاد ، كان من الطبيعي أن يقف المصريون من هذا النزاع موقف المتفرج . وقد وجدنا قلة من هؤلاء المماليك فتحت قصورها أمام الشعراء والأدباء فنظموا في مدحهم القصائد والموشحات والأزجال، ودبجوا المقامات : هذا موجز عن الحالة السياسية في مصر خلال ذلك العصر .

فصل الثاني

الحالة الاجتماعية

ظهر في هذا العصر شراب القهوة^(١) . وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف^(٢) بالعيدروس . وكان أصل اتخاذه له أنه عن في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرتة . فوجد فيه تجفيفاً للدماغ ، واجتلاباً للسهر ، وتنشيطاً للعبادة . فأتخذه قوتا وطعاما وشرابا . وأرشد أتباعه إليه . ثم نشر ذلك في اليمن والحجاز ومصر . وقد جاء أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، فكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر في أوائل القرن السابع للهجرة ، وأشاعوا استعمالها بين المصريين ، كذلك أدخلوا شراب قهوة البن إلى مصر في أوائل القرن العاشر .

وكما اختلف المصريون في الحشيش ، وهل هو حلال أم حرام ، اختلفوا كذلك في أمر القهوة . فذهب قوم إلى تحريمها^(٣) لما فيها من الضرر . وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة ، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولا مغيبة . وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها ، وخصوصا في سهر العبادة . أو قراءة القرآن ، أو دراسة علم ، أو تحصيل معاش . فإن قصد بها الإحاطة على شيء من ذلك كانت قرينة عند الله تعالى .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس

(١) لم يرد في القاموس المحيط عن كلمة « البن » إلا هذه العبارة « البن ، بالضم ، شئ يتخذ كالمرى »

(٢) الكواكب السائرة طبع ببيروت سنة ١٩٤٥ ١١٣ / ١

(٣) رسالة عن القهوة ، تأليف محمد الدوشري المصري المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ مخطوط

رقم ١٥١ مجاميع - دار الكتب

كالتى تحاط بها الخمر كتصفيق شاربها ، وإنشاد أشعار الغزل والحب ، ووصف الخمر ، إذ أن ذلك يفسد النفوس وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش ، وخبز الغراب ، والأفيون . ولأن المقاهى تجمع الصغار والكبار ، والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس ، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر . وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهى ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ، ويسقط الشهادة ويدنس العرض .

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل فى بيان فضائلها ومنافعها . وذكروا أن شجرة البن فى الجنة غرسها سبعون ألف ملك ، وتسمى شجرة السلوان ، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم . وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم ، ويصفى الدهن ، ويشرح الصدر ، ويزيل الهم ويطيب النكهة ، ويقطع البلغم ، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر . وفى أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة ، لأن فيها .
« بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد زار الرحالة المغربى أبو بكر العياشى مدينة القاهرة ١٠٣٧ هـ فقال (١)
« ... ثم دخلنا لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى - رضى الله عنه - ومنزله قرب الجامع - يعنى الجامع الأزهر - وقدم لنا طعاما حسنا وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر ، وإنما يتكلمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة . والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض ، معلوم شهير نظما ونثرا »
« وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة . وترشح قوهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب ، زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ، ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية . ولا شك أنها تزيد

(١) رحلة أبى بكر العياشى ١ / ١٢٥ طبع الجزائر سنة ١٣١٦ هـ

ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر ، أو خلو المعدة صباحا . فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطا ، وأحس بخفة في رأسه ، وهذا في الغالب لمن اعتادها . وهي مخففة اتفقا وهاضمة . وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء ، وتكره لمن طبعه الصفراء . وهي نافعة لصاحب البلغم . وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره . ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها .

« والحاصل أن الشاربين لها فريقان : فريق يشربونها في أما يكن معدة لذلك مزخرفة ، قلما تخلو من هُو وحضور من لا يحل حضوره من الجوارى والمرد . فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارفها من الأمور المذمومة . فلا يبعد أن يقال إنها في حق هؤلاء محرمة ، لا لذاتها بل لما قارفها »

« وفريق يشربونها في سكنهم أو حوائيتهم ، أو يشربونها في السوق . ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول . فهؤلاء الحامل لهم عليها إلفهم لها حتى إنهم ربما يتضررون ضرراً خفيفاً بتركها كما يتضرر من ألف الحجامة بتركها . ومن ألف شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس . ويحملهم عليها أيضاً تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا . »

« وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز ، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء . هذا كله مع خفة المثونة ، إذ مجلس واحد يشرب من ذلك ما يكفيهم مع تيسرها في أي وقت أرادها . ولا يحتاج فيها إلى أكبر مثونة ، ولا مقارفة إدام أو ملح أو أضرار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأئمة . »

« ويزاد على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام الغداء للضيف بحيث لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فن دونه . ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان ديناراً

فأكثر . ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد . بل لو قدم أي طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئاً ، وإن قدمت هي كفت .

* * *

وقد ساهم الشعراء في هذه المعركة بنصيب ، فنظموا القصائد والمقطوعات في مدح القهوة والإشادة بمزاياها . ومن ^(١) هؤلاء إبراهيم بن المبلط ، وكان موجوداً سنة ٩٩١ هـ قال :

يا طائباً لشراب قهوتنا التي تشفى شفاء النفس من أمراضها
أوما تراها وهي في فنجانها تحكى سواد العين وسطبياضها ؟
وقال آخر :

للبن سر قد حكته شيوخنا يانعم منه كلهم أقطاب
فيهم نقول وقد تكامل وصفه في أكله نفع وفيه ثواب

وقال مجد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ

وقهوة بن تورث اللب قوة ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبه منع شربها ترى أمرها يعاوي ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه بلى عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهد فيزعم فيها أنها الحس تسكر
تحقق فيها النفع لاسيما لمن عن الجدد في فعل العبادة يفتتر

وبقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء مصر مدة من الزمن . ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها . وفتحت المقاهي في أحياء القاهرة ، وأخذ أصحابها يتنافسون في اجتذاب الناس . فكان منهم من يستأجر القصاص ليقصوا الحكايات المشوقة ، والقصص المعجبة وبخاصة سير الأبطال والمغامرين . فظهرت في ذلك الوقت سيرة الظاهر بيبرس وهي

(١) الكواكب السائرة ١٢/١

قصة طويلة امتازت بخيال خصب ووقائع طريفة ، فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى أحسن تصوير ، وتسجل كثيرا من عاداته وأخلاقه .

وظهرت قصة أخرى هي سيرة الأميرة ذات الهممة . وبعض قصص صغيرة مثل « الدرة المكالة في فتح مكة المبجلة » و « غزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الحجاج » و « فتوح اليمن المعروفة برأس الغول » وغير ذلك مما عسى أن يكون قد ضاع .

وتضخمت قصص كانت معروفة من قبل مثل سيرة أبى زيد الهلالى ، وسيرة عنتره العيسى ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وقصة ألف ليلة وليلة . ويتخلل هذه القصص شعر تقرب لغته من اللغة العامية ينشده القاص مع أعوانه تنشيطاً للسامعين ، ولكل قصة كبيرة طائفة من الناس اختصوا بسردها على الجماهير . فكانت هناك طائفة الظاهرية ، والعنترية ، والهلالية ، واليزنية ، وهكذا .

وإلى جانب القصص كانت هناك طوائف المنشدين الذين ينشدون الأشعار والأزجال والموشحات متخذين آلات الطرب كالربابة والعود . فراجت سوق الأدب الشعبى رواجاً عظيماً .

وقد كثر في هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل ، وانتشرت قصص الحشاشين ونوادهم وفكاهاتهم . وألف بعضهم في ذلك رسائل وفصولاً فيها ما يدل على قوة الخيال وخفة الروح التى اشتهر بها المصريون حتى في عصور المحن والشدائد .

* * *

وفي هذا العصر انتشر الدخان الذى ظهر في مصر لأول مرة^(١) سنة ١٠١٢ هـ كما ذكر الإسحاقى في تاريخه . وهو مؤرخ معاصر لاشك في صدقه .

(١) لطائف أخبار الدول ص ١٢٥

وقد ذكر لنا رأيه في الدخان فقال : « إن الدخان مضر بالأبدان ، وهو يابس الطباع ، لاشيء فيه من الانتفاع ، مبطل لحركة الجماع ، مسود للأسنان ، مهرب للملائكة الرحمن . وعاقبته وخيمته ، ومداومة شربه ذميمة ، يورث النتن في الفم والمعدة ، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الأفئدة . ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم ، وقوله في ذلك غير صحيح . ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان في ذلك ما يكف عنه الأشراف » .

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة ، فقد تمسك كثير من فقهاء المساميين بتحريمه . وما زال المسلمون في اختلاف من أمره ، فالوهاييون مثلاً يحرّمونه . وكانت تصدر أحياناً أوامر بمنع تعاطيه جهاراً . فقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة (١) ١١٥٦ هـ أن الوالي العثماني أصدر أوامر بمنع شرب الدخان في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الأغا ونادي بذلك وشدد في الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات في اليوم ، وكل من رأى في يده آلة الدخان عاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بما فيه من النار .

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل . ونظم بعض الشعراء شعراً في ذلك ، نذكر منه قول أبي المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ

هات اسقني التبغ إن تبغ الصفا سحرا	حتى أخذت منه وهو إغشاء
واستجّل أنوار شمع من يدي رشاً	قد زانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسي بالبعد قد وقدت	يوما يكون لها بالقرب إطفاء
فاملاً كئوس رحيق كالحرّيق فقد	أغنّتك إذ وصفت بالالطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها	وداوني بالتي كانت هي الداء

ولم تكن لفائف التبغ قد عرفت في ذلك الوقت ، وإنما كان يوضع الدخان في الأحجار التي مازالت تتخذ في النارجيلة . ولذلك ذكر الشاعر النار والكئوس ويعنى بها الأحجار ، كما ذكر الساقى الذى ناوله هذه النارجيلة وتغزل فيه على عادة شعراء الحمر .

* * *

وانتشر مدعو الولاية في كل مكان يمتثلون على أكل أموال الناس بالباطل . فروى الجبرتي في حوادث^(١) سنة ١١٠٧ هـ أن رجلا اسمه العليمى حضر من الفيوم وأقام بالقاهرة مدعيا الولاية . فاجتمع عليه كثير من العوام ، واختلط الرجال بالنساء ، وحدث بسبب ذلك فساد عظيم . وأغضب هذا بعض العساكر فقتلوه ، وفي ذلك يقول حسن البدرى الحجازى :

جاء دجال بمصر وادعى ما يدعيه
تهرع الناس إليه من وضيع وسفيه
وعاينه قدأكبوا يرتجون الخير فيه
وله يدلى صريع ليرى ما يعتريه
فيرى فيه انعكاسا خاب من يسعى إليه
ونساء مع رجال جالسات بالبديه
طول ليل مع نهار أجل فسق تبتغيه

وحدث في سنة ١١٧٣ هـ أن بعض خدام المشهد النفيسى أظهر عنزا صغيرة وزعم لها كثيرا من الخوارق والكرامات ، وأنها تكلم السيدة نفيسة ، وادعى أنه يسمع كلامها . وخدع بذلك العامة من الرجال والنساء ، فحملوا إليها الهدايا الثمينة كأطواق الذهب والفضة ، والمأكولات الشهية كالجوز والفسق وماء الورد . فأرسل الأمير عبد الرحمن كتحدا إلى صاحب العنز يدعو لزيارته مع العنز ليتبرك بها . فلما ذهب أدخلت العنز إلى المطبخ وذبحت دون أن يشعر صاحبها ولا يعلم ماجرى على عنزه . وبعد الأكل أراد أن ينصرف فسأل عنها فقيل له إنها كانت على المائدة . ثم وبخه الأمير وعنفه

وأمر أن يوضع جلدها على رأسه ويذهب في موكبته الذي جاء به . وفي ذلك يقول عبد الله الإدكاوي .

ببنت رسول الله طيبة الثنا نفيسة لذتظفر بما شئت من عز
ورم من جدها كل خير فإنها لطلابها يا صاح أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن يضل الوري في حبها منه بالعنز
فما جلها من نور الله قلبه بذبح ، والتيس من اجلها مخزى
وكان بعض مدعى الولاية يسرون في الشوارع حفاة عراة ، ولا يصلون
ولا يصومون . وقد (١) سأل عبد الله جاك مينو قائد الحملة الفرنسية في مصر
شيوخ الأزهر عن الذين يسرون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون
ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدم العامة ، ولا يصلون صلاة المسامين
ولا يصومون ، وهل هذا جائز في الدين الإسلامي أم محرم ؟ فأجابوه بأنه
حرام ومخالف للدين والشرع والسنة . فأمر جاك مينو بمنع هؤلاء الناس من
السير على ما اعتادوا ، وإلقاء القبض على كل من يخالف ووضعه في المارستان
إن كان مجنوناً ، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلاً .

وكثر ظهور أرباب الطرق الذين اتخذوا التصوف والدروشة وسيلة
للكسب الحرام . فكانوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى
قرية . يقيمون الحضرات ، ويعطون العهود والمواثيق للناس . فيضطر هؤلاء
إلى إقامة الولائم للمشايخ ، وتقديم الهدايا لهم من سمن وزبد وجبن وحبوب
وأغنام وفواكه . فيجمع المشايخ مقادير كبيرة من هذه الأشياء ، وبذلك
يعيشون عالة على المجتمع ، ويستحلون أموال الفلاح الفقير المسكين . وقد
عرض الشعراى بهؤلاء المحتالين تعريضا شديداً في كثير من كتبه . مثال
ذلك ما جاء في « رسالة في التصوف » له حيث يقول : « . فقد دعانى داعى
الشفقة على طائفة من الفقراء في هذا الزمان ، سمو أنفسهم بالصوفية ، وادعوا

الولاية الكبرى وهم أضل من الأنعام. فصار كل من أذن له شيخه بأن يستفتح الذكر بجماعة ، وأذن له بأن يلقي الناس أو لم يأذن له ، وسمع في خلوته هاتقا من جنى أو شيطان ؛ يظن أنه ولي الله عز وجل . فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم . فتارة يجلس في بلده ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة النكدة على الخاص والعام . وهو مع هذا يدعى أنه قائم في الخلق مقام نبيهم صلى الله عليه وسلم . وكفى بذلك كفرا وجهلا وسوء أدب . »

ومن هنا نرى أن أحوال تلك الطائفة كانت موضوعا للكتاب والشعراء وبخاصة في أوائل العصر العثماني . وهذا من الأدب الاجتماعي الذي يتناول دراسة المجتمع ، وإظهار ما فيه من عيوب ، والإرشاد إلى العلاج .

* * *

وقد أخذت الأضرحة التي وجدت في مصر منذ القرن الثالث الهجري تزداد يوما بعد يوم حتى صار لكل قرية ضريحها . وظل الناس كما كانوا من قبل عاكفين على إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة ، مدفوعين إلى ذلك بعوامل مختلفة . فقد كانت هذه الموالد أسواقا تجارية ومعرضا للسحرة والمشعوذين ، يعرضون فيها ألعابهم على الناس . وأمكنة يجتمع فيها الخواة وأصحاب الألعاب البهلوانية وتقام فيها المطاعم والملاهي والمراقص والمغانى . ومضمارا يتبارى فيه ركاب الخيل . وكان الأدباء والشعراء يجتمعون ببعض هذه الموالد وبخاصة مولد الحسين وأحمد البدوي ، والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، وينشدون ما نظموا من قصائد في مدح أصحاب هذه الأضرحة والتوسل بهم . وما نظموه في أغراض أخرى كالألغاز والتصوف والدعابات والفكاهات وغير ذلك . وقد كثرت القصائد التي نظمت في مدح أحمد البدوي ، والحسين ، والسيدة زينب والإمام الشافعي .

* * *

وفي هذا العصر استمر الجدل بين الفقهاء والمتصوفة حول الرقص والغناء والضرب على الآلات الموسيقية في حلقات الذكر . فكان الفقهاء ينكرون هذا ويرونه من المحرمات التي يجب منعها ، وقد ألف ابن حجر الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ كتاب « كف (١) الرعاع عن محرمات اللهو والسماع » وهو رد على كتاب لأحد المتصوفة سماه « فرح الأسماع برخص السماع » ويقول ابن حجر إن الزعم بأن الغناء يرقق القلب زعم باطل ، والحق إنه يحرك الشهوات ، وهو شعار الفسقة . والرقص إذا حدث عن تواجد فلا حرمة فيه . على أن التواجد غير مسلم به لصاحبه لما يتضمنه من التكاف والتصنع والرياء .

ولعبد الرحمن به مصطفى العيدروس المتوفى بالقاهرة سنة ١١٩٢ هـ رسالة سماها « تشنيف الأسماع ببعض أسرار السماع » أيد فيها وجهة نظر المتصوفة .

وقام بالجامع الأزهر (٢) سنة ١١٤٧ هـ رجل تكروى ادعى النبوة ، وزعم أن جبريل نزل عليه وعرج به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأنه صلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل . ولما فرغ من الصلاة أعطاه جبريل ورقة وقال له « أنت نبي مرسل ، فأنزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات » فرماه العلماء بالجنون فرد عليهم قائلاً إنه ليس بجنون ، وإنما هو نبي مرسل . فضربوه وأخرجوه من الجامع . ثم أرسل إلى المارستان ، فاجتمع عليه الناس رجالاً ونساء فأمر الوالي بوضعه في السجن ، وطلب من العلماء أن يعرضوا على هذا الرجل التوبة ، فامتنع وأصر على رأيه فأمر الوالي بقتله ، فقتلوه وهو يقول « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ونظم الشعراء في ذلك شعراً ومواليا فمن المواليا قول أحدهم :

واحد ظهر وادعى أنو نبي من حق وأنو عرج لاسما واجتمع بالحق
وإبليس ضلوا وصدوعن طريق الحق قم ياوزير البلد واحكم على قتله
أهل العلوم أرخوا هذا كفر بالحق

(١) مطبوع بهامش « الزواجر عن اقتراف الكبائر »

(٢) الجبرتي ١ / ١٤٧

وقد انتشرت الآراء الإلحادية بين عدد قليل جدا من المصريين في أوائل هذا العصر . وربما كان الذي نشرها هو داود الأنطاكي فإننا نجد الشهاب الخفاجي الذي درس الطب على داود^(١) يقول في ترجمته له « إنه على مذهب الحكماء ومشرب الندماء . ولذا أكثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل عنه شرح قطر من خفي إلحاده . ثم لما أكثر اللغظ فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق »

وذكر صاحب خلاصة الأثر^(٢) في ترجمة يحيى بن عيسى الكركي الملحد الزنديق ، كما وصفه ، أنه سافر إلى مصر في طلب العلم « وكأنه عاشر بعض الملاحدة فغلبت عليه اعتقادات فاسدة ، وبث فيها شيئاً من اعتقاداته » والكركي هذا قتل سنة ١٠١٨ هـ وداود الأنطاكي كان بالقاهرة إلى سنة ١٠٠٧ هـ وعلى هذا فربما يكون الكركي قد اتصل وهو بالقاهرة بداود وتلاميذه ، وأخذ عنهم الآراء الإلحادية . ولكن ليس في كتب داود التي وصلت إلينا ما يدل على إلحاده ، بل على العكس فيها ما يدل على أنه كان عميق الإيمان . فلعله كان يتحدث بأحاديث فلسفية رأى الناس فيها إلحاداً . وربما شعر بأنهم أرادوا به سوءاً فرحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج قطعاً للألسنة . أما الكركي فإنه تهور وصرح بالكفر فلذلك كان نصيبه أن ضرب في القاهرة ، وقتل حين رجع إلى بلده .

وقال صاحب « هز القحوف »^(٣) مانصه : « ... وسمعت بعض الملحدين من الدراويش الملقين لحاهم يقول كلاماً يخالف الكتاب والسنة ، وهو أن البعث والنشور ، والجنة والنار لا حقيقة لها . وأن الشخص جنته وناره وحسابه في نفسه . وأن الدنيا لا تنفني ولا تزول . وإن الشخص إذا خرجت روحه ومات دخلت في جسد من الأجساد ، في آدمي أو حيوان ، حتى يدور عليها الدور فترجع إلى صاحبها الأول فيظهر بصورته التي كان عليها أولاً . وهكذا سائر العوالم »

(١) ريجانة الألبا ص ٢٧١ طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ (٢) ٤ / ٤٧٨

(٣) ص ٧٦ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

ورأينا خكام هذا العصر يخشون بأس الأزهريين ولا يستطيعون لهم دفعاً .
ويحاولون أن يسترضوهم ولا يؤخرون لهم طلباً . وقد حدث أن ورد مرسوم
سلطاني إلى الوالي ينص على إلغاء ما يصرف من الأوقاف الخيرية في جهات
البر . وأن ترسل أموال هذه الأوقاف إلى السلطان . وعقد مجلس حضره
الوالي والقاضي العثماني والشيخ سليمان المنصوري من علماء الأزهر . فقال
القاضي : أمر السلطان لا يخالف وتجب طاعته . فاعترض الشيخ سليمان قائلاً :
إن أموال هذه الأوقاف تنفق في وجوه البر ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله
ورسوله أن يبطل ذلك ، وإن أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ، لأنه يخالف
للشرع ، ولا يسلم للإمام في فعل يخالف الشرع ولا لنائبه . فسكت القاضي
وانتهى الأمر بإهمال مرسوم السلطان . والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها
ما حدث^(١) سنة ١١٩١ هـ حين اختلف الأزهريون مع بعض الأمراء
فاجتمعوا بالجامع الأزهر وأقفلوا أبوابه وأبطلوا الدروس والأذان
والصلوات . وطلع بعض شبابهم على المآذن وأكثروا من الصياح والدعاء
على الأمراء . فلم يسع هؤلاء إلا أن أقبلوا مسرعين وأجابوا الأزهريين
إلى مطالبهم .

وكانوا يشتمون الأمراء ويعنفونهم . وقد^(٢) حدث أن يوسف بك ؛
وكان يحكم البلاد نيابة عن محمد بك أبي الذهب ؛ نقم على أحد القضاة فأمر
بحبسه . فلما سمع علماء الأزهر بذلك توجهوا إلى منزل يوسف بك وناقشوه
في موضع حبس القاضي . وسبه الشيخ على الصعيدي وقال له « لعنك الله ،
ولعن اليسرجي الذي جاء بك ، ومن باعك ومن اشراك ، ومن جعلك أميراً »
وأخذوا القاضي المحبوس وخرجوا وهم يسبونونه وهو يسمعهم . ولم يفقد
الأزهريون تلك المنزلة إلا منذ قيام حكم محمد علي .

* * *

وقد اهتم الأمراء والأعيان والحكام بإقامة القصور الفخمة ، وبناء المساجد والمدارس والأسبلة . فكان للبكرين قصور كثيرة حول بركة الأزبكية وبركة الرطلى . وللسادات قصورهم كذلك . وتنافس الأمراء في تشييد الدور الواسعة وأنفقوا عليها أموالاً طائلة . ومن أشهر الولاة الذين اهتموا بحركة التعمير سنان باشا . ومن الأمراء رضوان كتحدا الجلفى^(١) المتوفى سنة ١١٦٨ هـ فقد أنشأ عدة قصور بالغ في زخرفتها وتأنيقها . وعبد^(٢) الرحمن كتحدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ وكان مغرمًا بإقامة المساجد والكتاتيب والأسبلة والأضرحة . فأنشأ بين القصرين سبيلاً يعلوه كتاب . وقد لفت هذا البناء الأنظار بما تجلى فيه من دقة الصنعة وجمال الفن . وبني جامع المغاربة وسبيلاً وكتاباً بالقرب منه . وشيد تجاه باب الفتوح مسجداً بمنارة وصهريجاً وكتاباً . وبالقرب من الأزبكية سقاية وحوضاً لسقى الدواب وكتاباً . وأنشأ مثل هذا في أماكن أخرى . ومن أهم أعماله الإنشائية الزيادة التي أدخلها على الجامع الأزهر ، والتي رفع سقفها على خمسين عاموداً من الرخام ، مع مثلها من البوائك المقوصرة المتسعة المبنية من الحجر المنحوت . وبني فوقها مكتباً فخماً لتحفيظ القرآن ، وأنشأ به سبيلاً . وشيد بالأزهر رواقاً لأهل الصعيد الذين يطلبون العلم ، وجعل به مرافق ومنافع ومطبخاً ومخادع وخزائن للكتب . وأقام للأزهر منارتين . وجدد رواق المكيين والتكروريين . وأعاد بناء المدرسة الطبرسية التي بالقرب من المشهد الحسيني ، وجدد مسجداً بجوار ضريح الإمام الشافعي . وجدد المسجد النفيسي والجامع الملحق به . وبني جامعاً عند باب البرقية وحوضاً وسقاية ومكتباً ، وعين به بعض المدرسين . وبني مسجداً ومكتباً بالقرب من كوم الشيخ سلامة بالأزبكية . وأدخل إصلاحات كثيرة على ضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري . وجدد بناء مشهد السيدة سكيئة ، والسيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية ،

وأبى السعود الجارحى . وبنى جامعاً ورباطاً بحارة عابدين . وأعاد بناء المدرسة السيوفية والمارستان المنصورى . وخص عن أوقافه واستخرجها ممن وضعوا أيديهم عليها . وشيد بالقاهرة عدة قناطر على الخليج وأقام عمائر كثيرة وقناطر فى بعض جهات القطر المصرى وفى الحجاز . وبنى لنفسه قصرين عظيمين أحدهما بجهة بولاق ، والآخر بعابدين . وكان قصره بعابدين فى منتهى الفخامة والروعة ، مبلطاً بالرخام والقيشاني ، ومنقوشاً بالذهب واللازورد والأصباغ البديعة الألوان ، وغرس به حديقة غناء ، وأنشأ فيها فسقية ذات أعمدة من الرخام وقد كان عالماً بهندسة البناء ، مهتماً بالإتفاق على الفقراء وبخاصة العميان ، ولذلك مدحه الشعراء . فمن ذلك قصيدة طويلة نظمها أحدهم نوه فيها بما شيده هذا الأمير من المباني ، اسمها « مشارع^(١) خيرات حسان فى مدح الأمير كتحدا عبد الرحمن » .

ونجد الرحالة الإنجليزى إدوارد لين الذى زار مصر سنة ١٨٢٥ يقول واصفاً حركة العمران^(٢) : « أما الفن الذى برع فيه المصريون فهو فن العمارة . وتشاهد فى العاصمة وما يحيط بها أروع آيات الفن المعماري العربى . وليست المساجد وغيرها من المنشآت العامة هى وحدها التى تتميز بالروعة والجمال ، بل إن البيوت التى يملكها الأفراد تثير فىنا هى الأخرى الإعجاب ، وخاصة البناء الداخلى منها ، والنقوش التى تزينها » .

* * *

ولم يعرف المصريون الأوربيين حق المعرفة إلا منذ قدوم الحملة الفرنسية . أما قبل ذلك فإن الجاليات الأوربية التى كانت تنزل بالقاهرة والإسكندرية كانت تعيش فى أحياء خاصة ، وتنزى بالزى الشرقى وتتكلم اللغة العربية حتى كان من الصعب التمييز بين الأوربى والتركى . ولم يعرف المصريون شيئاً عن

(١) منها نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٦٦٤ - أدب فى ٣٠ ورقة .

(٢) انجليزى فى مصر ترجمة فاطمة محبوب . طبع دارالتحريز بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٩٧ .

أوروبا الحديثة وما أحرزته من ضروب التقدم والرقى . وحتى بعد قدوم الحملة ظلت معلومات المصريين عن الفرنسيين مشوهة تدعو إلى الضحك . انظر مثلاً إلى ما يقوله الشيخ عبد الله الشرقاوى عنهم : « . . . وحقيقة^(١) حال الفرنسيين الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قائلين بخلق عيسى عليه السلام ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين . ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل . ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ويسموننا شرائع . ويزعمون أن الرسل مجلأ وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم . ولذلك جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم . وكان في ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع »

وقد تعرضت البلاد لكثير من الأوبئة والطواعين والمجاعات التي كانت تفتك بالناس فتكا ذريعاً . وزاد الحالة سوءاً كثرة الفتن والمعارك التي كانت تدور رحاها بين بعض المماليك وبعضهم الآخر . قال الجبرتي^(٢) في حوادث سنة ١١٩٨ هـ ما ملخصه « وانقضت هذه السنة كالتى قبلها في الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة ، وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجباية الأموال من القرى والبلدان حتى أهلكوا الفلاخين . وترك كثير منهم الحقول وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره ، فلا يجد الزبال شيئاً يكتسه . واشتد بهم الحال حتى

(١) تحفة الناظرين ص ٢٤٥ . مطبعة بولاق

(٢) ٨٣ / ٢

الميتات من الخيل والحمير والجمال . فإذا خرج حمار ميت تراجموا عليه وقطعوه وأخذوه . ومنهم من يأكله نيئاً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء جوعاً . وازداد الغلاء وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس . وقل التعامل إلا فيما يؤكل . وصار سحر الناس وحدثهم في المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لاغير . ومد الأمراء أيديهم إلى المواريث يغتصبونها بالرغم من وجود الورثة الشرعيين . وأصيب المجتمع بالتفكك والانحلال ، فقد فسدت النيات ، وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع ، وكثر الحسد والحقد ، وعمت الوشاية والنميمة »

وكان هذا سبباً في إقبال الناس على التصوف والالتحاق بالتكايا أو المعاهد الدينية ليعيشوا من الأوقاف المرصودة على هذه الأماكن .

ولم يكن الريف للمصرى يعاني مظالم المماليك فقط ، بل كان يعاني كذلك مظالم العربان الذين اعتادوا أن يشنوا الغارات على القرى والكفور ، وينهبوا المحصولات والمواشى والأغنام . فلا عجب أن انحط الريف المصرى إلى حد كبير ، وأصبح في حالة يرثى لها من الفاقة والإملاق وسوء الحال . وإنك لتجد في كتاب «هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف» للشربيني صوراً كثيرة لما آل إليه الريف المصرى من البؤس والفقر .

هذا موجز عن الحالة الاجتماعية في مصر إبان العصر العثمانى .

الفصل الثالث

الرحلة الفكرية

ساد في هذا العصر مذهب أهل السنة ، وهو المذهب الذي عرفته مصر منذ سقوط الدولة الفاطمية . وكانت آراء الأشعرى هي المعتمدة عند غالبية رجال الدين . والانحياز إلى آراء الأشعرى يقتضى مهاجمة المعتزلة الذين قل وجودهم في العالم الإسلامى إبان العصر الذى ندرسه ، ولكن كتبهم كانت معروفة . فأخذ أشاعرة تلك الأيام على عاتقهم مهمة الرد على ما جاء فى هذه الكتب . وأكثر ما ظهر هذا فى دراستهم لكتب التفسير وبخاصة الكشاف للزمخشرى . فكانوا يحملون عليه إذا تناول شيئاً يتعلق بالاعتزال . أما إذا تكلم فى النحو والبلاغة فهو عندهم الصادق المصدق ، والإمام المحقق . فهم يأخذون من القدماء ما وافق عقائدهم ويرفضون ما خالفها . ويمدحون كل من يعرض بالمعتزلة بحق وبغير حق . وإلى جانب تفسير الزمخشرى فإنهم كانوا يدرسون تفسير البيضاوى والفخر الرازى ويقفون منهما الموقف المتقدم . وألّفوا رسائل فى الإيمان ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ وهل يكون بمشيئة الله أم لا ؟ نذكر من هذا « رسالة فى الإيمان ^(١) » وكونه مخلوقاً أو غير مخلوق « للشهاب الخفاجى » و « رسالة فى الإيمان ^(٢) » ، وهل يكون بمشيئة الله أم لا ؟ له . و « رسالة الجواهر المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان ^(٣) » الجازم إلى المشيئة « لأبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ و « رسالة ^(٤) » فى كلام الله ، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ له . و « رسالة الدر النظيم فى تحقيق الكلام القديم » لأحمد الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، و « رسالة فى تحقيق

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) مجاميع تيمور . مخطوط رقم ٣٣١ ، ٩٢

(٥) ١٩٣ مخطوط تيمور

الجزء (١) الاختياري « له ، و «رسالة الفطرة» (١) السليمة في تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة « له أيضا . وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يتناولون هذه الموضوعات في خلال شرحهم للقرآن وتفسيرهم للحديث ، وفي الحواشي والتعليقات التي وضعوها على بعض الكتب .

وقد جاء بهاء الدين العاملي إلى مصر سنة ٩٩٢ هـ وألف بها كتاب «الكشكول» وضمنه مطاعن كثيرة في آراء الأشعرية ، وانتصارا للمعتزلة الذين كان ينتمى إليهم .

وقد اتخذت الدولة العثمانية المذهب الحنفي مذهبا رسميا لها . فألفت كتب كثيرة في مناقب أبي حنيفة النعمان ، مثل «عقود» (٣) الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان» تأليف محمد بن يوسف من فقهاء القرن العاشر . و«الخيرات» (٤) الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان « لابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ ومع أنه شافعي المذهب إلا أنه سخر قلمه في خدمة سياسة الدولة العثمانية . و «أعلام» (٥) الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار « تأليف محمود بن سليمان المتوفى سنة ٩٩٠ هـ و «الكلمات» (٦) الشريفة في تنزيه أبي حنيفة من الترهات السخيفة « لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ و «عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب أبي حنيفة « لمرتضى الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ إلى غير ذلك

وكان بعض أتباع المذاهب الأخرى يؤلفون كتباً في الطعن على أبي حنيفة . وقد أشار إلى ذلك محمد بن يوسف في مقدمة كتاب «عقود

(١) ٢٠ ، ١ | مجاميع بيروت رقم ٢٥٩ ، ٩٢

(٣) مخطوط رقم ١٨٠ م ، ١٣ ش دار الكتب

(٤) مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ

(٥) مخطوط رقم ٨٤ تاريخ م

(٦) مجاميع رقم ٣٧٣ ، ٤٢٧

(٧) طبع بمصر سنة ١٢٩٤ هـ .

الجمان « كما أشار ابن حجر الهيثمي إلى الطاعنين على أبي حنيفة في كتابه
« الخيرات الحسان »

وعلى كل حال فإن المصريين رفضوا أن يجتمعوا على المذهب الحنفي على الرغم من الدعاية التي روجها العثمانيون لهذا المذهب ، وعلى الرغم من إيثارهم الأحناف للوظائف القضائية . وتمسك قسم كبير من المصريين بمذهب الشافعي ، لأن صاحبه مدفون بالقاهرة ، وله ضريح كان الناس ومازالوا يزورونه متبركين . وبقي مذهب مالك كما كان من قبل . وساعد على ذلك وفود المغاربة إلى القاهرة ، وهؤلاء معروفون بتمسكهم بالمذهب المالكي . أما الحنابلة فكانوا قلة . ومما هو جدير بالذكر أن المصريين منذ وجدت الدراسات الفقهية في مصر ، أظهروا ميلاً شديداً إلى مذهب مالك . ولما جاء الشافعي إلى القاهرة انتشر مذهبه . أما مذهب أبي حنيفة فكان قليلاً . ومذهب ابن حنبل كان نادراً .

وإن فكرة توحيد الأحكام فكرة سليمة جداً ، ولكن المجتمع المصري حرم من هذه الميزة . ولذلك كان الناس يعانون في عباداتهم وعاملاتهم حيرة واضطراباً ، وبخاصة الطبقات الجاهلة . وقد صور لنا الشعراني في كتابه « كشف الغمة عن جميع الأمة » هذه الحيرة فقال « . . . وبعد ، فقد شكنا إلى مرارا بلسان الحال وبلسان المقال جماعات من الفقراء المتعبدين وأهل الحرف النافعة من المؤمنين ما يجدونه في نفوسهم من كثرة الغم حين يسمعون العلماء يقرأون مذاهبهم وينصرون أقوالها دون مذاهب غيرهم . وقالوا لي : قد التبس علينا شرع ربنا الذي تعبدنا به ، وعسر علينا تمييزه ، وازدرانا لجهلنا غالب الدين لم ننتقيد بمذاهبهم . فإن توضحنا على مذهب قال لنا أهل المذهب الآخر : وضوءكم باطل وإن صلينا على مذهب قالوا : صلاتكم باطلة . وإن زكينا قالوا : زكاتكم باطلة . وإن صمنا قالوا صومكم باطل . وهكذا في سائر عباداتنا . وما نعرف الحق مع أيهم حتى نقتصر عليه . وقد أوردت ذلك عندنا الحيرة والشك » واستطرد الشعراني فذكر أنه ألف هذا الكتاب معتمداً

على كتب الحديث الموثوق بها . وأورد معظم أدلة المجتهدين معتقداً أنه بهذا الكتاب يستطيع أن يقضى على الحيرة والشك ، وأنه قادر على جمع المصريين على كتابه ، ولكن غرضه لم يتحقق .

ويقال إن السلطان سليمان القانوني فكر في وضع قانون لجميع المسلمين ولكنه مات قبل أن ينفذ هذا المشروع .

* * *

وظهر في هذا العصر كثيرون من كبار الفقهاء الذين كسبوا شهرة واسعة في العالم الإسلامي ، وسعى إليهم طلاب العلم من الآفاق .

فمن فقهاء المذهب الحنفي : أحمد بن محمد الشوبري (١) المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ الذي لقب بأبي حنيفة الصغير ، وقد أخذ عنه جميع علماء الحنفية في ذلك الوقت من أهل مصر والشام . ووصفه بعضهم بقوله « قررة عين الإمام الأعظم وصاحبه ، من انتهت رئاسة الحنفية بالقاهرة المعزية إليه » .

ومن فقهاء الشافعية : محمد (٢) بن أحمد الملقب بشمس الدين الرملي ، المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ وقد اشتهر بالشافعي الصغير . وزعم بعضهم أنه مجدد القرن العاشر ، وبالغوا في مدحه . وهو كما يقول صاحب خلاصة الأثر « أستاذ الأستاذين ، وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريهم ، محيي السنة ، وعمدة الفقهاء طارصيته في الآفاق . فرحل إليه طلبة العلم ، وأقبل الناس على قراءة كتبه » .
ومن المالكية : سالم بن محمد السنهوري المتوفى سنة ١٠١٥ هـ كان كما ذكر المحبى « أجمل أهل عصره غير مدافع ، وأخذ عنه الجهم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين » .

ومن الحنابلة : (٤) منصور البهوتي المتوفى سنة ١٠٥١ هـ وقد اشتهر ذكره في أنحاء العالم الإسلامي . فرحل إليه طلبة العلم من شتى الجهات ،

(٢ ، ١) خلاصة الأثر للمحبى ١٧٤/١ الطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ

(٤٣) خلاصة الأثر ٢/٢٠٤ ، ٤/٢٦٦

وله مؤلفات مازالت موضع الاحترام .

والآن يحق لنا أن نتساءل : إلى أى مدى جدد هؤلاء العلماء فى الفقه ؟
وهل أضافوا شيئاً جديداً إلى مادته ؟

الواقع أنهم لم يأتوا بجديد، لأن المذاهب الفقهية كانت نضجت واكتملت
على أيدي من سبقهم من العلماء، ولكنهم استوعبوا هذه المذاهب وفهموها
فهما جيداً، وتمثلوها الى حد بعيد حتى أصبح كل منهم عالماً متبحراً فى مذهبه،
محيطاً بدقائقه إحاطة تامة ، قادراً على شرح ما عسى أن يكون غامضاً منه .
وهذه ميزات ليست يسيرة .

* * *

وكان الجامع الأزهر معهداً عاماً تدرس فيه جميع العلوم كالتفسير
والحديث وفقه المذاهب الأربعة ، والنحو والبلاغة والمنطق والرياضيات .
وبه أروقة لمختلف أجناس الطلاب . وله أوقاف طائلة ، وبه مكتبة ضخمة .
والدراسة فيه منتظمة لا تكاد تنقطع (١) طوال اليوم . والطلاب يلتفون
حول أساتذتهم فى شكل حلقة ذات صفوف . فيجلس بالقرب من الأستاذ
الأفضل ، ويليه الأقل فالأقل . وهذه الصفوف تسمى طبقات . فيقال فلان
من أهل الطبقة الأولى ، أو الثانية ، أو الثالثة ، وهكذا . وبعض المدرسين
يتخذون (٢) ملاحظاً يتولى إجلال الطلاب كل فى مكانه . وقد يعهد بهذا
إلى أحد طلبته . ولبعضهم معيدون يتولون إعادة ما ألقاه الأستاذ على الطلبة

(١) قال أبو بكر العياشى الذى زار مدينة القاهرة سنة ١٠٣٧ « وبتنا تلك الليلة بالجامع
الأزهر ، لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضان . وفى الحقيقة كل الليالى بذلك المسجد كلية
المدر . لأنه معبور بالذكر والتلاوة والتعليم آباء الليل وأطراف النهار . لا تنقطع منه العبادة
ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء . فهو عديم النظير فى مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .
لأهلها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها . وإن خص هو بهذه الفضيلة فدير مستنكر وجود مزية
والمفضول ليست فى الفاضل . إذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة »

(٢) خلاصة الأثر ٣/١٩٥

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم ؛ وظائف مشايخ الأروقة ، وكانت موضوعا للتنافس . وشيخ الأزهر يعين بعد أخذ رأى علماءه . وتراعى فيه الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عن مذهبه . وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام ، و عاشوا عيشة الأمراء في مسكنهم وملبسهم وما كلهم .

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب (١) سنة ١١٨٧ هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة ، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر ، وجعل به مكتبة تحوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة ، كان من بينها « شرح القاموس المحيط » للزبيدي ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف . ورسد له الأوقاف اللازمة للإنفاق على المدرسين والطلبة . ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه .

وكانت هناك معاهد خاصة بكل مذهب عدا المذهب الحنبلى لعدم إقبال الناس عليه ، فلم يدرس فى غير الأزهر . ولبعض هذه المدارس الخاصة شهرة لا تقل عن شهرة الأزهر ، ولها احترام كبير .

فمن هذه المعاهد : المدرسة الخشابية بجوار الإمام الشافعى . ولا يعين بها إلا أعظم علماء الشافعية . وهى مختصة بتدريس فقه الشافعى وكذلك المدرسة الصلاحية وهى بجوار الخشابية . وهاتان المدرستان من أقدم مدارس القاهرة . وكان للشافعية مدرسة أخرى بجوار الأزهر ، هى المدرسة الطيبرسية . وللأحناف مدارسهم الخاصة كذلك ؛ وأشهرها العسرى مشيخة والسناوية والأشرفية ، والمؤيدية . ولهم بحى الصليبية مدرستان : إحداهما اسمها البرقوقية والأخرى اسمها الباسطية .

وعلاوة على ماتقدم فإن كثيرا من مساجد القاهرة والأرياف كان يتخذ أمكنة للدراسة . فإذا اشتهر عالم فى جهة من الجهات ، وأراد أن ينفع

الناس بعلمه ، ذهب إلى أقرب مسجد وعقد الدرس فيقبل عليه الناس نظرا لشهرته . وقد كان مرتضى الزبيدي يدرس صباحا في مسجد شيخون لقربه من منزله . ويدرس بعد الظهر في مسجد الحنفي . وكانت دروسه مجمعا للطلاب بل ولعلماء الأزهر أنفسهم ، ولبعض الأمراء والأعيان .

وكانت للأسكندرية مدارسها . واشتهر في دمياط جامع^(١) البحر ، وفي طنطا جامع أحمد البندوي وبخاصة بعد أن جددته على بك الكبير، وزوده بمكتبة، ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته . وفي دسوق جامع إبراهيم الدسوقي . وفي منوف معهد درس فيه كثير من العلماء . واشتهرت جرجا وفرشوط بمدارسهما وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما . وقد زار مرتضى الزبيدي مدينة فرشوط ونزل عند حاكمها شيخ العرب همام الذي أكرم وفادته ، ومنحه بعض شعرائها . والكتاتيب منتشرة في كل مكان . وكان طلاب الأقاليم يحضرون إلى الأزهر لاستكمال علومهم .

قال ادورد لين^(٢) الذي زار مصر سنة ١٨٢٥ م « والكتاتيب في مصر كثيرة متعددة ، لاني العاصمة وحدها ، بل في كل مدينة كبيرة . ويوجد كتاب واحد على الأقل في كل قرية من أمهات القرى . وما من مسجد في العاصمة أو سبيل أو حوض مما تشرب منه البهائم إلا وألحق به كتاب يتعلم فيه الأطفال نظير نفقات ضئيلة »

وكان الأطفال يتعلمون القراءة فقط . أما الذين يتعلمون الكتابة فكانوا قلة ضئيلة . وهكذا تفشت الأمية على الرغم من وجود الكتاتيب في كل مكان .

(١) قال أبو بكر العياني الذي زار مصر سنة ١٠٣٧ هـ يصف مدينة دمياط وجامعها الكبير « وهي - دمياط - مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل . ذات مساجد كثيرة ، وأسواق حافلة ، وخانات عامرة ، ومرسى عجيبة . غصت بها السفن الكبار . والقوارب الصغار . فيها من أنواع الفواكه والثمار ، وصنوف الأطعمة ، لا يكاد يوجد في غيرها »
« وكان نزولنا بمسجدها الكبير ، وهو مسجد وثيق البناء ، فسيح البناء ، على ساحل البحر ، يضرب الماء في سورته . يتناول الشارب والتوصي الماء بيده من البحر وهو جالس في باب المسجد . وفي المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ما في الأزهر »

(٢) انجيزي يتحدث عن مصر ص ٣٥

ونجد في هذا العصر تساهلا كبيرا في منح الإجازات العلمية . ففي العصور الأولى كان طالب الأجازة يلزم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما يسمعه من الأستاذ الذي لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان . أما في العصر الذي ندرسه فكانت تعطى جزافا ، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته . وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة . فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره . فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية . وشذمن هؤلاء العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي المتوفى سنة ١١٩٩ هـ فقد ذكر الجبرتي^(١) « أنه كان سعبا في الإجازة ، لا يجيز أحدا إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذي يطلب الإجازة فيه بتمامه . ولا يرى الإجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك . وهذه البريقة في مثل هذا الزمان عسرة جدا »

وقد ورثوا عن أسلافهم مادة التأنيق في صياغة الإجازات . ولذلك أضيفت إلى أبواب الأدب نثرا كانت أو شعرا .

وإذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب ، أقيم لذلك حفل عظيم . وقد وصف لنا أبو بكر العياشي المغربي^(٢) الذي زار مصر سنة ١٠٢٧ هـ حفلا رآه في الأزهر فقال «... فلما كان في يوم تسعة وعشرين من الشهر سره صان - ختم المشايخ دروسهم بختم الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة السج . وعادتهم في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذة المدرس وكبراء إخوانه . فإذا فرغ المدرس ، قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مباركة .

(١) ١٨٨ / ٢

(٢) رحلة العياشي ١ / ٦ / ١ طبع الجزائر سنة ١٢١٦ هـ

ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة . وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ ، فيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضى عن مؤلف الكتاب المقروء ، والدعاء للشيخ الذى يدرسه . ثم يقوم آخر ويثنى على الله وعلى رسوله بثناء بليغ ، ثم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان . ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب . كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح . ثم يقرأ الفاتحة ويهدى ثوابها إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى من ذكر بعده . ويبالغ فى الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعوه له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر ، وصوت خاشع ، ويؤمن الحاضرون على دعائه ، ثم يختم . وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ ، ويدعون له ويدعوه لهم . ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجازيب ،

* * *

وكان بالقاهرة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى . وقد جاء إلى مصر فى أوائل هذا العصر طبيب حاز شهرة واسعة ، وهو داود الأنطاكى^(١) المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ وكان على درجة كبيرة من الثقافة ، مستوعباً لكتب ابن سينا فى الطب والفلسفة . فوضع عدة كتب فى الطب أشهرها تذكرته التى ظلت موضع احترام طوال العصر العثمانى . وطبعت بمصر عدة طبقات . ودرّس داود فى المارستان المنصورى ، وتخرج على يديه طلبة كثيرون اشتهر منهم أحمد بن^(٢) سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس ، تولى مشيخة مدرسة الطب ، وتوفى سنة ١٠٣٦ هـ فخلفته بنته .

ثم نبغ طبيب مصرى آخر ، هو مدين بن عبد الرحمن القوصونى . كان موجوداً سنة ١٠٤٤ هـ وهو من تلاميذ داود ، ومن مؤلفاته فى الطب : قاموس^(٣) الأطباء فى المفردات .

(٣) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت .

(١ ، ٢) خلاصة الأثر ٤ / ٣٣٣

رقم ٣٠ طب م

واشتهر أحمد بن (١) سلامة القليوبي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان « في الطب ماهراً خبيراً ، حسن التقرير ، يبالغ في تفهيم الطلبة ، ويكرر لهم تصوير المسائل » .

وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين . قال داود الأنطاكي في مقدمة تذكرته : « . . . فإني حين دخلت مصر رأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشى إلى أوضاع يهودى للتلبس به ، فعزمت على أن أجعله - الطب - كسائر العلوم ، يدرس ليستفيد منه المسلمون . فكان في ذلك وبالي ونسكد نفسى وعدم راحتي من سفهاء لازمونى قابلا ، ثم تعاطوا التطيب فأضروا بالناس في أموالهم وأبدانهم . وأنكروا الانتفاع بى ، وأخشوا في أفاعيلى » .

وتعاطى الطب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان .

وسبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن كتنخدا المتوفى سنة ١١١٩ هـ جدد المارستان المنصورى وزاد في أوقافه . وقد ظل هذا المارستان المدرسة الوحيدة التى يدرس فيها الطب ، كما كان المستشفى الحكومى الوحيد الذى تعالج به مختلف الأمراض حتى قام محمد على .

وكانوا يدرسون العلوم الرياضية التى عرفت من قبل . وأنواع القاء حادة خلط الحساب بالفرائض . ومن أنواع الرياضة التى درسوها : الجبر ، والهندسة النظرية « إقليدس » والحيل « الميكانيكا » والفلك . واثبتوا المزاويل لمعرفة الأوقات ، والساعات التى كانت ترد عليهم من الخارج . وكان لبعض المساجد الكبيرة مؤقتون لتحديد أوقات الصلاة ، يعرف الواحد منهم بالميتقاتى .

إلا أن الإقبال على دراسة العلوم الرياضية كان قليلاً جداً ، في حين أن الإقبال على العلوم الدينية كانت له الغلبة . وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب . فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً . وقد كانت الوظائف المعروفة إنداك وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضي ونائبه ، والمفتي والمحتسب والمدرس . وكان لوجود المذاهب الأربعة دخل في هذه الكثرة التي لو وزعت على كل مذهب لم تكن شيئاً . ثم إن رجل الدين كان محترماً في ذلك الوقت من الحكومة والشعب . أما الوظائف الحسابية فكانت في يد الأقباط .

* * *

وكانت مصر تتمتع بشهرة عالمية طيبة . قال أحمد باشا كور وزير الذي ولى مصر سنة ١١٦١ هـ للشيخ عبد^(١) الله الشبراوى ذات يوم « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم . وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعدي خير من أن تراه » وكان أحمد باشا قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر في العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً . فقال الشيخ الشبراوى « إن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب » وقال « إن طلبة الأزهر لا يستطيعون أن يشتغلوا بغير ذلك من العلوم الرياضية ، لأنها تحتاج إلى أدوات وآلات ودقة الرسم . وأهل الأزهر فقراء » ثم ذكر الشيخ الشبراوى اسم الشيخ حسن الجبرتي والد مؤلف التاريخ المشهور ، وقال إنه عالم في الرياضيات والفلك . فاستدعاه الوالى فلما رآه أعجب بعلمه واتخذ من خاصته والمقربين لديه .

* * *

وكان معظم معاهد القاهرة مكتبات تحوى الكتب التي اعتادوا دراستها. ولكثير من العلماء مكتباتهم الخاصة في منازلهم ، يفتحونها لكل من يريد الانتفاع بها . واشتهر كثيرون بنسخ الكتب متخذين من ذلك وسيلة للرزق . نذكر منهم الشاعر المشهور عبد الله الإدكاوي المتوفى سنة ١١٨٢ هـ وهناك محلات لبيع الكتب يسمى أصحابها بالوراقين ، وحرقتهم بالوراقة . ولهم شيخ يسمى شيخ الوراقة .

ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بكرامات الأولياء ، ويؤمنون بما يدعونه لأنفسهم من القدرة التي لا حد لها قال حسن البدرى المجازى الأصل المصرى الإقامة والوفاء ، منكرآ كرامات الأولياء وإقامة الأضرحة وزيارتها :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علمهم به يلوذون بل قد تخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإن مات جماله منارآ وله يهرعون سجدا وعرا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلاه وترا
هكذا يفعل المشركون مع أص نامهم يبتغون بذلك قرآ
كل ذا من صمى البصيرة والويد ل لشخص أنمى له الله قلبا

وقد صور الشعراى موقف معاصريه المنكرين الأولياء فى مقدمة كتابه « الطبقات الكبرى » فقال : « . . . فإذا مر عليهم ولى من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون ، وتراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون . فمنهم المنكر لكراماتهم ، ومنهم المنقص لمقاماتهم ، ومنهم الثالب لأعراضهم ، ومنهم المعترضون على أحوالهم ، ويخوضون بحجراتهم فى مقالهم ، ووجههم يستهزون . »

وقد ألف الشعراني هذا الكتاب دفاعاً عن الأولياء وما يأتون به من الكرامات والخوارق . وقال في كتابه^(١) « لطائف المنن » « ... وفي عصرنا هذا جماعة من الصوفية العاملين ، ربما يكون المنكر عليهم لا يصلح تلميذا لهم ، كسيدي محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري ، والشيخ سليمان الخضيرى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ زين سبط على المرصفي . وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال : لأعتقد في واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة . فقلت له : وأي كرامة أعظم من العلم والعمل ؟ فلم يرجع إلى قولى وتركته » ولكن الشعراني عرض بأهل عصره ممن يظهرون التصوف ويبطنون النصب والتدجيل فقال^(٢) « ما نصه » ... وقال لى الأمير محمد دفتر دار مصر مرة : أنا لا أعتقد في مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم في الهواء . فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى رأيتهم يجتهدون في طلب الدنيا أكثر مما يجتهدون فيها . وقد دخل على شيخ منهم في رمضان ليفطر عندي فقلت له : هذا الطعام عندي في حله شك فلا تأكل منه . فقال : قدمه لى وعلى حسابه في الآخرة . فكيف أعتقد في مثل هذا وأنا لا تطيب نفسى أن آكل منه مع أنى معدود من الظلمة ؟ ! »

وبقيت هذه المناقشات بين المتعصبين للأولياء وكراماتهم ، وبين المنكرين . فهذا عبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يؤلف كتاباً اسمه « إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن » والمقصود بأولياء الشيطان هم المنكرون للأولياء وكراماتهم . ويرى المناوى^(٣) أن الولي « لا يبلغ درجة النبى ، ولا تسقط عنه التكاليف بكمال الولاية كما ادعى بعض أهل الإلحاد والاتحاد ، أن الولي إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص ، سقط عنه الأمر والنهى ، ولم يضره ذنب ، ولا يدخل النار بارتكاب الكبائر .

(١) ص ٩١ وما بعدها ؛ مطبعة بولاق سنة ١٢٨٨ هـ

(٢) تنبيه المغتربين ص ١ وما بعدها ، المطبعة المحمودية سنة ١٣١٥ هـ

(٣) الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ورقة رقم ١ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

وذلك باطل بإجماع المسلمين . ولا تكون ولاية غير النبي أفضل من النبوة بحال . وإنما الكلام في ولايته - أي النبي - فقيل هي أفضل لما فيها من معنى التقرب وكمال الإخلاص وقيل بل نبرته لما فيها من الوساطة بين الحق والخلق . ثم إن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية ، وإنما هي بقوة الإيقان وكمال العرفان «

وقد كثرت الكتب المؤلفة لإثبات كرامات الأولياء . نذكر منها «إثبات الشرنوبى» (١) تأليف أحمد الشرنوبى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ و «الفتوحات» (٢) الربانية في مناقب السادة الخضيرية» تأليف مراد بن يوسف الأزهرى المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ و «الماء» (٣) الزلال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال « لأحمد الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢ هـ و «كنز» (٤) السماعات في الكرامات بعد الممات» لعبد الرحمن الأجهورى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ و «السهم» (٥) القوى في نحر كل غيبى ، فيمن ينكر كرامات الأولياء « للسجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ هـ وهذا غير ما ألفه الشعراى والمناوى . ولو كان الناس كلهم يسامون بزاعم الأولياء لما احتاج الأمر إلى تأليف هذه الكتب والرسائل التى يتكاد يخطأها العد . وإنك لتلمس فى عناوين بعضها ما يدل على الرغبة فى التجدى والهجوم . وفى (٦) سنة ١١٢٣ هـ حضر إلى القاهرة واعظ تركى ، أخذ يعظ الناس بجامع المؤيد . ثم انتقل من الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأنشطة الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على القبور . وقال إن هذا كفر يجب على الناس أن يتركوه . وعرض بقول الشعراى فى طبقاته إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فأنكر ذلك على الأنبياء فضلا عن الأولياء . وقال بوجوب هدم القباب المبنية على الأضرحة . وأنكر وقوف الفقراء بباب زويلة فى شهر رمضان .

(١) مطبوع (٢) مخطوط رقم ٧٧ تاريخ م (٣ : ٤) مطبوع

(٥) ٤٠٣ مخطوط تيمور (٦) الجبرين ١ / ٤٨

فلما سمع الحاضرون ذلك خرجوا ليلاً إلى باب زويلة حاملين العصي والأسلحة فهرب من كان هناك . ثم إنهم قطعوا الجوخ والأكر للعلقة وهم يقولون « أين الأولياء ؟ » فأغضب عملهم بعض الناس فذهبوا إلى الجامع الأزهر وأخبروا الشيخ النفراوى وأحمد الخليلي بما حدث . فأفتى هذان الشيخان بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، ولا يجوز لأحد أن ينكر اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ . وقالوا بوجوب زجر الواعظ الذي غضب من هذه الفتوى ، وأبدى استعداده لمناظرة العلماء . وتعصب له كثيرون وتطوعوا للدفاع عنه ، وتعاهدوا على نصرته . وأخذ الواعظ يحرص أنصاره على الدفاع عن الدين وقمع الدجالين ، ولكن الأمر انتهى بنفيه وتشيت شمل أنصاره .

وهذا الواعظ من غير شك متأثر بأراء ابن تيمية والواقع إن آراء ابن تيمية كانت موضوعاً للنقاش عند بعض علماء هذا العصر . فقد ألف ابن حجر الهيتمي كتاباً سماه « الجواهر للمنظم في زيارة القبر النبوي للمكرم » ومعروف أن ابن تيمية يرى أن زيارة القبور ومنها القبر النبوي شرك وكفر صريح . فعارضه ابن حجر بقوله إن زيارة القبر النبوي مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس . وقد اعتمد ابن حجر على ما كتبه السبكي من قبل في الرد على ابن تيمية ، ولم يأت بجديد . على أن ابن حجر^(١) يرى أن إقامة المولد النبوي بدعة لأنها لم تعرف عند المسلمين الأولين . ويقول إن أكثر ما يرويه القصاص والوعاظ فيما يتعلق بمولد الرسول مكذوب ، لا أساس له من الصحة . ولكنه ذكر أنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير إلى الفقراء ، وتلاوة القرآن ، وإظهار السرور والفرح بالنبي ، وإغاظة أهل الزيغ والزنادقة والملحدين ، والكفرة

(١) النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم . مصور تاريخ رقم ٥٥٥٨ دار الكتب

لوحة رقم ٥

(م ٤ — الأدب المصرى)

والمشركين . وقد كرر ابن حجر هذه الآراء في كتاب آخر هو « الدر^(١)
المنضود في الصلاة على صاحب المقام المحمود » .

* * *

ولم يعد ابن تيمية أنصاراً في العصر الذي ندرسه . فيقول صاحب^(٢)
« الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة » « إن موسى المصرى المتوفى
سنة ٩٩٠ هـ كان يعتقد اعتقاد حمقى الحنابلة » ويقصد بحمقى الحنابلة أتباع
ابن تيمية .

وألف يوسف بن مرعى الحنبلى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ كتاب
« الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية » لخصها من مناقبه لعبد الهادى
ابن قدامة المقدسى ، ومن مناقبه لسراج الدين البزار ، ومن مناقبه لأحمد
ابن القاضى محيى الدين بن عمر الشافعى . وختم كتابه بفصل في الرد على
خصوم ابن تيمية الذين يرمونه بالكفر .

ونحن نعلم أن ابن تيمية قال بوفاة الخضر ، ولكن الصوفية في هذا
العصر قالوا ببقائه حياً وقد ألف^(٣) مرعى « رسالة الخضر » وأثبت فيها
أنه مات وهو بهذا يتابع أستاذه ابن تيمية وله غير ما تقدم كتاب
« رفع^(٤) الشبهة والغرر على من يحتج على فعل المعاصى بالقدر » عرض فيها
بالاتحادية والحلولية الذين وقعوا في الإباحية وغرقوا في المعاصى وتركوا
الفرائض محتجين على هذا بأنه مقدر عليهم ، لا يستطيعون تركه . واعتمد
مرعى على آراء ابن تيمية في هذا الموضوع .

ونلاحظ في هذا العصر كثرة الأسئلة التى وجهت إلى العلماء بخصوص

(١) مخطوط رقم ٤٠٣٤ نصوف .

(٢) ورقة رقم ٣٣٩ من الجزء الثالث ، مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .

(٣ ، ٤) مخطوط ٣٩٥ مجاميع تيسور .

الخضر ، وهل هو حي أم ميت ؟ ونلاحظ كثرة الرسائل التي وضعت في هذا الموضوع ، مما يدل على أن السائلين كانوا في شك من حقيقة أمره . وقد يكون شكهم هذا ناجماً عن اطلاعهم على آراء ابن تيمية . ومن الرسائل التي وضعت لإثبات وجود الخضر حياً « القول الدال على حياة الخضر والأبدال » لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ .

* * *

وكانت كتب ابن عربي منتشرة في دوائر المتصوفة ، لا سيما « الفتوحات المكية » ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلبهم لم يقبلوا نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود . ومنهم من اعتبر القول بها كفرآ . وهذا هو محمد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ رأس المتصوفة في عصره يقول في إحدى قصائده:

أطلقوا وحدة الوجود وقالوا كل شيء هو الإله الباري

يا لقومي أما لظه نصير؟ غاب من لم يكن من الأنصار

ويقول من قصيدة أخرى :

حلول محال ، واتحاد مخالف لوحدته فالوصف فيه تلونا

* * *

وقد جاء إلى مصر في هذا العصر علماء أعلام ما زالوا موضع ثقة واحترام ، وألفوا كتباً قيمة لا يستغنى عنها الباحث . نذكر منهم بهاء الدين العاملي الذي ألف كتابه « الكشكول » بالقاهرة . وداود الأنطاكي وقد سبقت الإشارة إليه . ومرعي بن يوسف الحنبلي صاحب المؤلفات المشهورة التي أسلفنا الكلام على بعضها . وأحمد بن محمد المقرئ صاحب « نفع الطيب » وغيره ، وعبدالقادر البغدادي صاحب « خزنة الأدب » وبدر الدين العباسي مؤلف « معاهد التنصيص » ، شرح شواهد التلخيص » ومرتضى الزبيدي

شارح القاموس . وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الصوفي المشهور .

ومر بها كثير من علماء المغرب . وزارها من علماء الشام والد المحبي الذي ألف رحلة عن هذه الزيارة . والمحبي صاحب « خلاصة الأثر » .
وعبد الغنى النابلسي الذي خصص جزءاً كبيراً من رحلته عما شاهدته بمصر .
وأبو بكر العياشي من علماء المغرب ، وصاحب الرحلة التي أشرنا إليها .
كما وزارها بعض علماء الحجاز .

واستوطنها من شعراء الشام كثيرون نذكر منهم : زين الدين العاملي ،
وشمس الدين الجموي . وزارها طرز الريحان البعلبي ، وفتح الله النحاس ،
وابن الدرا . واستوطنها من شعراء المغرب يوسف بن زكريا المغربي . ومن
الحجاز نور الدين القلعي .

وزارها من الرحالة الأوربيين كثيرون ، نذكر منهم الرحالة الفرنسي
« فولني » وألف رحلة مترجمة إلى اللغة العربية تحت عنوان « مصر في القرن
الثامن عشر » وكان حضوره إلى وادي النيل سنة ١٧٨٤ م وقد انتفع
نابليون بما كتبه فولني عن مصر إلى حد كبير . ووصفه برتييه أحد قواد
الحملة الفرنسية بأنه الدليل الأمين ، وقال إنه هو فقط الذي لم ينشهم .

* * *

واشتهر في هذا العصر من المتصوفة : محمد البكري والشعراني ،
وعبد الرؤف المناوي الذي يقول فيه صاحب خلاصة الأثر « . . . فهو
أعظم علماء هذا التاريخ آثاراً . ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع ،
ولناس عاينها تهافت زائد ، ويتغالون في أثمانها » .

ومن العلماء : ابن حجر الهيتمي ، وأحمد السجاعي ، وأحمد الدمنهوري ،
وأحمد الجوهري ، وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم .

ومن رجال النحو : الصبان ، والكفراوى ، ومحمد الأمير . وقد ألفوا كتباً مازالت تدرس حتى عصرنا هذا .

ومن المؤرخين : ابن إياس الحنفى ، وهو أشهر من أن يذكر . ومحمد ابن عبد المعطى الشهير بالإسحاقى صاحب كتاب « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول » انتهى فيه إلى سنة ١٠٣١ هـ ومحمد بن محمد ابن أبى السرور البكرى صاحب كتاب « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » و « النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية » و « الوشى المرقوم من النطق المفهوم » و « المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية » و « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » وإبراهيم الصوالحى - كان بالقاهرة سنة ١٠٧١ - مؤلف كتاب « تراجم الصواعق فى وقعة الصناجق » ومصطفى بن إبراهيم مؤلف « تاريخ وقائع مصر سنة ١١٠٠ - ١١٥٠ » وشيخ مؤرخى مصر فى ذلك العصر عبد الرحمن الجبرتى الذى انتفع بجهود هؤلاء المؤرخين حينما ألف كتابه « عجائب الآثار » ونقلوا الترك مؤلف كتاب « ذكر تملك الجمهورية الفرنسية الأقطار المصرية »

ومن كتاب السير والتراجم : نور الدين الحلبي مؤلف « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » ويعرف بالسيرة الحلبية . ومحمد بن على الداودى مؤلف « طبقات للفسرين » والشهاب الخفاجى صاحب « ريحانة الألبا » و « خبايا الروايا فيما فى الرجال من البقايا » وأحمد بن سلامة القليوبى مؤلف « تحفة الراغب فى سيرة جماعة من آل البيت الأطايب » ومحمد بن أحمد البهوتى مؤلف « التحفة الظريفة فى السيرة النبوية الشريفة » وأبو الصلاح على بن محسن الصعيدي مؤلف « تعطير الأنفاس بمناقب الشاذلى وأبى العباس » وأحمد الرشيدى مؤلف « حسن الابتهاج فيمن ولى فى مصر إمارة الحاج » وعبد الرحمن الأجهورى مؤلف « مشارق الأنوار فى آل البيت الأخيار » ومرضى الزبيدى مؤلف « الروض المعطار فى نسب آل جعفر الطيار » و « رفع نقاب الخلفاء عن اتعمى إلى وفاء الوفاء » ومحمد بن على الصبان مؤلف « إسعاف الراغبين

في سيرة اللصطنى وفصائل أهل بيته الطاهرين « ومدين بن عبد الرحمن القوصونى مؤلف «ريحانة الألباب وريحان الشباب فى مراتب الآداب» وقد اعتمد صاحب خلاصة الأثر على هذا الكتاب الذى لم يصل إلينا فيما كتبه عن أدباء مصر وشعرائها وعلمائها فى القرن الحادى عشر . وعبد البر الفيومى مؤلف «منتزه العيون والألباب فى بعض المتأخرين من أهل الآداب» جعله على طريقة الشهاب الخفاجى فى ريجانته . وهذا الكتاب لم يصل إلينا كذلك مع أنه اشتهر ببلاد الشام ، وعليه اعتمد صاحب خلاصة الأثر فيما كتبه عن مصر .

وظهرت فى هذا العصر مؤلفات كثيرة فى الروحانيات ، وفك الأرصاء والطلاسم ، وفى ألعاب المهارة كالسيا والزايحة . وفى التنجيم وضرب الرمل . ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بهذه الخرافات . فهاهو الإدكاوى الشاعر ينكر على المنجمين ما يزعمونه من معرفة مايقع فى المستقبل ، وله شعر فى ذلك نذكر منه :

الله يعلم ما يكون وما به تسرى الرياح وماله يجرى الفلك
فدع المنجم فى ضلالتة وما ينبيك عنه فى مقاتته أفك
واحذر تصدقه فتهلك عامدا يامدعى الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على من يرتضيه من نبى أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به ربى لأسلك ناجيا مع من سلك

وألف رسالة فى تأييد آرائه اسمها « هداية المتوهمين فى كذب المنجمين »

أما بعد فهذه صورة للحالة الفكرية فى مصر إبان العصر العثمانى . ويمكننا أن نخرج من هذه الدراسة بأمور :

أولا - إن الحركة العلمية فى مصر فى ذلك العصر كانت نظرية محضة .

ولم يعرف المصريون العلم التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار .

ثانيا - إنها استقت من المصادر القديمة ، ولم يكن فيها تجديد أو ابتكار .

ثالثا - إنها لم تتصل بالنهضة العلمية الأوروبية ، لامن قريب ولا من

بعيد . فالمعلومات الجغرافية والفلكية القديمة ظلت كما هي . فلم يصل إلى

أسماع المصريين أنباء العالم الجديد، وما كشفه الأوربيون من قارات ومحيطات .

ولم يقفوا على شيء من تقدم علم الفلك أو علوم الطبيعة والكيمياء والطب .

ولو ترك المصريون وشأنهم في ظل هذه الحياة العلمية لما تغير حالهم ، ولبقيت

معالمهم الفكرية كما هي دون أي تقدم .

لذلك لما اطلعوا على العلوم الحديثة التي صاحبت الحملة الفرنسية أبدوا

دهشتهم واستغرابهم ، واعتقدوا أنها أنواع من السحر .

وحيثما أرسل محمد علي البعث العلمية إلى أوروبا؛ رأى الطلبة علومها لأعهد

لهم بها من قبل . ورأوا كتباً مؤلفة بطرق تختلف عن الطرق المتبعة في البلدان

العربية . وأدركوا الفرق البعيد بين الشرق والغرب . وقد سجل رفاة الطهطاوي

إعجابه بالطرق الغربية الحديثة في التأليف ، ونعى على الكتب العربية اهتمامها .

الشديد بالنحو والإعراب ، وكثرة ما عليها من شروح وتعليقات ، وما في

أساليبها من تعقيد والتواء .

وحسبنا أن نقول إن الطباعة التي انتشرت في أوروبا في ذلك العصر ، لم

تعرف في مصر . وقد أدرك محمد علي أن الثقافة المصرية في ذلك الوقت لا تصلح

لبناء دولة على النمط الحديث . لذلك لم يتردد في إرسال وفود الطلبة إلى مختلف

البلاد الأوروبية لتلقى العلوم . كما استقدم الأساتذة والمدرسين من كل فن وعلم

للتدريس بمصر . وأنشأ المدارس على النمط الأوربي .

ولكن الآداب لا شأن لها بالحياة العلمية . فقد نشأ الأدب في صحراء

العرب حيث كانت الحياة بدائية ، ولم تكن هناك حضارة ولا مدنية ، ولا

كيمياء صناعية ، ولا ورق ولا طباعة . نعم في هذه الصحراء القاحلة ظهر نخول

الشعراء . إن الأدب لا يمكن أن ينعدم لأنه وليد العواطف ، والعواطف موجودة في كل زمان ومكان . لذلك كان من الخطأ أن نربط بين تأخر العلوم والصناعات وبين الأدب فنحكم عليه بالانحطاط قياسا على انحطاط العلوم .

وكذلك من الخطأ أن نتخذ لغة أمرىء القيس أو المتنبي أساسا للحكم على شعراء العصر العثماني . وذلك لأن هذا العصر تحكم فيه طابع خاص يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ولشكل عصر طابعه ، ولكل بيئة معاملها ومميزاتها . والأدباء إنما يعبرون بلغة العصر الذي يعيشون فيه . وهل نحتقر الأدب الشعبي لأنه لم يتخذ لغة المتنبي في أساليبه وعباراته ؟؟

الباب الثاني

الفصل الأول

الشعر ومذاهبه

قال الشهاب الخفاجي في ترجمة محمد البليني الشاعر للمصري المتوفى سنة ١٠١٩ هـ مانصبه^(١) . . « وله شعر أصنى من الرحيق المعتق ، وأبهى من الوشى المنمق ، إلا أنه تجاوز رقة النسب إلى التجنيس والغريب » .

وقال في ترجمة الشاعر يوسف بن زكريا المغربي نزيل القاهرة ، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ بعد أن أورد جملة من شعره^(٢) « واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء ، وهو كل شعراً أكثر فيه من البديع » .

وكتب الخشاب إلى أحد الشعراء ، وكان يعرض شعره للذم بالتزامه ما لا يلزم :

ألزمت^(٣) نفسك في القريض مذاهباً ذهبت بشعرك في الحضيض الأوهده
وتركت ما قد كان فيه لازماً هلا عكست فجئت بالقول السدى ؟
كدرت فيه بما صنعت بحوره فعدت مشارع ليس ينحوها الصدى
فاذا نظمت فكُنْ لنفesk ناقداً نقد البصير بذهنك المتوقد
أولاً فدع تكليف نفسك واسترح من قولهم ما شعر بالجيد

(١ ، ٢) خلاصة الأثر ٢ / ٢٤٦ . ٤ / ٥٠٤ .

(٣) الجبرت ٢ / ٢١٧ وديوان الخشاب ص ٣٨٠ طبع الجوائب .

فمن هذا وأمثاله نعلم أن الشعراء المصريين في العصر العثماني كانوا يكرهون التكلف والتزام الصنعة ، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفواً ، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتهما . وهذا المذهب متفق كل الاتفاق مع قوم غلب على كثير منهم ارتجال الشعر في سهراتهم الخاصة التي كانت تجمع بينهم ، وفي المجالس الأدبية التي كثرت في ذلك العصر ، وفي الموالد التي تقام للأولياء .

ومن أشهر بالارتجال : أبو السماع البصير المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ وفيه يقول المحبى^(١) « الشاعر البديهي ، أعجوبة الزمان ، وأحد الأفراد في البديهة وارتجال الشعر . وكانت طزيقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجي . وفي أثناء إنشاده يبتدر على وزن تلك القصيدة في أي باب كان من أبواب الشعر ؛ مدحاً كان أو غزلاً أو غيرها . »

« وورد دمشق في أوائل شوال سنة ١٠٤٨ فأنزله أديب الزمان أحمد الشاهيني عنده ، وأقبلت عليه أعيان الشام وأدباؤها لغرابة حاله وتفوقه في شأنه . »

وقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٥٤ هـ وفيه يقول^(٢) الجبرتي « .. وصار وحيد عصره في هذه الفنون — الشعر والزجل — بحيث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال في الشعر مع غاية الحسن . وكان الشيخ العيذروس يتعجب منه ويقول : هو ممن يلقنه جنى . »

واجتمع يوماً في مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى ، وكان يوماً مطيراً . فقال ابن الصلاحى مرتجلاً :

(١) خلاصة الأثر ١ / ١٣٩ .

(٢) الجبرتي ٢ / ١٨٦ .

لقدومكم ضحك الغما م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كفك قد حكي
فقال قاسم :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزير جاهك قد شكا

ومثل هذا كثير تجده منبثاً في ثنايا الكتب . وقد بلغ من كراهية
بعضهم للتكلف أنهم فضلوا نظم المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد .

وكان الفن الشعري غالباً على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما
يستخدم فيه النثر . مثال ذلك أن الشاعر يحيى^(١) الأصبلي المتوفى سنة
١٠١٠ هـ ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخر الإذن له ، فكتب يقول :

على الباب من كاد من شوقه يموت وذلك يحيى الأصبلي
أنى يتغنى بأوصافكم فهل تأذنون له بالدخول ؟

وحدث أن مرتضى الزبيدي كاف عبد الله الإدكاوى أن ينسخ له كتابا .
وقام الإدكاوى بهذه المهمة ، ولكن الزبيدي أخر عليه أجره ، وأراد
الإدكاوى أن يطالبه بهذا الأجر ، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه
بقصيدة^(٢) جاء فيها :

صبح الله سيدي بالسعادة وحباه من كل خير مراده
ووقاه الردى وزاد علاه رفعة لاتنى تزيد سياده
خلك المرتجى إجابة ما قد عودته عادتك المستجاده

(١) خلاصة الأثر ٤ / ٤٨١ .

(٢) ديوان الإدكاوى ورقة رقم ٢٩٣ مخطوط ٧٨٢٨ — أدب ، دار الكتب .

تختفضل وابتعث بما قد تبقى ولك الفضل إن بعثت زياده
وابق في العز والسيادة يا أو حد ما نال ذو احتياج إفاده
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً بحيث إننا نستطيع أن نجمع منها مجلدات .
كما أنهم حذوا حذو أسلافهم في استخدام الشعر في الإجازات العلمية ،
وفي تقرير الكتب والرسائل . وبلغ من تعلقهم بالفن الشعري أنهم نظموا
بعض العلوم .

* * *

قلنا إن الشعراء في ذلك العصر كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان
نفسه على سجيته . والآن نضرب بعض الأمثلة على ذلك :

قال الشهاب^(١) الخفاجي من قصيدة طويلة :

قدحت رعود البرق زندا أضرم أشجانا ووجدنا
في فخمة الظلماء إذ مدت على الخضراء بردا
حتى تئاب نوره وتمطت الأغصان قدا
وأنى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت لها النسائم سردا
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نرداً
فستى معاهد بالحمى قد أنبت حبا وودا
تذر الليالي في ثرى من عنبر للمسك أهدي

(١) خلاصة الأثر ١ / ٢٣٦ .

وقال الصبان^(١) يمدح شيخ السادات :

بعبير سرك . تعبق الأقطار وبنور وجهك تشرق الأسرار
وبيمين طلعتك السعيدة طالعا يصفوا الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منازل وديار
وإلى حمى حرم سمايك مجده تسعى العفاة وتهرع الزوار
يادرة الدنيا وغرة وجهها ومنار أهلها إذا ما احتاروا
ياقطب دائرة الوجود وعارفا بشذا تقاه تهبط الأسرار
ياشمس أفلاك الكمال وسيدا دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا دهشت لبعض صغارها الأفكار
قد أفرغ المولى عليك مواهبا لا عد يحصيا ولا معيار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السنـد الإمام المجتبي صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يختار
تاج الأماثل ، عين أعيان الورى غيث السماحة ، سيبها المدرار
وابن الكرام الشم من آل الوفا أبناء من سجدت له الأشجار
كناه موله أبا الأنوار إذ من نوره تتولد الأنوار
ما جاء ليل الخطب لإلارده من ذلك الوجه المضى نهار
هو للأحبة رحمة وعلى العدى أسد الإله وسيفه البتار
والناس بالرتب العلية فخرهم ولها بأبناء الرسول فخار
منح من الوهاب عز مقامها ومواهب ما إن لها إنكار
ماذا يقول المادحون وفضلهم نطقت به الآيات والأخبار ؟
الله فى القرآن أذهب عنهمو رجسا وطهرهم فهم أطهار

وودادهم فرض وحبهمو به تمحى الذنوب وتغفر الأوزار

وقال الشيخ عبد الله الشبراوى متشوقاً إلى مصر ونيلها في بعض أسفاره :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولى
وكرر على سمعي أحاديث نيلها
بلاد بها مد السباح جناحه
رويداً إذا حدثتني عن ربوعها
إذا صاح شحرور على غصن بانه
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتي
لقد كاتب لي فيها معاهد لذة
أحن إلى تلك المعاهد كلما
أما والقنود المائسات بسفحها
وما في رباها من قوام مهفهف
لئن طاد لي ذاك السرور بأرضها
لأعتنقن اللهو في عرساتها
... الخ .

ومن قول الخشاب في يوسف بن علي الكاتب ، وكان يتولى تحرير المنشورات للفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر :

إني رأيت أبا البرية آدما
فدنوت منه مصلياً ومسلماً
هل كان يوسف من بنيك فإننا
في النوم معتجراً يبرد معلم
وسألته في صورة المسنفهم
من ذلك في شك صريب موم ؟

تأجاب وهو مصعد ومصوب عينيه في كهيئة المستعظم
حواء طالقة ثلاثاً إن يكن ممن إلى من البرية ينتمى
... الخ .

ونستطيع أن نجمع مجلدات من هذا الشعر الذي يرسل فيه الشاعر نفسه
على سجيته . ومعظم نتاج العصر العثماني في مصر من هذا النوع . بل إننا
نجد ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة ، ورقة وسلاسة وعذوبة ، كما يتضح
من مجموعة النصوص التي أوردناها في نهاية هذا الكتاب .

* * *

ولكن الشعر في هذا العصر ابتلى بقوم دخلاء ، ظنوا لضعف شاعريتهم
أنهم قادرون على أن يكونوا في عداد الشعراء إذا تكلفوا القول ، وأنفقوا
الوقت الطويل في ضروب الصناعة اللفظية . وهؤلاء الدخلاء على الشعر قلة
لا يعتد بها ، ولا ينبغي أن تتخذ أساساً للحكم على العصر كله .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ وله ديوان
مطبوع اسمه « الدر المنظم في مدح الحبيب »^(١) الأعظم ، فهو أحياناً يضع
نصب عينيه إيراد جميع الحروف الهجائية في البيت الواحد . مثال
ذلك قوله :

خذوا بدمى حسناً غزالاً عشقتها فصرت كطل ظل بالشج في رخص^(٢)

وأحياناً يلتزم الحروف التي لا تنقط ، كقوله :

أسرك دهر سره كله هم ومورد أ كذار لو ارده سم

(١) المطبعة المحمودية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ ص ٧٠ ، ٩٥ ، ٨٣ ، ١٤٣ .

(٢) الشج نوح الماء أى سأل . رخصه كمنعه أى عساه ، والرخص القرية
التي يوضع فيها للساء .

وتارة يلتزم بدء أبيات القصيدة بالحروف الهجائية على الترتيب ،
كقوله :

أبت هند وصلى فالكرى مذقت شطا وحظى ذكا من لاجع مثنى ضغطا
بذلى قضت فالوجد زاك وعنه لا محيص بلا غوث شنى ناظرا سخطا
فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف ، والثانى بحرف الباء ، وهكذا إلى
آخر القصيدة التى تنتهى بانتهاء الحروف الهجائية .

وله قصيدة سماها « شفاء العين بمدح النبوى » فى المديح النبوى ، عدتها
تسعة وأربعون بيتا ، كل بيت ينتهى بكلمة « العين » فكأنه جمع المعانى
المختلفة لهذه الكلمة ، وأتى فى كل بيت بما يتناسب معه فى المعنى ، شأنه فى
ذلك شأن شعراء البديعيات الذين مدحوا الرسول عليه السلام بقصائد ،
وجعلوا فى كل بيت لونا من ألوان البديع ، مع فارق وهو أن هذا المادح
اكتفى بلفظ العين على اختلاف معانيها فى كل بيت من أبيات قصيدته التى
جاء فيها :

يا مائة القد يا مكحلة العين كم من حسد فيك قد أصبت من العين
قد حزت جمالا ورقة ودلالا إذ فقت هلالا أضيا، وفقت سنا العين

فالعين فى البيت الأول هى العين الباصرة ، وفى البيت الثانى بمعنى
الشمس .

وفى سنة ١١٥٨ هـ قدم إلى مصر شاعر حجازى كسب شهرة ونفوذا
فى عصره ، وهو نور الدين على بن تاج الدين القلمى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ
وكان مغرما بالصناعة اللفظية . ومنها نوع يسمى « وسع الاطلاع » فاجتمع
به بعض الشعراء ومنهم عبد الله الإدكاوى الذى أخذ عنه هذا الفن وأفسده
به بعض شعره . ووسع الإطلاع أنواع هى :

١. — كل كلمة فى البيت تبدأ بالحرف الذى تنتهى به الكلمة السابقة ، ما
عدا القافية . مثال ذلك :

صَبُّ بوعدك كم مطلته هاجرته هلاً أجرته^(١) ؟ !
سهران نام مسامرو ه هُجِعاً أفلا أئمته ؟ !
فكلمة « صب » تنتهي بحرف الباء الذي تبدأ به كلمة « بوعدك » وهكذا
إلى آخر البيت الأول . وفي البيت الثاني نرى كلمة « سهران » تنتهي بحرف
النون الذي تبدأ به كلمة « نام » وهكذا إلى آخر البيت

٢ - نوع يسمى « العود » وهو أن تنظم قصيدة فتقول .

جماله قد علا قدرا وجل علا هاقد سباني فلولا عاد يانعمي^(١)
ثم تعود فتأخذ من هذا البيت كلمات مناسبة ، وتنظم منها بيتا آخر
يبدأ بلفظة « جماله » وينتهي بها فتقول :
(جماله قد سباني قد جل قدرا جماله)

مثال آخر :

دلالة ياؤلاة الحب زاد فلو قد عاد بالقرب يا صحبي شفي سقمي
(دلالة زاد صحبي بالقرب زاد دلالة)

٣ - النوع الثالث . أن تلتزم بدء كلمات البيت بحرف واحد مثل :

يتمنى يراك يوما يهني يجتني يانعا يمينا يساره^(٣)
فكل كلمة في هذا البيت تبدأ بحرف الياء

٤ - أن تكون كل كلمة مكونة من حرف مهمل وحرف منقوط على

الترتيب ، مثل :

جميل بديع جل ذاتا بهية به زدت حبا ، فاتك بمجاله^(٤)

٥ - نظم البيت مكونا من كلمات مهملة وأخرى منقوطة على الترتيب مثل :

جننت ولوعا في هواه شغفت كم فتننت . عساه يجتني لكاله

(١ ، ٢ ، ٣) انظر ديوان الإدكاوي ورقة ٢١٠ : ٢٢٢ : ٢٢٧

(٤) ديوان الإدكاوي ورقة ٢٢٣ .

٦ - نظم البيت مكوناً من حروف مفرقة . مثل :

أدم وده واردد رواه وروه وأول ودم راع ودودا وواله (١)

٧ - أن ينظم قصيدة يبدأ كل بيت منها بحرف بحيث لو جمعت هذه

الحروف على الترتيب لكونت اسم الممدوح . مثال ذلك قوله :

١ - سيدي مذغبت عن صبك المغرم ضاقت عليه أكناف مصر (٢)

٢ - يا فريد البها وحقك لا أصبر عن أن أراك يوماً بدهرى

٣ - داومضناك باللقا وتكرم ياغزال النقا بقولي وجبرى

٤ - يا بديع الجمال يا واحد الحسب من حنانا تشفى سقامى وضرى

٥ - أنت أنسى ولدتى وسرورى ومرادى وكنه سرى وجهرى

٦ - بك هام الفؤاد فامنن عليه منك بالوصل لا ترعه بهجر

٧ - راقنى ما أراه فيك من الحسب من البديع الذى تقسم فكرى

٨ - أحلالا بعدى وأنت بوجدى لك أدرى من كل عبد وحر

٩ - هام لبي فى وصف ما حزت يا أهيف حتى قل نظمى ونثرى

١٠ - يوم عيد رؤياك بل ومحييا ك هلالى يا ذا الجمال وبدرى

١١ - ما لقلبي صبر سوى أن يلا قيك ومن لى حتى اللقاء بصبر

فالأبيات الأربعة الأولى تبدأ على الترتيب بالحروف : س ، ي ، د ، ي .
ومن مجموعها يتكون لقب الممدوح « سيدي » وبقية الأبيات تبدأ بالحروف
ا ، ب ، ر ، ا ، ه ، ي ، م . ويتكون منها اسم الممدوح وهو إبراهيم . ويلاحظ
أن المعانى كلها غزلية وليست من المدح فى شىء .

٨ - أن ينظم قصيدة ، ثم يدخل زيادة فى أول البيت أو فى آخره بحيث

لا يتغير المعنى وإن تغيرت القافية فى حالة ما إذا كانت الزيادة فى آخر البيت .

مثال ذلك قوله :

يا من تحلُّ بذكره عُقدُ النوائب والشدائد^(١)
يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
فيقول إذا جعل الزيادة في الأول :

(ياذا العلا ياربنا) يا من تُحَدُّ لُ بذكره عقد النوائب والشدائد
(يا سيدى يا خالى) يا من إليه الـ مشتكى وإليه أمر الخلق عائد
أو تكون الزيادة في الآخر فيقول :

يا من تحلُّ بذكره عقد النوا ئب والشدائدُ (لا محالة تنجلى)
يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائدُ (فى المهم المشكل)

هذه هي ضروب الصنعة التي زاو لها بعض الشعراء ومنهم الإدكاوى ،
والقلعى ، وعبد الرحمن الحميدى .

أما الشعراء الآخرون فإنهم كرهوا مثل هذا التكلف . وقد أنكر
بعض معاصرى الإدكاوى عليه هذا للذهب الذي يفسد الشعر ويجعله مجرد
صناعة لفظية ، وذكره بأساليب القدماء التي لم تعرف التكلف ، فرد عليهم
قائلا :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأواخر من مفاخير^(٢)
لا تحقرنَّ جديدهم كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا ئل يا فتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعا فاعقد عليه عرى الخناصر
وهذه الأبيات لا أثر للتكلف فيها .

وقد انتشر فى هذا العصر تسجيل التواريخ فى القصائد بحروف الجمل .

(١) ديوان الإدكاوى ورقة ٢٤٠ ، وهذا النوع الأخير من الصناعة عرف بقلة فى العصر
الفاطمى . مثال ذلك قصيدة الاسكندرانى « ذات الدوحة »
(٢) ديوانه ورقة ٣٣٦ .

وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز ، حطي ،
كلن ، سعنص ، قرشت ، تُخذ ، ضظغ .

أبجد : ١ = ا ، ٢ = ب ، ٣ = ج ، ٤ = د ، ٥ = هـ ، ٦ = ز ، ٧ = حطي

هوز : ٥ = هـ ، ٦ = و ، ٧ = ز ، ٨ = حطي

حطي : ٨ = ح ، ٩ = ط ، ١٠ = ي

كلن : ٢٠ = ل ، ٣٠ = م ، ٤٠ = ن ، ٥٠ = س

سعنص : ٦٠ = س ، ٧٠ = غ ، ٨٠ = ف ، ٩٠ = ص

قرشت : ١٠٠ = ق ، ٢٠٠ = ر ، ٣٠٠ = ش ، ٤٠٠ = ت

تُخذ : ٥٠٠ = ث ، ٦٠٠ = خ ، ٧٠٠ = ذ

ضظغ : ٨٠٠ = ض ، ٩٠٠ = ظ ، ١٠٠٠ = غ

واستخدمت حروف الجمل أولاً في عبارات نثرية يتألف من مجموع
حروفها التاريخ المقصود . وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم
مؤرخاً سبيلاً أنشأه الوالي العثماني بالقاهرة ، وهو^(١) « رحم الله من دنا
وشرب » فمجموع حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوي ٩٦٦ وهو
تاريخ إنشاء السبيل المذكور .

وأقدم تاريخ شعري قول أحدهم في مقتل رجل اسمه محمود :

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه^(٢)

قتله بالنار نور وهو في التاريخ ظلمه

فالحروف التي تتألف منها كلمة « ظلمه » بحساب الجمل تساوي ٩٧٥
وهو تاريخ قتل محمود ، لأن ظ = ٩٠٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، هـ = ٥
ومن هذا الوقت نجد من الشعراء من يؤرخون بعض قصائدهم .

(١ ، ٢) لطائف أخبار الأول للاسحاق ص ٧٢

وهناك شعراء كثيرون لم يستخدموا هذا الفن ، أو استخدموه مرات قليلة . وأكثر ما يرد التاريخ الشعري في قصائد الرثاء ، إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلوا تاريخ وفاة الميِّت . وكذلك ما ينظم للتهاني والأفراح . وقد ورد في بعض شعر المديح . أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد فيه قط .

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المباني . وبعض الشعراء يسجل اسمه في نهاية القصيدة ، وهذا أمر عرف من قبل العصر العثماني . كما أن منهم من كان يختتم بعض قصائده بالصلاة على النبي . وهذا أيضاً مما عرف من قبل .

وقد ظهر في هذا العصر ما يقرب من مائة شاعر ، وردت تراجمهم ومقتطفات من شعرهم في تاريخ ابن إياس ، والكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، والنور السافر في أعيان القرن العاشر ، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجي ، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمجبي ، وتاريخ الجبرتي .

* * *

وقد اتضح لنا أن الشعر في هذا العصر تأثر ببيئات مختلفة ، وخضع للاتجاهات متباينة ، بحيث يمكننا أن نقسمه إلى مدارس ، نتناول كلا منها بالبحث لنكشف عن خصائصها . وهذه المدارس هي :

- ١ - المدرسة البكرية .
- ٢ - المدرسة العلوية .
- ٣ - المدرسة الأميرية .
- ٤ - المدرسة الشعبية .

الفصل الثاني

المدرسة البكرية

ظهور فكرة الصديقية لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامي

لم يكن للبكرين في مصر قبل العصر العثماني شأن كبير . فقد ذكر صاحب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» (١) ، أن جلال الدين البكري أنكر عليه مال للسلطان الغوري فهم أن يعاقبه . فاستجار بصديقه عبد القادر الدشطوطي الذي توسط له عند السلطان فسأحه في المال . واعترافا بهذا الجميل وهب جلال الدين البكري ابنه أبا الحسن الدشطوطي ليلازمه ويكون في خدمته . ثم إن الدشطوطي جدد مسجدا ووهبه لجلال الدين ، وهو المسجد الذي مازال قائما بشارع البكرية بناحية بركة الرطلي ، والذي يحمل اسم جلال الدين .

وقال عبد الغني النابلسي في رحلته (٢) . « إن العسكر المصري لما ثاروا على السلطان الغوري وأرادوا خلعه ، أتوا إلى الشيخ جلال الدين وقالوا له : نحن نقيمك خليفة على المسلمين في بلاد مصر ، لأن الصديق جدك كان كذلك . فإن السلطان الغوري قد تعدى علينا وظلم ، وجاوز الحدود . فأجابهم بقوله أصبروا فإن سلطانكم قريب . ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم خان من بني عثمان » .

ومن السهل علينا أن ننفي هذه القصة ، لأنها لم ترد في كتب التاريخ

(١) ورقة ٣٢٢ وما بعدها مخطوط ١٢٠٦ تاريخ .

(٢) ورقة ١٨ مخطوط جغرافيا .

الموثوق بها ، فلم يذكرها ابن إياس . ومن ناحية أخرى لوجود الخليفة العباسي المعترف بخلافته . ومن ناحية ثالثة لأن المماليك كانوا يتنازعون من أجل الملك . وكان نزاعهم يقوم على المطامع الذاتية . فليس من المعقول أن يخرجوا ملك مصر من أبناء جلدتهم ويعطوه طائعين مختارين لجلال الدين البكري .

ثم ذكر عبد الغني النابلسي قصة أخرى تتعلق بجلال الدين ، وهي :

« ويقال إنه - السلطان سليم - لما دخل مصر كان الشيخ جلال الدين آخذا بزمامه ، والشيخ أبو السعود الجارحي على يمينه ، والشيخ الدشطوطي على شماله . ويقال إن هؤلاء الأولياء الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الشام وجاءوا بالسلطان سليم وأدخلوه إلى مصر ، وهم مشاة في ركابه . وكان يقصر المنازل لأجلهم . وقالوا له : هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهذه القصة - وإن تسكن من غير شك - مختلفة ، إلا أنها تدل على أن جلال الدين كان ممانئاً للسلطان سليم . وربما كان مدفوعاً إلى ذلك بما حدث بينه وبين الغوري .

وقد ذكر ابن إياس في كتابه «بدائع الزهور»^(١) - حوادث سنة ٨٩١٧ هـ أن الشاه إسماعيل الصفوي أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها :

نحن أناس قد غدا شأننا حب على بن أبي طالب
يعيبنا الناس على حبه - فلعنة الله على العائب
فأجابه سليم برسالة جاء فيها :

ما عيبكم هذا ولكنه بغض الذي لقب بالصاحب
كذبتكم عليه وعلى بنته فلعنة الله على الكاذب

وكان ابن إياس معاصراً للحرب بين السلطان سليم وشاه إيران . وإذا كنا نرتاب في صدور هذا الشعر من سليم ، فإننا لارتاب مطلقاً في وجود

(١) ٤ / ٣٨٥ طبع استنبول .

طائفة بكريّة أراد السلطان العثماني أن يكسبها إلى جانبه في حربه ضدّ الشاه الشيعي ، وفي حربه ضدّ سلطان مصر السنّي قانصوه الغوري . ونلاحظ أن سليم لم يذكر في شعره سوى بغض الشيعة لأبي بكر وكذبهم عليه وعلى بنته ، مع أننا نعلم أن الشيعة يبغضون كل من حال بين علي والخلافة ويكفرونه .

وعلى كل حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية تعمل على ترويح الخصومة ضدّ الشيعة ، لأن الدولة كانت في حرب مع شيعة إيران وشيعة اليمن . ثم إنها رأت بعد تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم بالخلافة أن تبطل مزاعم العلويين فيها . فسخرت المؤلفين في كل مكان للطعن في تعاليم الشيعة وتفنيدها . ومن هؤلاء الكتاب الذين تطوعوا لخدمة الدولة : ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ فقد ألف كتاباً اسمه « الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة » جاء في مقدمته^(١) « إني سئلت في تأليف كتاب يبين حقيقة خلافة الصديق وإمارة الخُطاب . فأجبت إلى ذلك مسارعة في خدمة ذلك الجناب . فجاء بحمد الله أنموذجاً لطيفاً » . وأهل الزندقة هم الشيعة في نظر المؤلف . والباب الأول من هذا الكتاب في بيان كيفية خلافة الصديق ، والاستدلال على حقيقتها بالأدلة العقلية والنقلية . والرد على شبهة شيعة وإبطالها . والباب الثالث في بيان أفضلية أبي بكر الصديق على سائر هذه الأمة . وقد أفرغ المؤلف جهده في إبطال حجج الشيعة في خلافة علي والوصية التي يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وصى بها له .

وعلاوة على ما تقدم فإنه ألف كتاباً^(٢) آخر في مناقب معاوية . وهذا يعتبر رداً على الشيعة كذلك لأنهم يكفرون معاوية .

وقد ذكر عبد الغني النابلسي^(٣) أن السلطان سليم شيد في قناطر السباع قصرًا كبيراً ووهبه للشيخ جلال الدين . ثم إن العثمانيين منحوها ، شيخ البكريين

(١) ص ١ ، المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

(٢) تطهير الجنان واللسان من التفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان مطبوع بهامش الصواعق

المحرقة (٣) الحقيقة والحجاز ٣٥ جغرافيا مخطوط

في مصر امتيازات لم تكن له من قبل ، منها الأوقاف الواسعة . ومنها أنهم جعلوه شيخا لمشايع الطرق الصوفية ، يعين شيوخها ، ويتنظر على أوقافها . فاستطاع شيوخ البكرين أن يبنوا القصور الفخمة على شواطئ بركة الأزبكية ، وبركة الرطلي . ويغرسوا بها الحدائق الغناء ذات النافورات الجميلة ويزودوها بالرياش الفاخرة ، ويقتنوا الخيول الأصيلة ، والجواري والعبيد وأن يتشبهوا بالملوك في حياتهم .

وكانوا يستضيفون الأدباء والعلماء القادمين إلى القاهرة ، فتمكنوا بوساطة هؤلاء من نشر نفوذهم الأدبي وتعاليمهم من اليمن إلى الحجاز ، ومن العراق إلى الشام ، ومن مصر إلى شمال أفريقيا ، بل وفي تركيا . وكانت تحملهم إليهم هدايا الملوك والأمراء والأعيان . وكانت شفاعتهم لا ترد ، وكتبتهم مسموعة عند أرباب الدولة . فانظر مثلا إلى ما يقوله صاحب خلاصة الأثر في ^(١) ترجمة زين العابدين البكري المتوفى سنة ١٠١٣ « وبلغ صاحب الترجمة في آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطعم حتى خشيه حكام مصر ، وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه »

وانظر إلى ما يقوله محمد الأمين الشامي في كتابه ^(٢) « نفخة الريحانة ورشحة طلاء الحانة » .

« السادات البكرية سادات الوجود ، وأولياء النعم الذين عرفوا بالكرم والجد . بيت كالبيت العتيق يزوره من لبي وأحرم ، ومن نال ثم عتبة بابه فقد ظفر بالحجر المكرم . ثبتت أوتاده وأطنابه ، ووصلت بأسباب السماء أسبابه . لا زحاف فيه إلا في بيوت حساده ، ولا إيطاء إلا على قلوب أضداده . حرم آمن ليس للحوادث عليه هجوم ، ولا لشياطين البغي فيه استراق ، فلذا تستريح شهبه من الرجوم . فهم نور الكون قبل أن يخلق النيران ، وقطب الدائرة قبل أن تؤمر الأفلاك بالدوران . خالصة الله من عباده أهل الصلاح ،

(١) ١٩٨ / ٢

(٢) ورقة ٢٣٤ .

وتراب نعالهم كحل لعيون أهل الفلاح . مامنهم إلا فتى لثوب العز صاحب ،
وللوقار مع الصبأ مصاحب . فإذا استوى على كرسيه فملك عليك المهابة
قبل الحاجب حاجب . بحار طمت وعلت القلل ، متمهدة منخفضة الوهاد في
صوب العهاد ، فتوارت البحار خجلا منها . في جيد الدهر من مدايحهم عقود
وقلائد ، ليس إلا كلماتها شذرات وقوافيها فرأيد .

وتدور تعاليم البكرين حول شخصية أبي بكر الصديق . انزاهم يذهبون
فيه مذهب الإسماعيلية في علي . ومعلوم أن الإسماعيلية قالوا إن نور الله تنقل
من الأصلاب إلى الأرحام حتى اجتمع في عبد المطلب ، ومنه إلى محمد فالأئمة
من أبناء علي . فقال البكرية إن الحقيقة المحمدية^(١) انتقلت إلى أبي بكر
وذريته من بعده . فالصديق هو الإنسان الكامل^(٢) . وعرفوا الإنسان
الكامل بأنه الجامع لما تفرق من الكمالات في سائر الأفراد الإنسانية ما عدا
النبوة . فهم والحالة هذه متفقون مع الإسماعيلية في نظريتهم في الإمامة التي
تقول بمثل هذا القول تماما . وذكروا في آية (رب أوزعني أن أشكر نعمتك
التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأسألك في ذريتي)
أنها حكاية من القرآن علي لسان أبي بكر . فالصديق سأل الله في هذه الآية

(١) عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق ، تأليف إبراهيم الخليلي ، ص ٣ وما بعدها

طبع جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

(٢) فكرة الإنسان الكامل عرفت عند الفرس في زمانهم المتقدم . وارتبطت عند
اليونان باسم الإنسان الأول . ويرى بعض المفسرين أن فكرة الإنسان الكامل سادتها
محضة عرفها الإسرائيلون ، ثم أخذها المسلمون وعرفوها باسم « الإنسان الكامل » ثم
أخذها المسلمون على يد جهينة لإخوان الصفا . ثم عرفها الإسماعيلية وادّعى لها الإنسان عين
الوجود . فأحلوا محل « السكامة المتجسدة » عند النصارى صورة « نبوية » من الأثر المعقول
الذي تركه الخالق في المخلوق ؛ مع وضع نوع من الامتزاج الثوري بينهما . والعلو
الإلهي . وهذه العين هي النبي محمد ؛ هذا النور النبوي الأول الذي يقال إن الله قال له
« كوني فلولاك ما خلقت السموات » والمطلب في « نور » اسمه نور .

انظر الإنسان الكامل ؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ٨٧ طبع لجنة التأليف والترجمة

بالقاهرة سنة ١٩٥٠

صلاحاً خاصاً لأسرته ، أى أن يعطيهم مقام الصديقية التى تلى مقام النبوة فى الرتبة . وأتى « بنى » الظرفية الشاملة لصلاحهم ظاهراً وباطناً ، وهذا نفس ما ادعاه الإسماعيلية والشيعة عامة فى هذه الآية من أنها نزلت فى على وأبنائه . من بعده .

وقال البكريون إن الصديق الذى قال الله فى حقه (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أكرم على ربه تبارك وتعالى من أن يهين ذريته بإدخالهم النار فى الآخرة . وقد قال الشيعة من قبل إن هذه الآية نزلت فى على وأبنائه . من بعده .

* * *

والصديقية عند البكرين قاصرة على ذرية (١) أبى بكر التى منحها الله له . بصفة خاصة بناء على سؤال أبى بكر . ومن ذلك نراهم جعلوا الصديقية هذه فى مقام الإمامة عند الشيعة . وهنا يظهر وجه الاختلاف بين البكرية والشيعة . فالشيعة يقولون إن ما خُص به أهل البيت إنما كان باختيار الله وبأمر منه دون أن يسأله أحد فى ذلك .

وكما أن الشيعة قالوا بانتقال الإمامة فى ذرية على بحيث لا يخلو عصر من وجود إمام يكون حجة الله فى عصره على عباده ، فكذلك قال البكرية (٢)

== وقد عرف عبدالكريم بن إبراهيم الجيلانى الإنسان الكامل بأنه القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره . وهو واحد مند كان الوجود إلى أبد الآبدين . ويقول إن الإنسان الكامل يظهر فى صور مختلفة تبعاً لاختلاف الرمان . واسمه الأصل « محمد » وله فى كل زمان اسم يليق به . ويقول إن الإنسان الكامل متقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه . انظر الإنسان الكامل ؛ تأليف عبد الكريم الجيلانى ٦١/٢ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ [ويقول صدر الدين القونوى فى رسالته « مراتب الوجود » « الإنسان الكامل ، وبه تمت المراتب ، وكل العالم ، وظهر الحق بظهوره الأكمل ، على حسب أسمائه وصفاته . وهو الجامع للحقائق الحقية ، والحقائق الخلقية جملة وتفصيلاً ، حكماً ووجوداً بالذات والصفات » [انظر الإنسان الكامل ، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠]

بانتقال الصديقية في ذرية أبي بكر بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق
بكرى . قال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ .

في كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ما حى الرّيب

وروى عن محمد البكرى أنه قال « يجلس عقبننا مع عيسى ابن مريم على
سجادة واحدة » .

ولم يقف البكريون عند نسبة الصديقية إلى أبي بكر ، بل جعلوا له
حقيقة معنوية تشبه الحقيقة المحمدية كما سنرى . فرووا حول أبي بكر كثيرا
من الأحاديث التي تؤيد وجهة نظرهم في الحقيقة البكرية مثل حديث^(١) « بعثت
أنا وأبو بكر كفرسى رهان فسابقنى فسبقته ، ولو سبقنى لاتبعته » وهذا الحديث
ورد في كتب الشيعة مع إبدال كلمة « أبي بكر » بكلمة « على » فالله لم يبعث
محمدًا وحده ، بل بعث معه أبا بكر ، ولم يكن أحدهما يمتاز عن الآخر ، ثم أخذوا
يتسابقان نحو النبوة فسبق محمد . وذكروا تأييدا لهذا الحديث أن أبا بكر
كان الثانى بعد الرسول في الإسلام ، وأول من آمن به وثانيه في الهجرة
وثانيه في الغار ، وثانيه في دخول المدينة ، وثانيه في الإيمان بالإسراء ،
وثانيه في الميلاد ، لأن النبي ولد يوم الاثنين وأبا بكر ولد يوم الثلاثاء .
والنبي ولد لاثني عشر ربيع ، وأبو بكر ولد لثلاثة عشر ، وثانيه في القيام
بأمر الدعوة الإسلامية ، والخليفة بعده . وثانيه في القبر وكم للقرآن من
أسرار هو فيها ثانی اثنين ! ؟ فصحبته للنبي أزلية .

وحديث معناه أن النبي لما كان قاب قوسين أو أدنى من العرش أخذته
وحشة ، فسمع في حضرة الله صوت أبي بكر فاطمأن قلبه واستأنس بصوت
صاحبه . وقالوا إنه كان بين النبي وأبي بكر إشارات أزلية لا يعرفها غيرها

(١) العمدة ص ٩٩ . وهذا الحديث ذكره غير إستاذ . ولا وجود له في الكتب المعتمدة .
وكذلك شأن جميع الأحاديث التي أوردها صاحب العمدة .

فكان النبي يقول « يا أبا بكر ، أتدرى يوم لا يوم أفيقول أبو بكر . نعم » .
ومعناه : أتدرى لما كان كذا وكذا قبل خلق الأيام ؟ .

وحديث « خلقت أنا وأبو بكر من طينة واحدة » وحديث « كان جبريل .
إذا قدم أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحادثه يقوم إجلالاً للصديق
دون غيره . فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال جبريل : أبو بكر له
على مشيخة في الأزل . وما ذاك إلا أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم
حدثني نفسي بما طرد به إبليس ، فحين قال الله تعالى اسجدوا ، رأيت قبة
عظيمة عليها مكتوب : أبو بكر ، أبو بكر ، مرارا ، وهو يقول : اسجد ،
فسجدت من هيبة أبي بكر ، فكان ما كان . » .

وروا أنه لما مات أبو بكر واستخلف عمر كان يتبع آثار أبي بكر
ويتشبه بفعله . فأخذ يتردد على عائشة وأسماء ويقول لهما : ماذا كان يفعل
الصديق إذا خلا ببنيته ليلا ؟ فيقال له : ما رأينا له كثير صلاة بالليل ولا
قيام . إنما كان إذا جنه الليل يقوم عند السحر ويقعد انقرفصاء ويضع رأسه
على ركبتيه ثم يرفعها إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول : آخ ، فيطلع
الدخان من فيه . فيبكي عمر ، ويقول : كل شيء يقدر عليه عمر إلا الدخان .
وأصل ذلك كما ذكروا أن شدة خوف أبي بكر من الله أوجبت احتراق
قلبه ، فكان جليسه يشم منه رائحة السكيد المشوى . وسببه كما زعموا أن
الصديق لم يحتمل أسرار النبوة الملقاة إليه .

وقالوا في حديث^(١) « أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه » إن المعرفة
التامة تكشف عن جلال المعرف وجماله . وكلاهما أمر عظيم جدا تنقطع
دونه الغايات . ولولا أن الله تعالى ثبت من أراد ثباته وقواه على ذلك

ما استطاع أحد الوقوف ذرة على كليهما جلالا وجمالا . والغاية في الطرفين
قد نالها الصديق فقد ورد في الحديث « ما صب في صدري شيء إلا صببته
في صدر أبي بكر . ولو صببه جبريل عليه السلام في صدر أبي بكر ما أطاقه
لعدم مجراه من المائل ، ولكن لما صب في صدر النبي وهو من جنس
البشرية فجرى في قناة مماثلة للصديق ، فبواسطتها أطاق جملة ومع ذلك
احترق قلبه » .

ومن هنا نرى أن البكرية كفرقة صوفية امتازت عن غيرها من الفرق ،
وذلك بأن أضافت إلى مفهوم الحقيقة الحمديّة الصوفي عنصرا جديدا ،
هو الحقيقة المعنوية لأبي بكر الصديق ، بحيث تكون هذه الحقيقة الأخيرة
ملازمة للحقيقة الأولى ، ولا تنفك عنها منذ الأزل . وقد مر بنا قولهم إن
صحبة أبي بكر للنبي أزلية ، أي أن الحقيقة البكرية وجدت مع الحقيقة
الحمديّة .

وإذا كان الصوفية يقولون إن الأولياء يتصلون بالحقيقة الحمديّة
فإن البكرين قالوا إن الأولياء يتصلون بالحقيقة البكرية . وقد صور
لنا محمد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ الحقيقة البكرية في شعر كثير
نذكر منه (١) :

هو الجمع في عين الشهود بلا مرا تجلى بأنواع من الفيض بالأمر (٢)
هو الملكوت الواسع المطلق الذي تعالى عن الأوهام والذهن والفكر
هو الرحموت الجامع الكل في العلا ومرشد أرباب الهدى سبل الذكر
هو العين من عين لعين تنقلت وعين هداه قد أفاضت على البحر (٣)

(١) ديوان محمد البكري ورقة ١٢٠ مخطوط ٨٥

(٢) الجمع : الحالة التي يشعر فيها الصوفي بوحدة الحق والخلق ، ويفى عن نفسه وعن كل
ما سوى الله . بلامرا : بلاشك . الفيض : هو تجلى الذات الإلهية .

(٣) العين : موضع تجلى الذات الإلهية . أو النور الإلهي .

هو المركز النورى فى كل حضرة

وجامع ملك الكون فى قبضة الأسر

هو الكل والكل العظيم جميعه :باطنه كالدر فى مهمه قفر

هُوَيْتُهُ منه إليه مسيرها تحدث عن أسراره كل ذى قدر

هو الجامع الأسرار من آدميه ووارث خير الخلق فى السرو والجهر

ومشهد كل العالمين مقامه ورافعهم فى الله فوق ذرى الفخر

وكل ولى بعد طه وعارف فقطة ماء من بحار أبى بكر

وما زال هذا المجد فيه حقيقة

إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى

ومعنى هذه الأبيات أن أبا بكر اجتمع فيه الحق والخلق فتجلت فيه
الذات الإلهية ، وأصبح هو هذا العالم المترامى الأطراف الذى لا يستطيع
الإنسان أن يحيط به أو يدرك كنهه . وهو الذى اجتمعت فيه الرحمة وأصبح
هاديا ومرشدا للناس . وهو العين أى النور الذى تنقل فى الأصلاب من آدم
وهو مركز النور الإلهى ، وفى كل مجال يظهر فيه أثر للسر الإلهى . وفيه
تركز هذا الوجود ، فهو الخلق والحق والوجود ، والصورة التى يتجلى فيها
الحق يوم القيامة تبدأ منه وتنتهى إليه معرفة عن أسرار . وهو الذى
اجتمعت فيه الأسرار الإلهية من لدن آدم ، والذى ورث خير الخلق ، أى
النبي محمد عليه الصلاة والسلام . فهو يمثل العوالم كلها ، ويكسبها فخرا لا حد
له . وكل ولى وعارف بعد النبي محمد لا يغدو أن يكون نقطة من بحار
أبى بكر . وما زال هذا المجد يتنقل فى ذرية أبى بكر حتى ظهر فى شخص
أبى الحسن البكرى .

* * *

وقالوا إن داوم^(١) ناموس آل الصديق وقيام عزتهم إلى انتهاء الدنيا

ثابت بقوله تعالى « في ذريتي » فإن عدتها بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وعشرة ، وهي مظنة تمام الدنيا . وعندهم أن من أحب آل الصديق نجا من كل سوء ، ومن كل مكروه . وأن خلافتهم صدق وحق وقد نص عليها القرآن . قال مجمل زين العابدين (١) البكري :

وحاشا الذي بالحب والود ينتمى إلينا يرى سواً وحافظه الولي
خلافتنا بالحق والصدق قد أتت أدلتها عن نص ذكر مُسرته
وقال محمد البكري إنه ورث الخلافة عن النبي :

ورثت النبي فلي من رُباه مقيل الخلافة والمسرح
ومنكر آل الصديق كافر . قال : (٢)

إن الذي ينكرنا لقد أتى إحدى الكبر
وكل من يعرفنا نال الأمانى وظفر
وقالوا إن الألف في « ألم » (٣) تشير إلى أبي بكر ، واللام إلى الله ، والميم
إلى محمد . وفي ذلك يقول محمد البكري :

لئن كان نجر الأكرمين صحائفنا فإنا لآيات الكتاب فواتح
وأطالوا القول في آية « ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن
إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه » وفي الحديث الوارد عن النبي عليه السلام
حين مرض وهو « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

* * *

ومع أن البكرية غالوا في أبي بكر غلوا قبيحاً كما رأينا ، إلا أنهم طعنوا
في الشيعة ، واعتبروهم جميعاً رافضة (٤) وقالوا إن الرفض إذا أشرف على
الموت يقلب الله صورة وجهه وجه خنزير ، فلا يموت إلا إذا صار وجهه كذلك ،
فإذا رآه أهله فرحوا واستبشروا لأنه مات على الرفض . أما إذا لم يحدث
ذلك فإنهم يحزنون ويقولون إنه مات سنياً .

(٢،١) ديوانه ورقة ٥٠ ، ٩٨ (٣) العمدة ص ٨٧ والمراد ألم نشرح لك صدرك ، وكل
آية وردت فيها « ألم » (٤) العمدة ص ٨٦

وأول شخصية بكرية ظهرت في العصر العثماني وتركت آثاراً أدبية؛ هي شخصية أبي الحسن البكري المتوفى سنة ٩٥٢ هـ وسبق أن ذكرنا أن أبا الحسن لازم الدشطوطي . وقد حدث أن زار مصر أحد كبار متصوفة الشام في ذلك الوقت وهو « رضى الدين الغزى » فأمر^(١) الدشطوطي أبا الحسن أن يأخذ عنه التصوف . ولم يلبث أبو الحسن أن استوعب تعاليم الصوفية وبخاصة ابن عربي وابن الفارض . ثم ذهب لأداء فريضة الحج واتصل بكثير من علماء الأقطار الإسلامية . ولما رجع من الحجاز زاول التدريس بمسجد والده جلال الدين ، وبالجامع الأزهر . ومؤلفاته التي وصلت إلينا يغلب عليها الجمع ، إذ هي أحاديث نبوية في موضوعات شتى . مثال ذلك « غاية الطلب في فضل العرب » و « تحفة العجلان في فضائل عثمان » و « الانتباه إلى فضائل لا إله إلا الله » ، وغيرها . وكل مؤلف من هذا يحتوى على أربعين حديثاً بإسنادها . وقد ترجم له الشعرانى في ذيل^(٢) طبقاته فقال « الصوفى المحدث ، نادرة الزمان ، الشيخ أبو الحسن البكري رضى الله عنه — أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام والتصوف كالشيخ رضى الدين الغزى . وتبحر في علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك . وكان له النظم الشائق في علوم التوحيد . وأطلعنى مرة على تائبة عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم ، ثم إنه غسلها وقال إن أهل زماننا لا يتحملون سماعها لقله صدقهم في طلب الطريق » .

وقال محمد اليمنى في كتابه « السنا^(٣) الباهر » ما نصه « وقال جماعة إنه — يعنى أبا الحسن البكري — بلغ رتبة الاجتهاد ، وصنف التصانيف الكثيرة المحررة الشهيرة . منها ثلاثة شروح على المنهاج ، وثلاثة شروح على الإرشاد ، وشرح العباب ، وشرح الروض ، ومختصر الإيضاح وشرحه .

(١) الكواكب السائرة ورقة ٣١٢ مخطوط رقم ١٢٠٦ تاريخ .

(٢) ص ٥٠ طبع مصر سنة ١٣٠٢

(٣) ص ٣٨ طبع مصر سنة ١٣٠٨

وعدة متون في الفقه ، وعدة رسائل في التصوف ، وغير ذلك . وكل كتبه محررة ، ومسائلها مقرررة . وانتشرت تصانيفه في سائر الأقطار ، وانتفع بها الكبار والصغار . وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، وتخرج به العلماء العارفون . وله نظم نضد فيه عقود الجواهر ، يقصر عنه كل أديب وشاعر . وله موشحات توحيدية لم ينسج على منوالها أحد من البرية .

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب السكواكب السائرة (١) قصيدة طويلة في التصوف والحب الإلهي ، والوعظ والإرشاد والمناجاة ، نذكر منها :

أتم معاني الكائنات فأينما أنتم حلتم حلت البركات
لله ما أحلى قديم حديثكم ذلك الذي هو للقلوب حياة
تحيا قلوب العارفين بذكركم والجاهلون قلوبهم أموات
غنى الزمان بمدحك متعللا فرحاً فكل جهاته نغمت
ومنها :

وبدا سنا مصباحكم فقلوبنا كزجاجة وصدورنا المشكاة
وقع النداء لنا ألت بربكم ؟ قلنا : بلى وأجابت الذرات

والقصيدة كلها على هذا النمط من الرقة والسلاسة والبعد عن التكلف ، ولكن المذهب الصوفي لأبي الحسن لا يظهر فيها . ولا يستنتج من قوله :

..... فأينما أنتم حلتم حلت البركات

أنه يدين بمذهب الحلول ، لأن أتباع هذا المذهب يقولون بحلول الله في جميع المخلوقات الطاهرة والشريرة . والمخلوقات الشريرة لا يمكن أن تكون محلا للبركة الإلهية التي يذكرها الشاعر .

وقد نوه البكريون بشأن أبي الحسن كثيراً في كتبهم ورسائلهم ، ورووا
تلك الكرامات والحوارق . واعتبروه مؤسس مجدهم الأدبي والصوفي
والاجتماعي فانظر إلى ابنه محمد البكري حين يقول :

وكل ولي بعد طه وعارف	فنقطة ماء من بحار أبي بكر
وما زال هذا المجد فيه حقيقة	إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكري
فحاز جميع الإرث وازداد أمره	به منه ما يبديه عن شأنه ذكرى
فمن ذاك أن العين حقاً تقابلت	بعين تجلّي الحق في أحمد السر
فودت تجليها بها فتعينت	بطلعتها في الذات من دون ماستر
فأصبح مخطوب الجمال ورونق الـ	كمال وحامي الحق بالبيض والسمر
بوعالم هذا العالم الأكبر الذي	توسع حقاً في مراتبه الغر
وهيكل أسرار التجلّي وقطبها	ومشرق بدر السر في ليلة القدر
ولا عجب أن يطلع البدر في الدجى	بأية وقت شاءه ملك الأمر
ووارث تكليم الكليم وحائز الـ	كلام بما يبديه في الكليم العشر
فروض ربي روض تربته التي	يفوق شذاها للمسك في طيب النشر
ولوح به رقم العلوم بأسرها	وسر نظام الكون في البر والبحر

فلم يذكر الشاعر أحداً من أجداده ، بل قصر كلامه على والده . وقال
إنه كالبدر الذي طلع في الظلام ، ولا عجب في أن يطلع البدر في أي وقت
متى أراد الله ذلك . ويريد بالدجى خمول الذكر الذي لازم أسرته مدة من
الزمن ، ولم يتبدد إلا بظهور أبي الحسن الذي حاز إرث الصديق وأضحى
موضعاً لتجلّي الأسرار الإلهية ، متعمقاً في علوم الحقيقة التي تلقاها عن
الله مباشرة كما تلقى موسى الوصايا .

* * *

ولما مات أبو الحسن خلفه في مشيخة السجادة ابنه محمد البكري الكبير
المشهور بأبيض الوجه ، المكنى بأبي بكر ، وأبي المكارم . وقد ترجم

لنفسه فذكر أنه ولد عام ٩٣٠ هـ ثم تحدث عن نشأته وحياته الدراسية واشتغاله بالتدريس والتأليف ، وماله من نظم ونثر . وردت هذه الترجمة في كتاب « عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق » تأليف أحمد دماق البكريين في القرن الحادي عشر ، وهو إبراهيم العبيدي المالكي الذي شغل وظيفة الإفتاء في البحيرة . وقد رآه عبد الغنى النابلسي حينما زار مصر سنة ١١٠٥ هـ وذكره في رحلته .

قال محمد البكري إنه ختم القرآن في أواخر السابعة من عمره ، وصلى به إماماً^(١) في تراويح رمضان في مقام السادة المالكية عند الكعبة وهو في الثامنة . ثم حفظ ألفية بن مالك والتنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فقه الشافعي قبل تمام العاشرة . وكان مواظباً على حضور دروس والده ، فأخذ عنه التفسير والفقه والحديث . ولم يذكر أنه تتلمذ لأحد سوى والده .

ثم شرع في التأليف وهو في السادسة عشرة . فشرح كتاب الاختصار في فقه الشافعي ، وقطعا من مؤلفات فقهية ، ورسائل كاملة في التصوف . وزاول التدريس في مسجد جده المشهور بالجامع الأبيض . ثم خلف والده في التدريس بالجامع الأزهر .

ورث محمد البكري عن والده ثروة طائلة مكنته من أن يعيش كما قال الشعرا في عيشة الملوك في مسكنه ومأكله ، وملبسه ومركبه ، وجواريه وعبيده . وكان الناس ينكرون على البكريين الجمع بين الغنى وحياة التصوف التي ينبغى في نظرهم أن يكون طابعها التقشف والفقر . ولكن البكريين ومنهم محمد البكري كانوا يرون ألا تناقض بين الغنى والتصوف . ويحتجون بقولهم^(٢) إن أبا بكر كان له ثلاثمائة وستون كرسيًا ، على كل كرسي حلة بألف دينار . وأن^(٣) عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة . ونحن نعرف من

(١) إمامته الصبي جائزة عند الشافعية والمالكية

(٢، ٣) العمدة ص ٨٧ ، ١٢٣

التاريخ أن أبا بكر عاش في الإسلام فقيراً ومات فقيراً . فإن صحت دعواهم في عبد الرحمن بن عوف فإنها لاتصح في أبي بكر . واحتجوا كذلك بقوله تعالى « قل من (١) حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقوله صلى الله عليه وسلم « كل طيبا ، والبس طيبا ، واعمل صالحا » .

تمتع محمد البكرى في حياته بنفوذ أدبي واسع ، وتبادل الرسائل مع الملوك والأمراء والوزراء والأعيان في كثير من أنحاء العالم الإسلامي . وكانت تصل إليه الهدايا النفيسة ، وكان مقبول الوساطة . وقد ذكره الشعرا في ذيل طبقاته وأثنى عليه كثيرا . كما ذكره عبد الرؤوف المناوى في (٢) طبقاته - الطبقة العاشرة فقال - « ... رزق من القبول والحظ التام عندا لخاص والعام مالا تضبطه الأقلام . وكان فصيح اللسان ، ذكى العصر والزمان . يلقي دروسا في التفسير محررة موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزنجشبرى وأضرابه . ويأتى في تقريره بما يدهش الناظر ويحير الخاطر . واختص في زمنه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة . ولم أر أحدا من علماء عصره كهو في صفاته وخلق مجلسه من اللفظ واللغو والغيبة . فكان مجلسه لا يذكر فيه شيء من ذلك البتة ، بل كله فوائد علمية ، إما تفسير بعض آيات قرآنية أو أحاديث نبوية . وسمعتة يقول : هذا القص الواقع في وعظ زماننا يستحقون عليه القص . وكان الباشا وقاضى العسكر فمن دونهما من الأمراء والكبراء يأتون إليه ويخصونه من بين أقرانه بالزيارة مرارا وكرارا كثيرة »

وإذا كان بعض معاصريه أنكر ولايته لأنه لم ير له كرامة ، فإن البكرين اعتقدوا فيه الولاية ، ورووا له الكرامات الكثيرة . وقالوا إذا كانت لك حاجة إلى الله وأنت في أى مكان من الأرض فتوجه نحو قبره وقل « يا شيخ محمد ، يا ابن أبى الحسن ، يا أبيض الوجه ، يا بكرى ، توصلت بك إلى الله تعالى ففى قضاء حاجتى » فإنها تقضى ، وهى مجربة فيما زعموا .

(١) الأعراف آية ٣٢

(٢) الكواكب الدرية ، ويعرف بطبقات المناوى ورقة ٤٣٢ مخطوط رقم ٢٦٠ تاريخ

ويعتبر محمد البكرى أعظم شخصية بكرية ظهرت في مصر خلال العصر العثماني . فهو الذي وضع الحزب البكرى المشهور الذي انتشروا أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة . وهو أول من اتخذ شعره وسيلة للدعاية للتعالم البكرية . وقد ترك ديواناً ضخماً ، منه نسختان خطيتان بدارالكتب المصرية . الأولى تحت رقم ٨٥ - أدب ، والثانية تحت رقم ١٧٢٢ - أدب . وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية إسكندرية تحت رقم ٣٥٥٢ ج ، كما أن الجامعة العربية أحضرت شريطاً من استنبول من نسخة خطية لهذا الديوان ، رقمها ١٢١٥

ولمحمد البكرى ، عدا هذا الديوان الضخم ، مجموعة رسائل عنوانها «دستور الغرائب ومعدن الرغائب» منها نسخة خطية بمكتبة بلدية سوهاج . وقد أحضرت الجامعة العربية شريطاً من هذه النسخة تحت رقم ٩٥٤ - أدب وله كذلك بعض رسائل في التصوف . وسنقصر الكلام هنا على شعره .

شعر محمد البكرى ؛ عدا القليل منه ؛ في التصوف . ولكي نقف على حقيقة مذهبه الصوفي سنضع أمامنا بعض ما يكشف لنا عن آرائه الصوفية . فمن ذلك قوله :

كم أناس توغلوا في الدماوى زعموا أنهم من الأبرار
بل من العارفين بالله لكن قسما منهم من الكفار
أطلقوا وحدة الوجود وقالوا كل شيء هو الإله البارى .
يا لقومى أمالطه نصير قاب من لم يكن من الأنصار ؟
أى شخص يقول آمنت بالله ه ويرضى مقالة الفجار ؟
وتراهم تمشدقوا بأكاذيب ب افتروها بالثر والأشعار
أطرقوا الرأس حيلة لحطام وسعوا فيه حيلة الأفكار
قائل منهمو أنا الحق والى كل . أنا وحدة بلا إنكار

وغدوا في أثواب زور ولبس وشنار وذلة وعوار
في هذه الأبيات تعريض شديد بالأتحاديين^(١) والحلوليين^(٢) والقائلين
بوحدة الوجود . واتهام لهم بالكذب والتزييف ، والغش والخداع ، فضلا
عن الكفر والفجور . وقد كرر هذا في مواضع كثيرة من شعره . فمن
ذلك قوله :

ما حلت الذات ، بل جلت وما أتحدت بمشرق ، لا ولا المعنى بمنقسم
وقوله :

حلول محال واتحاد مخالف لوحدته فالوصف فيه تلونا
وقوله :

حيرة عمت الوجود فأعمت عن سناها قوما وصحبا وآلا
فاستمع لي واستنصت الكون وافقه ما إليك انتهى وخل الخيالا
ليس في مظهر يحل حبيبي هو أعلى قدرا وأبهي كالا
لا ولا باتحاده قال قوم عرفوه حاشا لذا أن يقالا

فإذا كان محمد البكري كما ترى ينكر مذهب الأتحد والحلول ووحدة الوجود
ويكفر أصحاب هذه المذاهب ، فبأي رأى كان يدين ؟ الواضح من شعره
أنه كان يقول بوحدة الشهود ، أى أنه يذهب مذهب ابن الفارض مع فارق
عظيم ، وهو أن محمد البكري يقول بالحقيقة البكرية التي تنتقل في ذرية الصديق ،
والتي امتازت بها هذه العائلة عن غيرها من الناس . ولو أنه قال بمذهب الأتحد
أو الحلول أو وحدة الوجود لفقد هو وأفراد بيته الميزة الوحيدة التي يتمتع
بها ، وذلك لأن للمذاهب السابقة تسوى بين الناس وتجعلهم كلهم متصلين
بالذات الإلهية ، فلا ميزة لأحد على أحد . وهو يريد أن يكون لبيته مكانة
خاصة وميزة لا يشاركه فيها غيره ، ألا وهي وراثته للحقيقة الحمديّة والحقيقة

(١) مذهب الأتحد ينص على أن الخلق متحد مع الحق

(٢) مذهب الحلول ينص على أن الله حال في المخلوقات .

البكرية . وإذا كان محمد البكرى قد كفر القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، فإن الإسلام الصحيح يبرأ من التعاليم البكرية والقائلين بها ، والمروجين لها .

* * *

ذكرنا أن محمد البكرى كان يدين بمذهب وحدة الشهود . والمؤمنون بهذا المذهب يقولون إن الله يتجلى لسلك من يخلص له في عبادته وينهى في حبه . قال محمد البكرى :

ولاحت لنا فاستغرقت كل واحد وصارت له فينا عن الأين طاويه
مقدرة سر الوجود بوحدة الشهود فلا تلقى هنالك ثانيه

والمعنى أن الذات الإلهية تجلت وتكشفت وجذبت نحوها هؤلاء المتصوفة فغابوا عن الزمان والمكان ، ولم يشعروا بوجودهم من فرط النشوة .

ويعبر محمد البكرى عن مذهب وحدة الشهود مستدلاً بقصة موسى عليه السلام حين رأى النار وتوجه إليها فتجلى له الله سبحانه وتعالى وكلمه . قال :

جمعتنى منك حتى كنت منك بما قدست فيه لموسى ذلك النادى
جعلت بالشجر المخضر نارك فاء نزت بنورك جمعا سرحة الوادى
فظنها المطلب المقصود فابتدرا مشهود حتى تبدى أنك البادى
ما أنت نار ولا نور تقسمه الـ أحلام هيهات أنت الواحد الهادى
فامنن بكشف حجاب أنت ناسجه عليك منك وقرب كل قصاد

في هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى على لسان^(١) موسى « امكثوا لى آنت نارا لى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ويقول المتصوفة

(١) سورة طه آية ١٠ .

إن الله تجلى لموسى فى صورة النار لأنها عين مطلوبه من جهة. ومن جهة أخرى فإنها رمز القهر والمحبة ، لأنها تبنى كل ما اتصل بها . وكذلك الله يبنى كل ما اتصل به ، أى كل من تحقق من وحدته الذاتية . وهذا الفناء هو الذى يعبر عنه المتصوفة بالجمع . والنار كذلك رمز المحبة لأنها مصدر النور المحبوب لذاته .

وينكر محمد البكرى لبس الصوف والمرقعات ، لأنها لا تتفق مع ما كان عليه من غنى . قال :

وما مذهب للفيلسوف وفرقة بلبسته للصوف مذهب شرعى

* * *

ومن مصطلحات^(١) الصوفية الواردة فى شعره :

١ - الجمع والفرق : الجمع الحالة التى يشعر الصوفى فيها بوحدة الحق والخلق ، ويفنى عن نفسه وعن كل ماسوى الله . فهى حالة غيبية روحية . وعكسها حالة « الفرق » التى يكون فيها فى حالة صحو ، أى حينما يشتغل بأمور الدنيا . قال :

وأبعد الجمع عنهم فى شئو نهمو ما يحجب العين من غبن ومن كدر
فالخلق بالحق مرآة لشاهدكم وليس ثم سوى المعشوق للفطر

٢ - البسط والقبض : البسط هو النشوة التى يشعر بها الصوفى فى حالة فناءه بالذات الإلهية . وعكسه القبض ، وهو الضيق والتبرم الذى يقع فى حالة الصحو . قال :

وأطلقهم بسطا بكل لطيفة وقيدهم قبضا بدائرة انقنا

٣ - الطى والنشر ، وهما كالجمع والفرق . فالطى : انطواء الخلق فى الحق فى حالة الفناء ، أو الغيبة الروحية . وعكسه النشر . قال :

(١) رجعت فى شرح هذه المصطلحات إلى تعريفات الجرجاني ، وشرح فصوص الحكم لصدر الدين القونوى .

نشر وطى حكمة قدسيه سمدى وى ظلة رسميه

٤ - الوتر والشفع : الوتر هو الذات الإلهية ، والشفع هو العالم .
ويقول المتصوفة إن الذات الإلهية إذا نظر إليها مجردة عن جميع العلاقات
والنسب لم يكن لها دلالة ولا إشارة إلا على نفسها . أما العالم الذى هو كثرة
من صور الوجود فله إشارتان : إشارة إلى نفسه ، وإشارة إلى الذات المندرجة
فى كل صورة من صورهِ . والحقيقة أن الوتر هو الشفع ولكنهما متغايران
فى الذهن ، كما أن الواحد العددي هو عين الأعداد كلها ولكنه مغاير لها
ذهناً . وهذا الرأى الرياضى قديم ذهب إليه اليونان ، فقالوا إن الواحد
أصل العدد ، وكل ما يأتى بعده فهو مندرج فيه . فالإثنان عبارة عن واحد
زائد واحد . والثلاثة عبارة عن واحد ، زائد واحد ، زائد واحد . وكذلك
سائر الأعداد . وقد أخذ إخوان الصفا عن اليونان هذه الفكرة فقالوا إن
الواحد أصل العدد ومنشؤه ، وأوله وآخره . قال محمد البكرى :

ومنه شفعه الأزهر بدا فى الخلق بالوتر

وقال :

واستغرق الشفع بالوتر المحيط ولا تترك لنفسك سهماً غير مرمى

٥ - اللاهوت والناسوت : يقول المتصوفة إن لكل موجود ناحيتين :
ناحية الباطن أو الحق ويسمونها باللاهوت . وناحية الظاهر أو الخلق
ويسمونها بالناسوت . قال محمد البكرى :

فلم أدر ما الناسوت أين ولا الذى تعين باللاهوت عن وصف نسبة

٦ - الفيض : تجلى الذات الإلهية . قال :

هو الجمع فى عين الشهود بلا سرا تجلى بأنواع من الفيض بالأمر

وتكون بمعنى خروج شىء من شىء ، مثال ذلك قوله :

وعظَّم الأرجُ القدسي حِلَّتَنَا وفاض من مُعَصَّرات الغيب واديننا

٧ - التعينات : وهي مجالى الذات الإلهية . فكل ما يتجلى فيه الله
يسمى التعين . قال :

وفي العروش وألواح النقوش كما شاء التعين في مثل وفي مَثل

٨ - البرزخ : حالة ما بين الفناء والصحو . قال :

فأشباحهم في برزخ من شهوده وأرواحهم في غيبة القرب والغنى

٩ - الحيرة : الحالة التي يرى الصوفى فيها الحق في كل شيء . ويرى
الواحد كثيراً ، والكثير واحداً ، والأول آخرأ ، والآخر أولاً ، إلى غير ذلك
من الأمور المتناقضة التي توقع النفس في الحيرة وتجعلها هائمة على وجهها ،
دائبة الحركة في دائرة الوجود . قال :

هديت بالغرة من ضل في طرتك الدهما وحيرتني

١٠ - القدوس والسبوح : هما من أسماء الله . ومعناها المنزه ، وإن

كانوا يقولون إن القدوس أخص في معنى التنزيه من السبوح وأبلغ ،
إذ التقديس تنزيه الله عن كل صفات الممكنات ولوازمها حتى كالاتها ، وعن
كل ما يتوهم ويتمقل في حقه تعالى من الأحكام الموجبة للتحديد والتقييد .
وبعبارة أخرى التقديس هو نهاية التجريد ، ولا تقول به إلا النفوس المجردة .
التي لا صلة لها بالأمور المادية قال محمد البكري :

إلى القدس الذاتى والمعهد الروحى إلى ملكوت منه يظهر سبوحى
وقال :

وقد دخلوا لكن بيوت وجودهم وأدخلنى القدوس أى جناب

١١ - السر المحيط والسر البسيط . يطلق الأول على الذات الإلهية ،

والثانى على الإنسان قال .

وبعزة السر المحيط مركب السر البسيط بطينة وتراب .

١٢ - النفخ ، وهو خروج شيء من شيء ، أو فيض شيء من شيء .
قال :

ولقوله ونفخت فيه آية تعطى القلوب من المني ما تطلب
١٣ - الأحدية والصدمية : الأحدية اسم للذات المجردة عن جميع
الأسماء والصفات . والصدمية نسبة إلى الصمد ، من أسماء الله تعالى . قال :
في روضة أحدية صمدية أنا لي بها مني المغنى المطرب .

١٤ - الهوية : الصورة التي يتجلى فيها الحق يوم القيامة . قال :

يا هويات صفات ظهرت في ذوات بالتجلى قهرت

١٥ - قرآن وفرقان : استخدم المتصوفة كلمة « قرآن » بمعنى الدعوة
إلى تنزيه الله . فمن دعا إلى تنزيه الله فهو قرآني . وقد ردد محمد البكري هذه
الكلمة في شعره فقال :

قرآن عرفاني الأعلى يكلمكم فاسمعوا وانصتوا يا جملة الأمم

وكذلك استخدموا كلمة « فرقان » ومعناها . لا يختلف عن « قرآن »

قال محمد البكري :

فبمعنى منه لأئمة ، ظهرت جماعاً بفرقان

١٦ - النكاح : يرى المتصوفة أن أعظم اتصال جسماني بين الرجل

والمرأة هو النكاح ، إذ فيه يتوجه الرجل لإيجاد ولد يكون على صورته

ويختلفه من بعده . ولذلك شبهوا توجهه الله إلى خلق آدم ونفخه فيه من

روحه ليكون على صورته ويختلفه ويرى فيه نفسه ، شبهوا هذا بالنكاح .

قال محمد البكري :

وعزة قد أنكحتها بكُشِيرٍ وقيس لليلى صار في شرعتي بعلا

فولد ذاك البعل منها مشاهدًا يعدوها شكلاً ويجمعها شملاً

١٧ - التابوت : وهو في اصطلاح الصوفية الجسم الإنساني . وقد ورد

ذكر التابوت في قوله تعالى « وقال لهم ^(١) نبينهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة » والمراد بالسكينه عند المتصوفة : الحضور الإلهي ، أو الله نفسه . وفي هذا المعنى يقول محمد البكري :

وقابلك التابوت فيه بقية يضم بها التابوت من سره شملاً .
١٨ - العارف : هو الولي أو الإنسان الكامل الذي تحققت فيه كل صفات الوجود ، فكان مظهراً تاماً وكوناً جامعاً لها وقلب العارف من رحمة الله ، وهو أوسع منها لأنه وسع الحق جل جلاله . ومن خصائصه أنه يشاهد الحق في كل مجلى ، ويراه في كل شيء ، ويعبده في كل صورة من صور المعتقدات . وقد وصف محمد البكري نفسه بأنه عارف الوقت ، ومخصوص الزمان . قال :

الفتى البكري مقدم الوعى عارف الوقت ومخصوص الزمان .

١٩ - الحكمة : والمراد بها عند الصوفية التعاليم الباطنية التي اختص بها النبي محمد عليه السلام وورثها من بعده . وأطلقوا على هذه التعاليم اسم العلم الباطن . وهو عندهم علم الطريق الصوفي ، وما ينكشف للصوفية من حقائق الأشياء ، ومعاني الغيب . قال :

ينزل الحكمة في روضها غيثاً تعالى الله من ودقه

ومن خصائص الحكمة أنها تنزل على القلوب ، لا على العقول .

٢٠ - المطلق الأعلى : ومعناها الذات الإلهية . قال :

تجلى المطلق الأعلى فجلى نوره الأدوار

٢١ - ذات الدوات . ومعناها الحقيقة المحمدية . قال :

هو السر في ذات الذوات تقابلت شواهد في فيء نفس وطينة
٢٢ - الولي : الولاية عند المتصوفة أساس المراتب الروحية كلها . فكل
رسول ولي ، وكذلك كل نبي . وأخص صفات الولي المعرفة ، أي العلم الباطن .
والنبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان . أما الولاية فلا
تنقطع . وقد وردت كلمة « ولي » في مواضع مختلفة من شعر محمد البكري .
قال :

فعاياه يذكرنا وذلك سؤلنا فهو الولي ابن الولي ابن الولي
٢٣ - الحضرة : المجلي الذي يظهر فيه أثر إلهي من نوع خاص . أو المجال الذي
يظهر فيه فعل إلهي خاص . قال :

وانجلى آزال حضرته من شئون البدء في الأبد
وقال :

حدثنا الواحد عن واحد عن حضرة المشهود والشاهد
وقال :

هي الروح والروح أمر خفي دق . إلا عن حضرة الرحمن
حضرة الرحمن هي مجموعة المجالي التي يظهر فيها أثر الرحمة الإلهية .

٢٤ - التخلل : هو سريان الحق في صورة الموجودات جميعها . قال :

تخلل روعي حبه فهو شاهدي ومشهود روعي في جميع المشاهد

ويفسر الصوفية كلمة « خليلا » في قوله تعالى « واتخذ (١) الله إبراهيم

خليلا » بالتخلل وهو السريان

٢٥ - أسماء الذات : قال المتصوفة إن الكون هو الأسماء التي أطلقها الله على

نفسه . وغاية الخلق عنده أن يرى الله نفسه في صورة تتجلى فيها صفاته

وأسمائه . أو بعبارة أخرى يرى نفسه في مرآة العالم . وإلى هذا يشير محمد

البكري في قوله :

أَسْمَاءُ الذَّاتِ تَجَلَّتْ فِي سِتْرِ الْأَوْصَافِ وَذَا الْأَرْبِ
هَذِهِ أَهَمُّ الْمَصْطَلِحَاتِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي أوردَهَا مُحَمَّدُ الْبَكْرِيُّ فِي شَعْرِهِ . وَقَدْ
تَأَخَذَهَا كُلُّهَا مِنْ كِتَابِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَبِخَاصَّةِ فُصُوصِ الْحُكْمِ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

نَقَشْتُ فِي فُصُوصِنَا حُكْمَ الْوَصْفِ فَرَحْنَا نَحِيرُ فِي الْحُكْمِ

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَكْرِيَّينَ أَضَافُوا إِلَى جَانِبِ الْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِمَعْنَاهَا
الصُّوفِيَّةِ ؛ حَقِيقَةً أُخْرَى هِيَ الْحَقِيقَةُ الْبَكْرِيَّةُ . قَالَ مُحَمَّدُ الْبَكْرِيُّ :

وَأَعْلَنْتُ نُورِي فِي مَشَاهِدِ حَضْرَةِ ۱۱ جَمَالَ عَلَى أَعْلَامِ أَعْلَامِ مَلْتِي
وَقَدَسَتْ هَاتِيكَ الْمَنَازِلَ عَنْ سِوَى تَنْزَلُ عِرْفَانِي بِبَطْحَاءِ مَكَّةِ
وَمَنِيُّ بِصَدِّيقِ صَدِّيقِ مَطْهَرِ الْوَجُودِ وَمِرْآئِي وَعَيْنِ سِرِّي
وَمَا ثُمَّ إِلَّا أَنْ أَمْرِي أَمْرُهُ وَتَحْقِيقُهُ فِي نَظَرَةِ أَيْ نَظَرَةِ
وَلَوْلَايَ مَا وَئِي وَئِي وَوَلَايَةَ وَقَدْ وُلِّيتُ هَذَا اللَّوَا أَوْلِيَّتِي
فَقُلْ لِأَهْلِي الْحَقِّ قَالَةَ صَادِقِ تَأَلَّى عَلَيْهَا بِالْعَهْدِ الْوَثِيقَةِ
عَلَيْكُمْ بَبَابِ اللَّهِ بَابِ مُحَمَّدٍ فَلَوْ ذَوَا بِهِ قَبْلَ انْخِرَامِ الْمَنِيَّةِ
وَفُوزُوا بِتَقْبِيلِ الثَّرَى فِي رَحَابِهِ وَلَا تَنْشَوْنَا عَنْهُ بِصَارِفِ شَهْوَةِ

فَهُوَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يُشِيرُ إِلَى وَرَائِهِ لِلْحَقِيقَةِ الْبَكْرِيَّةِ ، فَأَمْرُهُ أَمْرُهَا .
وَلَوْلَا مَا ظَهَرَ الْأَوْلِيَاءِ . ثُمَّ نَاشِدُ أَتْبَاعِهِ وَمُرِيدِيهِ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَيْهِ وَيَلْتَفِعُوا
حَوْلَهُ ، وَيَلُودُوا بِبَابِهِ الَّذِي هُوَ بَابُ اللَّهِ حَتَّى يَفُوزُوا بِرِضَى اللَّهِ . وَقَدْ عَنَى
نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ « عَلَيْكُمْ بَبَابِ اللَّهِ بَابِ مُحَمَّدٍ » إِذْ أَنْ اسْمَهُ مُحَمَّدٌ . فَمِنْ لَازِمِ بَبَابِهِ
، وَقَبْلَ تَرَاهُ فَقَدْ ظَهَرَ بِالْحُسْنَى وَزِيَادَةِ ، وَأَصْبَحَ مَقْرَبًا مِنَ اللَّهِ . وَقَالَ :

أَمَّا بِالْصِّدْقِ وَالتَّصَدِّيقِ مَوَالِي حَضْرَةِ الصِّدِّيقِ
مَجَالِي طَلْعَةِ التَّحْقِيقِ وَأَهْلِ الْفَيْضِ وَالذِّكْرِ

وَفِي آلِ أَبِي بَكْرٍ يَقُولُ :

لهم نفحات هب نشر نسيمها
لهم ألسن عن ربهم بشئونه
لهم عزمات لو أشاروا ببعضها
لهم رحمت لو يقابل فيضها
لهم نظرات صاحبها عناية
مفاتيح أسرار القلوب وحضرة الـ
خلائف أقطاب ملوك أئمة
بنو الصديق والصديق أفضل سيد
محبهمو في ذمة الله آمن
فمن طيبها كل المعاهد عطروا
تحدث عنه منه فيه وتخير
ليذبل أو رضوى لهدوا و فطروا
ذنوب البرايا أصبحت وهي تغفر
بها الفقير يفنى مثلما الجبر يكسر
غيوب ومن أسرارهم ليس تحصر
ميامين من جدوا هم و فاض كوثر
ما آثره بعد النبيين تذكر
بعزمهم ويرعى ويحمى وينصر

هذه بعض خصائص العائلة البكرية. فهم أهل التقوى والورع ، وأهل العلم
الباطن . وهم أولو العزم والطول ، وأهل الرحمة الذين أودع الله فيهم أسرارهم ،
من أحبهم فقد نجا من الهلاك ، وأمن على نفسه من شرور الدنيا وعذاب
الآخرة .

وأبو بكر الصديق أفضل الوارثين للنبي صلى الله عليه وسلم . قال :
عليك صلاة الله ثم سلامه يدومان ما قلب لنحوك منبعث
وآل وأصحاب ولا سيما الذي هو الصادق الصديق أفضل من ورث
ويصف محمد البكرى نفسه بأنه يضيء العالم بخلافته ، ويعيث الملهوف ، ويحمى
الضعيف ، ويكشف الخطوب ، ويفرج الكروب . وباسمه يزول البؤس ،
والضر . قال :

وإني لقدس العالم الأحدي من
وإني إذا المضطر نادى أغثته
وأني أحمى من أشاء بإذنك الـ
وإني كشاف الخطوب وفارج الـ
وإني سبط المصطفى أحمد الذي
إضاءة بدرى بالخلافة لألاء
وتكشف عنه بالعناية حوباء
على وتأتيه بمنك سراء
كروب وباسمى زال بؤس وضراء
شريعته يمن ويسر وسحاء

وإني من أبناء صديقه الذي بأسراره سادت أصول وأبناء
ففخر الأتباعي وخدم حضرتي وبالله أوليهم جميع الذي شاءوا
نجد مثل هذا منبثاني ديوانه . فهو لم يترك الناس ليعتقدوا فيه ماشاءوا ،
وينسبوا إليه ما يحلو لهم من الكرامات والخوارق ، بل أخذ يدعو لنفسه ،
وينوه بفضائله وخصائصه ، وما حبي به من القدرة الفائقة على إغاثة الملهوف
وحماية الضعيف . ودعا أتباعه لأن يفخروا به ويتمسكوا بأهدابه . وقد وضع
لأتباعه ومريديه أناشيد خاصة يتغنون بها في حلقات الأذكار . وفيها تقديس
عظيم لآل الصديق . فمن ذلك قوله :

يا نفحة	نبويه	يا نفحة	بكريه
يا بهجة	أحديه	يا عزة	صمديه
يا حضرة	قدسيه	فيها الأمانى	للأريب

الغوث بالفرج القريب

يا آل صديق الحبيب

اصدق وصدق يا مريد واترك ممارسة العميد^(١)
واسلك على النهج السديد واتبع لنا الرأي الحميد
فأنا المخلص بالمزيد وأنا النجيب ابن النجيب

الغوث بالفرج القريب

يا آل صديق الحبيب

هكذا اتخذ محمد البكري شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق . وكان
هو كرئيس حزب ديني كبير يرغب في طبع أتباعه بطابع خاص حتى يمتازوا عن
غيرهم . وهذا الطابع هو تربيتهم على حب آل الصديق وتقديسهم ، والولاء لهم في
السر والعلن ، وإخلاص الاعتقاد فيهم . ولا يتيسر ذلك إلا إذا شغلهم بمثل

(١) العميد : السيد .

تلك الأناشيد ، يضعها في أسلوب سهل عذب ، له رنة موسيقية حلوة . وكان أتباعه يحفظون هذه الأناشيد ويتغنون بها ، وينقلونها من مكان إلى مكان فذاعت وانتشرت على كل لسان . وهو يذكر بعد النفحة النبوية النفحة البكرية . وهذا طبيعي لأنه يريد أن يصرف الناس عن حب آل علي ، ويجعلهم لا يؤمنون إلا بأبي بكر وآله . فالحقيقة البكرية التي هي هدفه الأول والأخير ، والتي اجتهد في الدعاية لها وحمل الناس على الإيمان بها ؛ ظاهرة ظهورا واضحا في هذا الشعر وتلك الأناشيد .

وكما أن محمد البكري تأثر بكتب ابن عربي وخاصة فصوص الحكم ، فإنه تأثر كذلك بابن الفارض . فنظم في الحب الإلهي والخمرة الإلهية شعرا كثيرا نسج فيه على منوال ابن الفارض ؛ وأضاف إلى جانب الخمرة الإلهية خمرة أخرى هي الخمرة البكرية . قال :

وإذا أدبرت خمرة بكريّة أذنّ وقل لا ماش من لا يستقي
وإلى جانب الحب الإلهي حب آل الصديق .

ونجد في هذا الشعر غزلا بالأماكن الحجازية وتشوقا إليها مثل : سلع ، ورامّة ، والوعساء ، وطاجر وغيرها . وهو لا يقصد بها ظاهرها ، وإنما يكنى بها عن الحقيقة الحمديّة . كما يذكر الكتيب ويكنى به عن المقامات الحمديّة التي تشبه رمال الكتيب في عدم القدرة على حصرها . ومثال ذلك قوله :

ذكر العذيب ورامّة فتشوقا يبكي حذارا أف يقال تعوقا
لا والذي خلق النوى وقضى به لست المخلف عن أثيلات النقا

والنقا : كناية^(١) عن المقام الحمدي الذي انتقاه الله واختاره

ونجد كذلك غزلا ببعض النساء كسعاد وزينب ومي والرباب وغيرهن . وهو حين يذكر هذه الأسماء يكنى بها عن الحضرة الوجودية المحتجبة بصور

(١) اطر سرح ديوان ابن الفارض لعبد الغني النابلسي ، وتعريفات الجرجاني

الأكوان العدمية . مثال ذلك قوله :

أدعو سعادا ثم أدعو زينبا ها قد عشقت فقيدي أو أطلق
ويذكر الحمى ويكنى به عن الروح الأعظم أو الذات الإلهية . قال :
جدد بذكر الحمى عهدى وأشواقى واهتف بمن حبهم عهدى وميثاقى
والربوع كناية عن مقامات العارفين ومنازلهم ، وما يجدون فيها من الحقائق
والعلوم . قال :

درت بين الربوع أسأل عنهم أين حلوا وجدتهم فى فؤادى
ويذكر حادى الأظعان ، فيريد بالحادى : الله ، والأظعان : الناس .
قال :

ويا حادى الأظعان رُوح بذكرهم فؤادى وقل عن ظبي رامة منشدى
والأقمار كناية عن العارفين بالله . قال :

ما رأينا الأقمار تهتز بالتيب — دلالة وتنثني كالغصون
ويكنى بالخمير عن شراب المحبة الإلهية . قال :

فهاها خمرة لو أنها ذكرت عند اللسيح لأغنته عن الراق
وقد سبق ابن الفارض إلى هذا المعنى فقال :

ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها وفى الركب ملسوع لما ضره السم
ويكنى بالخان عن حضرات الذات العلية . قال :

فسر معى نحو حانات تُزف بها عروسها سير مشغوف ومشتاق

وقد أتى فى شعره بكثير من معانى ابن الفارض . مثال ذلك قوله :

أنا يعقوب هواها فارحموا من تفانى فى الجمال اليوسفى

وهو شبيه بقول ابن الفارض :

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحه فى وجهه نسى الجمال اليوسفى

وقوله :

أو بانيتها دعى الأموات لابتدروا من فورهم يحسبون الحشر للباقي

مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وقوله :

أو أنها جلّيت والليل معتكر لأشرق الليل منها أى إشراق

مأخوذ من قول ابن الفارض :

ولو خضبت من كأسها كف لأمس لما ضل في ليل وفي يده النجم

وكذلك تحدث عن الوتر والعود ، والسماع والغناء ، والشطح والرقص

وغير ذلك مما عرف به الصوفية ، فمن هذا قوله :

لم تسمع الأذن أنباء من الوتر وإنما الوتر أهدى طيب الخبر

والعود إن رن أن الصب فابتدرت دموعه فحكت صوباً من المطر

ما ذاك من طرب باللهو بل طرب بحكمة أشهدتها العين بالأثر

ونجد أمثال هذا كثيراً في شعره .

وقد سبق أن ذكرنا أنه أضاف إلى جانب الحب الإلهي حب آل الصديق ،

والتفانى في الإقبال عليهم والإخلاص لهم . وكان يعتبر نفسه صديق زمانه ،

الوارث للحقيقة البكرية . وشعره في هذا يشبه شعره في الحب الإلهي .

انظر إلى قوله :

لا تشتغل عن شهودى إياك إياك واحذر

فكل شىء مليح منه جمالى أكبر

البدر أشرق منى وحاجب الشمس أسفر

وناسم من حديثي كل الأماجد أسكر
 والله والله لولا جمال ذاتي كستر
 لأحرقت نيرانى أهل الوجود للعمير
 ولم يكن قط عبد لحسن وجهي أبصر
 هل ظن غيري مولى من الأئمة يُذكر؟
 فمن يؤمل جودي بغاية السؤل يظفر
 ومن يخالف أمرى فى حضرة المقت يقبر
 أحمى الذمار وإنى ليث الزمان الغضنفر
 سبب الحبيب ونجل الصديق أكرم معشر
 قد فاز قومي وصحبي بذاك حالى بشر

. فهو يدعو الناس إلى ترك كل ما يشغلهم عن شهوده ، ويحذرهم من
 إلا انصراف عنه ، ويقول إن جماله يفوق كل جمال ، وأن البدر والشمس
 طلعا منه . وحديثه مسكر ، ولولا جمال ذاته لأحرقت نيرانه الدنيا وما فيها .
 والأئمة كاهم لا يذكرون إلى جانبه ، ولا ينبغي لأحد أن يذكرهم . ومن
 أمل جوده ظفر بمطلوبه . ومن خالفه ولم يؤمن به أصابه غضب الله ، وحقت
 عليه اللعنة : وهو حامى الناس من البلاء . وقومه وأصحابه ومحبوهم
 الفائزون . وقال :

ألد من رشف زلال الضرب ومن مدام توجت بالحبيب
 وضرب قينات بأعوادها تهيم القلب بحسن الطرب
 ومن سرير الملك رقيته يُبلغ العبد رفيع الرتب
 ألد من ذلك ومن ذا وذا حب بنى الصديق نخر العرب
 ججاج الجسد وملاكه مظاهر السر محل العجب^(١)

(١) ججاج : سادة ، مفردا ججاج .

في كل عصر منهمو سيد مؤيد بالحق ما حي السريب
ما أمته في الكرب من أمته إلا وزالت عنه كل الكرب
فاقصده حمائم خاضعاً سائلاً رضاهم فهو أجل القرب
وإن يضق أمر فقل سادتي هذا بنى الصديق وقت الحسب^(١)

لا نجد شاعراً من ذرية أبي بكر - قبل مجل البكري - نظم مثل هذا
الشعر ، ولا اتخذ شعره وسيلة للدعاية إلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة
البكرية . فهو من هذه الناحية يعتبر مجدداً في الشعر المصري أي أنه أضاف
إلى أغراضه المعروفة في عصره غرضاً جديداً هو الحب البكري .

وقد اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه ، والمتصل
بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالاً عظيماً للفخر . فنظم في هذا الصدد
قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضي في الفخر . ولا غرابة في
ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضي . فمن ذلك قوله :

أنا ابن أبي بكر الملتجئ وسبط كرام بهم أمدح
بنى حسن سبط طه البشير ومن نوره الزاهر الأوضح
به شرف البيت والركن وال عظيم وزمزم والأبطح
إذا وزن الناس طراً به فكفة ميزانه أرجح
فتحت كنوز الهدى للعفاة فأعطيهمو خير ما يمنح
ولست براض وحاشاي أن يخيب مریدی فلا ينجح
أسر إذا أمني سائل فإني بإسعافه أفرح
ولي همة فوق فرق الأثير ونفس لما فوقه تطمح
بجد لساني ذبحت العداة فله سيف به أذبح

(١) المعنى : إذا وقعت في شدة فقل يا بنى الصديق ساعدوني وأعينوني فإني محسوب
عليكم ؛ وهذا وقت المساعدة .

وَيُذَكِّرُنِي الْحِلْمَ خُلِّقِي الْكَرِيمُ فَأَعْفُو وَمِثْلِي مَنْ يَسْمَحُ
وَرِثْتُ النَّبِيَّ فَمِنْ رُبَاهُ مَقِيلُ الْخِلَافَةِ وَالْمَسْرَحُ
وَقْتُ بَأَعْتَابِ عِرْفَانِهِ مَقِيمًا هُنَاكَ فَلَا أُبْرَحُ

فهو هنا يفخر بنسبته إلى أبي بكر وإلى النبي صلى الله عليه وسلم .
ويقول إنه يهدي الناس إلى الحق ، وأن قاصده لا يخيب . فهو كريم يفرح
بقدوم السائلين عليه . وبعد أن قدم الفخر بحسبه ونسبه وكرمه ، أخذ
يفخر بفصاحته وقوة بيانه التي أهلك بها أعداءه . ثم فخر بحلمه وعفوه .
وانتهى من ذلك إلى أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية . والبكريون
يعتقدون أن النبي حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه
بالخلافة . وعلى ذلك فمحمد البكري هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية في
عصره . فهو في نخره بحسبه ونسبه ، وكرمه ، وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ،
وفصاحة لسانه وقوة بيانه ووراثته للنبي عليه السلام يشبه تمامًا الشريف
الرضي من حيث المعاني والأساليب .

ومما روى عنه قوله « جدتي لوالدتي من بنى مخزوم ، فولدني في قريش
ثلاثة بيوت : بنو تميم ، وبنو مخزوم ، وبنو هاشم » وقد ردد هذا في
شعره فقال :

أنا ذو المجد أثيلا وابن فياض الهبات
من بنى تيم قريش صفوة العرب السراة
وذؤابات بنى ها شم الغرّ الحماة
وزمامات بنى مخزو م الصيد الكفاة
نحن بالصديق فزنا بالأمانى العاليات
فلمن يهوى هوانا كل أنواع الهبات

وكما أن الشريف الرضى يقرن الفخر بالحماسة ، فكذلك فعل محمد البكرى في أسلوب قوى رائع لا يكاد يختلف عن أسلوب الرضى من حيث جودة الصياغة وفخامة الألفاظ ، فضلا عن الصور والمعاني . ومثال ذلك قوله :

وسرتُ وثغر النصر يبسم سابحا	لهامابه وسع النَّفْ نَفٍ طافح ^(١)
كأنَّ مَجْرَّ الجيش بالقوم زاخر	خضم وفلاك الخيل فيه سواج
كأنَّ مَشَارِ النَّقْمِ أهدى لنا شذا	من المسك تذريره علينا اللواقح ^(٢)
كأنَّ مدار الحرب حانٌ وخيلنا	نشاوى نجيع أرسلته الجوائح ^(٣)
كأنَّ أعادينا ولا بلغوا المنى	أكفُّ لأسياف المنايا تصافح
ونحن ملوك الحرب والصيْدُ صيدنا	وليس لنا إلا الأسود جوارح
وفتياننا شمَّ العرَّانين عزة	وكيف وإنما في السراة ججاجح ^(٤)
ومقعدنا فوق الثريا جلالة	وأبصارنا من فوق ذاك طوامح
ومجد معالينا تعالى مقامه	فإن سيم مدحا لم تنله القرائح
فإن كان فخر الأكرمين صحائفنا	فإننا لآيات الكتاب فوائح

وإذا كان محمد البكرى صادقا في فخره بحسبه ونسبه ، فإنه لم يصدق في هذا الشعر الحماسى الذى يصور نفسه فيه في صورة البطل المقدم الذى تهاب لقاءه الشجعان . وذلك لأن واقع حياته لا يدل على ذلك ، فلم يكن من رجال الحرب ولم يذكر عنه أنه قاد جيشا أو اشترك في معركة . وإنما كان يحيا حياة دعة وسلام ، ويعيش في ترف ونعيم ، مشتغلا بعلوم الدين والتصوف ونظم القصائد . ومثل هذا يقال في الحماسة عند الشريف الرضى .

وقد صبغ فخره بصبغة تصوفية . مثال ذلك قوله :

فإن أى أفق تشرقين بهذه الـ معارف إشراقا على غيره سما

(١) اللهم : السكثيف والضمخ . الفائف ، جم نفف ، أى الصحراء المتسعة .
 (٢) اللواقح . الحملة بالأمطار .
 (٣) النجيع . الدم السائل .
 (٤) شم . جم أشم وهو المرتفع . العرَّانين : الأنوف (٤) ججاجح : جمع ججاج وهو السيد

فقالت بأفق العبد صديق وقته ومن ملأ الأدوار جودا وأنما
إمام بنى الصديق في الوقت مطلقا ومن أتقن الأسرار علما وأحكما
ومن جاء في العصر الأخير لتنتهى به رتب التدوير كيسا وتختما

فهو منبع الأسرار الإلهية ومشرق المعارف الربانية . وهو صديق وقته
هو إمام عصره . والأدوار جمع دور ، أى الوقت الذى يقوم فيه الإمام ، وهو
صاحب الدور . ويقول محمد البكرى إن الأدوار انتهت به وختمت بظهوره .

* * *

ويدخل في باب التصوف ما نظمه الشاعر في الوعظ والإرشاد وآداب المريـد
كما يراها ، مثال ذلك قوله :

مدارُ أحوالنا في كلِّ مرتبة حفظُ الحدود وتتركُ الحظ والأرب
وأن يكون الذى يهوى مشاهدنا مجانبا لسبيل اللهو واللعب
وأن يقوم إذا ما الليل تم له نصف لمولاه بالإخلاص فى الطلب
يتن شوقا إلى المحبوب تحسبُه تكسى آثار شجاها نوح منتحب
مفرغ القلب من غير الحبيب له فى بابه ذل مسكين ومكتب
والصوم يكثر منه حيث قدره رب العباد ليلقى غاية الأرب
والصدق يجعله زادا لرحلته والذكر أعظم ما يختار من سبب
يطهر السر يجلو القلب يمنحه من المعارف سرا باهر العجب
وينزل الفيض من غيث الغيوب بما يختاره الله من كشف بلا ريب
والله نسأله عوناً لطالبنا على أوامره فى سائر الرتب

هذه هى الآداب التى وضعها محمد البكرى لأتباعه ومريديه . المحافظة على
أحكام الدين وفرائضه ، وترك اللهو واللعب ، والإعراض عن الشهوات . ثم
القيام فى منتصف الليل للعبادة والذكر والتواجد ، والاتجاه إلى الله بكل ما
يملك الإنسان من جوارح مع إظهار الذل والمسكنة ، ثم الإكثار من الصوم

الذى يظهر النفس ، والتزام الصدق . وبهذه الأمور تستقيم حال المرید . وقد صاغ كل هذا في شعر سلس عذب .

ومحمد البكرى يدعو في كثير من شعره إلى التمسك بالفضائل والاعتصام بأحكام الدين ، وترك الدخيل والشعوذة ، وإخلاص العبادة لله . وهذه دعاية نافعة جداً لأن عصره زخر بالمشعوذين والنصابين الذين كانوا يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل ، ومدعى الولاية الكاذبة الذين أسقطوا عن أنفسهم الحدود فتركوا فرائض الدين وانغمسوا في الشهوات إلى الأذقان :

ويدخل في باب التصوف كذلك ما نظمه في التوسل والاستغاثة بالله وبالرسول ، وما نظمه في المديح النبوى . فمن قوله متوسلاً ومستغيثاً :

إلهى إلهى أغث سائلاً فقيراً ذليلاً كثير التعب
إلهى إلهى ضاقت عليه الأمور ففرجْ بجزوك كل الكرب
إلهى إلهى هذا مقام الحقيير وعندك ما يبتغى من طلب
إلهى إلهى حاشا ترد الكسير وفيما لديك تنهى الرغب

فهذه أدعية وضعت للأتباع والمريدين لينشدوها في أوقات تعبدتهم . فهي أدعية شعرية تؤدي وظائف الأدعية الثرية التي كان يضعها أقطاب المتصوفة .

ونظم بعض القصائد التي تؤدي وظائف الأحزاب والأوراد . من ذلك قوله :

أعوذ بالله الصمد من كل همّ ونكد
أعوذ بالله الأحد من كل ضيق وشر
الح .

بدأ بالاستعاذة بالله من الهم والحزن والضيق . ثم أخذ يستغفر الله ويدعوه أن يحفظه من كل سوء ويجنبه كل مكروه ، ويصرف عنه الكيد والحسد . ثم أكثر من الصلاة على النبي ، وتوسل إلى الله أن يمتعه بالعيش الرغيد والحياة السعيدة .

وله سدأخ نبوية قصيرة لم يتعرض فيها لذكر شيء من المعجزات ، وإنما هي تصوير للحقيقة المحمدية التي أودع الله فيها أسرارها . ثم يخلص من ذلك إلى ذكر ذنوبه الكثيرة ، ويظهر الندم والتوبة ، ويعرب عن أمله في شفاعته الرسول . ويختتمها بالتوسل والدعاء .

وله جملة قصائد في مدح أحمد البدوي تظهر فيها آراء الصوفية في الأولياء . فمن ذلك قوله :

لله جلّ جلاله بالحق أشهد أن الإله جماله للقوم أشهد
وأنا لهم رتب السيادة والعلا لا سيما بدويهم ذو المجد أحمد
سر الحقيقة والخلقة والذي مصباحه من نور خالقه تو قد
من ذاته القدس العلي ومن له الـ كشف الجلي ومن له التصريف يسند
هذا الكمي فلا يطاق نزاله يوم الوغى ، هذا المنقف والمهند .

فألبدوي كما صوره محمد البكري تمتع بوحدة الشهود ، وفنى مع الذات الإلهية فنال أسنى المراتب . وهو سر الله ، أودع فيه العلم الباطن ، وأجرى على يديه الكرامات وخوارق العادات ، والبدوي بطل مقدام وشجاع تضرب به الأمثال . ثم استطرده فذكر بعض الكرامات التي تنسب للبدوي .

وكان محمد البكري شافعي المذهب . وله بضعة مقطوعات في مدح الإمام الشافعي وتحييد زيارة ضريحه على سبيل التبرك . ولكن شعره في الشافعي لا يكاد يذكر إلى جانب ما نظمه في أحمد البدوي . ولعل السر في ذلك أن الشافعي لم تروله كرامات ، ولم تنسب إليه الخوارق التي رويت لأحمد البدوي . ونسبت إليه . انظر إلى قوله في مدح الإمام الشافعي :

هو البحر لنكن فاض كوثر به على البرّ حتى ما هناك مقايس .
هو البدر بل شمس الظهيرة أشرقت فلم يبق ما بين البرايا حنادس .
أبي الله إلا أن يسود ويعتلى فليس له في المنقبات مجانس .

فهذا من المدح الذي يقال في أي إنسان . وأين هذا من قوله في البدوي
سر الحقيقة والخلقة والذي مصباحه من نور خالقه تو قد
لم يحاول البكري في مقطوعاته التي نظمها في الشافعي أن ينوه بمكانة هذا
الإمام كواضع لأحد المذاهب الأربعة ، وكشرع له قيمته وخطره ، لأن
للتصوفة لا يهتمون بعلم الظاهر ، وإنما يهتمون بعلم الباطن ، ولا يقدر
قيمة التشريع ، وإنما يقدرون قيمة الكرامات .

* * *

وكان له بعض حساد يطعنون فيه وينالون منه ، وينكرون عليه عيشة
الترف التي كان يعيشها . وقد شكوا من هؤلاء الحساد وتوعدهم بالويل والثبور
وعظائم الأمور . فمن ذلك قوله :

يا نفوسا تود يوما تراني نازحا عن منزلي ومكاني
مُدْرَجًا بعد عزتي وبهائي وجميع البرود في أكفائي
إن تموتوا غيظا فموتوا سريعا حسبي الله فيكمو وكفائي
احسدوا ما استطعتم رشقتكم بنبال الوبال قوس الزمان
هذه لحيتي وضعت عليها يد موف لها بحق الضمان
عن قريب يدعى بياغارة الله فتغدو بهلككم شجعاني

ففي هذه الأبيات صور محمد البكري ما انطوت عليه نفوس حاسديه من
حقد ونقمة بلغت بهم أن تمنوا له الموت . ثم قال لهم : افعلوا ما شئتم ، واحسدوا
كيفما أردتم فلن يفيدكم هذا ، بل ستموتون بغیظكم . ثم أمسك لحيته مهددا
متموعدا بحرب يشنها عليهم يكون فيها هلاكهم .

* * *

وله شعر قليل عرض فيه بعلماء عصره ، فمن ذلك قوله :
أغفل الناس علوما قدّست أحكمت عزتها أيدي الحكم

يا زمانا ضيعوه باطلا في رسوم ما بها الحق رسم
خلطوا الحق بهزل منهمو فلماذا ما استقاموا في أمم
يطلبون العلم للدنيا فهل بعدها الوصف في الأوصاف ذم ؟
شغلهم قالوا وقلنا ولهم صبوة في «صح» أم فيه «سلم»

ففي هذه الأبيات ينمى على معاصريه اشتغالهم بالعلوم الدنيوية ،
وإنفاقهم أعمارهم في استظهار مختلف الآراء في النحو والفقه وغيرها .
ويعيب عليهم أنهم يطلبون العلم لينتفعوا به في الدنيا ، وينصحهم بترك هذه
العلوم التي لا فائدة فيها والإقبال على علوم المتصوفة لأنها هي التي تقربهم من
الذات الإلهية .

ولمحمد البكرى مقطوعات قليلة في أغراض مختلفة ، بعضها في الألغاز ،
وبعضها في الإخوانيات ، وبعضها في وصف الرياض ، وأخرى في الدعوة إلى
شراب القهوة . وكلها من الشعر الجيد الذي يجري فيه على سجيته .

* * *

ولا شك في أن محمد البكرى يعتبر أعظم شاعر مصرى ظهر في القرن
العاشر . فله نتاج أدبي امتاز بالجزارة والجودة . انظر إلى قوله :

هل المجد إلا عزيمة قرشية تَطَامَن رَضْوَى دونها وئبيرُ ؟
وصولة فتاك عزيز تطاولت له رتبٌ عنها السماك قصيرُ
إذا استل ما بين البواسل سيفه ترى الهام فوق الهام منه تطير
حليف المعالي رُبها وإمامُها خليق بها والمدعون كثير

قد يقال إنه لم يأت بمعنى جديد في مثل هذا الفخر ، ولكن من
ادعى أن الشعراء كلهم كانوا مجددين مبتكرين في كل ما أتوا به من المعاني ؟
حسبه أنه تمثل هذه المعاني وصاغها في عبارات قوية جميلة وتراكيب عربية
مبينة تعيد إلى أذهاننا شعر القرن الرابع .

وانظر إلى قوله :

كيف النفور من الصور؟ والحق فيها قد ظهر
حقاً ولو حققته لم تلق فيه من أثر
فاقرأ معي كتب الهوى واخفظ معي هذى السور
كى لا تخف قول الفقيه ولا يدانيك الخذر
ما كتم غيرى والفقيه هـ وَجُودَهُ بَعْضُ السُّتْرِ
إن شئت صيرت الفقيه هـ مُعْرَبِدًا بَيْنَ الْبَشْرِ
سيكران لا يدري بمن عنه تَغْيِيبَ أَوْ حَضْر
حيران ولهاناً ولا فِكْرٌ لَدَيْهِ وَلَا نَظْر
نسى الحرام مع الحلال ل ومن تحجب أو نظر

هذا من غير شك شعر لطيف يفيض رقة وعذوبة ، ويدل على روح
سافية ، وموهبة سامية . ولن تجد فيه أثراً للتكلف ولا إسفافاً ولا ابتدالاً .
يلبس فيه سخرية لطيفة بالفقهاء . وانظر إلى قوله :

إن منشىء الصور قد حباك يا قرى
بالعيون زينها بالسواد والخور
والجبين جملة بالضياء والطرر
بالذى اصطفاك بما حزته على البشر
صل فتى لواحظه قد بكتك بالمطر
فى هواك طاب له ما براه من سهر

والقصيدة كلها على هذا النحو الموسيقى الجميل . وله قصائد كثيرة
تجربى هذا المجرى ، فهى من الشعر الغنائى الذى تتقبله النفس قبولاً حسناً ،
وتطرب لسماعه الأذان . وهو كلف باختيار البحور القصيرة لمثل هذا الغزل

الرقيق . وأحياناً يمزج الغزل بالحماسة ويستخدم أسلوب الحوار . وألفاظه كلها سهلة لا يحتاج في فهم معانيها إلى الرجوع إلى كتب اللغة ما عدا القليل . وله موشحات في التصوف والحب الإلهي . وله مزدوجات في الغرضين المتقدمين . وله قصائد لم يلتزم فيها نظام القافية الواحدة .

ولم يكن محل البكري في شعره متكافئاً وإنما كان شاعراً مطبوعاً ، ذا موهبة ممتازة ، وصاحب أفكار معينة يدعو لها بين الناس . وهو شاعر يزخر شعره بالعواطف الدينية الحارة ، وأعنى بها عاطفة الحب الإلهي وعاطفة الحب البكري . وهو صاحب ذوق بياني وملكة فنية تظهر في جودة أساليبه ، وحسن صياغته للعبارات واختياره للألفاظ والبحور الموسيقية . فلا شك أن عناصر الشاعر الممتاز قد توفرت عنده .

وإذا كانت آراؤه في التصوف قد سبق إليها فيكفيه أنه صاغ هذه الآراء في أساليب جديدة ، وقربها من الأذهان ، وأذاعها بين الناس في قصائد وموشحات ومزدوجات لا غموض فيها ولا تعقيد ، بل من السهل علينا أن نفهمها فهماً جيداً . وكذلك أذاع التعاليم والآراء التي تتعلق بأبي بكر والحقيقة البكرية . وهو كشاعر يعتبر بحق مؤسس المدرسة البكرية التي امتدت من ذلك الوقت حتى العصر الحديث .

* * *

وأما أثر البيئة المصرية في شعره فيتجلى في رفضه للآراء المتطرفة كالقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وذلك لأن البيئة المصرية تكبره التطرف .

ومن أثر البيئة المصرية في شعره استخدامه لبعض الكلمات والعبارات التي تجري على ألسنة العامة في مصر . مثال ذلك قوله :

دنا بحبك متم ما على من حد

فكلمة « دنا » عامية . وكذلك عبارة « ماعلى من حد » مصرية عامية .

وقوله :

ما السبب ما السبب حتى تجنيت وأسيت
فعبارة « ما السبب ما السبب ؟ » مصرية عامية . ولفظة « أسيت » مما
يدور على السنة العامة ، وهى بالفصحى : قسوت . وتكثر مثل هذه الألفاظ
فى موشحاته .

الآن قد فرغنا من دراستنا لمحمد البكرى . وبهذا ننتقل بالمدرسة
البكرية إلى القرن الحادى عشر .

توفى محمد البكرى سنة ٩٩٤ وترك أبناءهم :

- ١ - أبو السرور المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ .
- ٢ - زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ .
- ٣ - أبو المواهب المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ .

فأبو السرور توفى سنة ١٠٠٧ هـ وفيه يقول صاحب^(١) خلاصة الأثر
« وكان له الذوق الصحيح فى معارف الصوفية والبلاغة الكاملة فى التقرير .
وكان له اتساع فى الدنيا ومخالطة الحكماء ، ومداخلة فى أمور كثيرة . ودرّس
بالخشابية . وكان ينظم الشعر ، وشعره لطيف » ولكننا لم نعثر على
شئ مما نظم .

وزين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣ هـ وفيه يقول^(٢) صاحب خلاصة الأثر
« قام مقام أبيه من بعده ، ودرّس وأفتى . وكان فى مصر مالك أزمّة الوجاهة ،
وسالك رتبة اليراعة والبراعة . وكان أخوه أبو السرور المقدم ذكره من العلماء

إلا أنه لم يبلغ درجة زين العابدين في التصوف والتكلم بلسان المعرفة . وكان عالما بارعا في العربية والتفسير وعلوم البلاغة . وله شعر لطيف سائغ «

« وبلغ صاحب الترجمة في آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشيه حكام مصر وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه . فلما كان ثالث شهر ربيع الأول سنة ١٠١٣ طلع إلى إبراهيم باشا بعد العصر على عادته . فأحضر السباط ثم القهوة . فلما أكلوا وشربوا خر زين العابدين مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته فمات . هذا هو المستفيض على السنة المؤرخين . وروى بعضهم أن موته كان خنقا أو غيره . وأنه طرح على باب قلعة الجبل . واشتهر ذلك في دمشق فبنى عبد الحق بن محمد الحجازي الدمشقي قوله في رثائه عليه . وأبياته هي هذه :

لم يهدموا أركان مصر وإنما هدموا بقتلك قبة الإسلام
وتناوشتك يد الكلاب وطالما خضعت لعزك صولة الضرغام
فستى تراك سحابة قدسية تهيمى عليك برحمة وسلام

ولم يبق إبراهيم باشا بعده إلا أياما قليلة حتى وقع بينه وبين عساكر مصر فقتلوه وحملوا رأسه على رمح وطوفوا به مصر . وعوقب بذلك على الجراءة على قتله صاحب الترجمة « وله شعر في التصوف والحب الإلهي . ومن قوله في القهوة :

إن تشرب القوة في حانها فاللطف قد حف بندمانها
حان حكي الجنة في بسطها برقة العيش وإخوانها
بمانها نغسل أكدارنا ونحرق الهم بنيرانها
لاهم يبقى ولاغم إذ قابلك الساقى بفنجانها
يقول من أبصر كانونها أف على الحمر وأدنانها
شراب أهل الله فيها الشفا جواب من يسأل عن شانها

كان المتصوفة في ذلك الوقت ينظمون الشعر في الدعاية لشراب القهوة
(م ٨ الأدب المصري)

معارضة لبعض الفقهاء الذين قالوا بتحريمها . وكان البكريون يقدمون في سهراتهم هذا الشراب لضيوفهم . فأخذ الشعراء والأدباء يتنافسون في نظم أمثال هذه المقطوعة ويتسابقون في ابتكار المعاني اللطيفة والصور الجميلة ويبدو أن الصوفية وجدوا في القهوة شرابا ماديا محسوسا يقابل الخمرة الإلهية التي هي من الأمور المعنوية . ولاشك في أن إفراطهم في الحديث عن الخمرة الإلهية والساقى والحان قد ترك عندهم فراغا نفسيا هائلا ، فرأوا أن يسدوا هذا الفراغ بالإقبال على شرب القهوة في الطقوس التي تتخذ لشرب الخمر ، وقلدوا شعراء الخمر في وصفهم لها وتغنيهم بحساسنها ومزاياها ، وما تركه في نفوس شاربها من إبعاد الهموم والأحزان . كما ذكروا الحان والساقى والندمان ، واستعاضوا عن الكأس بالفنجان . أضف إلى ما تقدم إطلاقهم كلمة «القهوة» على هذا الشراب وهي من أسماء الخمر ، فكانوا يقولون «قهوة البن» ومعناها خمرة البن . ويتخذونها أحيانا من قشر البن ، وأحيانا من لبه وبمرور الزمن أصبحت كلمة « قهوة » تدل على هذا الشراب المكون من الماء المغلى والبن ، ونسى المعنى الأصلي للكلمة . ولم يفت زين العابدين أن يحدثنا عن الكانون الذي تصنع عليه القهوة ، فيقول إنها وهي فوق الكانون تذبذب منها رائحة طيبة تجعل الخمرة بجانبها شيئا محققا تعافه النفس .

وأبو المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ ، ذكره صاحب خلاصة الأثر^(١) فقال : « كان في بداية أمره مائلا إلى الخلاعة ، وكانت مجالسه مشحونة بأنواع الطرب من المسمِّعين وصنوف الملاحى » إلا أنه اضطر إلى ترك هذا بعد وفاة أخويه وتصدره لمشيخة السجادة البكرية . وكان بينه وبين الدين الحلبي ، الأديب المؤرخ صاحب السيرة الحلبية ، مودة

أكيدة ، وهو الذي شجعه على تأليف هذه السيرة « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » وقد أشار إلى ذلك في المقدمة^(١) فقال « ... ولا زلت في ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكوني لست من أهل هذا الشأن ، ولا ممن يسابق في ميدانه على خيل الرهان ، حتى أشار على بذلك وبسنوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع ، ومخالفة أمره لا تستطاع ، ذو البديهة المطاوعة ، والفضائل البارعة ، والنوازل الكثيرة النافعة . من إذ سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف ، لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صواب ولا يتعسف . وهو الأستاذ الأعظم مولانا أبو عبد الله وأبو المواهب مجمل ، فخر الإسلام البكرى الصديقى » .

ولأبي المواهب ديوان اسمه « ترجمان العوارف » منه شريط بمكتبة الجامعة العربية تحت رقم ٨٣٢ - أدب ، منقول عن نسخة خطية بمكتبة جامعة استنبول . ومعظم شعره فى التصوف والحب الإلهى ، والدعاية للتعالم البكرىة . وله مقطوعات فى وصف القهوة والتغزل فيها ، وفى الدعوة إلى تعاطى التبغ . فمن ذلك قوله :

يا يوم بولاق وأنسى به حكاك من شوال يوم الهلال
وأقبل النيل جنوبا وما من عارض إلا نسيم الشمال
يا عارضا أوجب للنيل ما سلسله وهو طليق المجال
وقهوة تنضح مسكولا بدع فى الفنجان شكل الغزال
حبابها من فوفها مانع نفاه فهو شباك الآلى
تديرها هيفاء مشوقة خود تثنت فى برود الدلال
كاد حجبى من أقبات نحوه يذهب من رنات تلك الحجال
تقول للشمس وقد أقبلت تلسمى ما أنت إلا خيالى
قال الشهاب الخفاجى^(١) « وبيت الغزال من السحر الحلال ، وهو بيت

الفصيد » وكان الفنجان يحمل صورة غزال

(١) ص ٣ طبع مصطفى الحابى بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ

(٢) ریحانة الألبا ص ٣١٦ .

تقدم أن أبا المواهب كان في شبابه يميل إلى اللهو والخلاعة . يخرج مع أصدقائه من الأدباء والشعراء إلى الحدائق والمزارع للتمتع بالهواء الطلق . وللناظر الطبيعية الجميلة . وكان حتى بولاق في ذلك الوقت كما كان منذ عصر للمالِك من الأمكنة التي تقصد للتريض واللهو . ففي الأبيات السالفة يذكر أبو المواهب يوما من تلك الأيام الطيبة التي قضاها على شاطئ النيل بناحية بولاق . وإذا كان الشعراء فيما مضى ذكروا الخمر في هذه المناسبات - أعنى مناسبات اللهو والرياضة - فإن بعض شعراء هذا العصر ذكروا القهوة ووصفوها ، وهي في الفناجين تنبعت منها رائحة جميلة يعلوها حباب لطيف . ثم أخذ أبو المواهب يتغزل في الساقية التي قدمت له ولأصحابه شراب القهوة

وكان للبكرين حدائق ومزارع يخرجون كثيرا للتريض فيها . ولذلك غلب في بيتهم هذا النوع من الشعر الذي يصفون فيه أوقات اللهو والسرور ، حيث الرياض النضرة ذات الأشجار الباسقة ، والجداول الرائقة ، والفواكه المختلفة . ولأبي المواهب رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من الأدباء يدعوه للرياضة معه جاء فيها « إن ^(١) مدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومدار فللك السرور بفلك الحبور . طفحت بالنيل لاجزر عن جزره للمديد ، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » وقد أفسد أسلوبها بما استخدم فيها من ضروب الصناعة اللفظية .

ومن قوله وربما كان في مدح والده :

أيها البكري يا من فضله فاق كل الناس عجبها وعرب
لي جند ياسيدي يا مصطفي يا إماما قد حوى كل الرتب
لا رعى الرحمن من عاداكو فهو في همٍّ وغمٍّ ونصب
وعليه الخزي في طول الحيا ثم عند الموت يلتقى للتعاب

(١) الريحانة ص ٣١٦ .

باء بالرفض إليكم مبغض وعليه من إلهنا الغضب
في هذه الأبيات نجد التعاليم البكرية واضحة كل الوضوح . فشيخ
السجادة البكرية هو الإمام المصطفى الذي اختاره الله وخصه بكل منقبة
وفضيلة . ومن عاداه فهو رافضى استحق غضب الله في الدنيا والآخرة ولتى
الذل والتعب في حياته وبعد مماته .

ومن قوله ولعلها في مدح والده أيضا :

ألا أيها البكرى إنك مفردٌ وفوقك أعلام المسرة تُفرد
وذكرك بالمعروف شاع بلاخنا ومدحك في الأعناق در مُنضدٌ
وكل امرئ عاداك أو قصد الأذى عليه من الرحمن خزي مؤبدٌ
ومن صدني عن مدح ذاتك سيدي فذاك أبو جهل وأنت محمد

فانظر إلى البيت الأخير وما فيه من قوة . فالمنكر لمدح والده كافر
يشبه أبا جهل في كفره وجحوده . وقد شبه والده بالنبى محمد ﷺ . وله
في مدح والده أيضا :

لدار محمد البكرى زوروا وخلصوا عنكمو ذكر السواء
محمد عقد عين الدين حقا فمن عاداه في شكل الهواء
وقال :

عصابة الصديق قالوا محمد لا يضاهى
له الخليفة حقا رب العباد قضاها

وقال :

عابد الرحمن أضحى قطب مصر بحقيق
حاز فجرا وعلموا وهو فرع لعتيق

فمن هذه الأمثلة وغيرها نعلم أن أبا المواهب اتخذ من شعره وسيلة
للعناية الناس إلى الالتفاف حول البيت البكرى ، والتفانى في حب أفراد ،

والإخلاص لهم ، والابتعاد عن سواهم . والتحذير من معاداة هذا البيت لما
في ذلك من الكفر الذي يؤدي بصاحبه إلى النار .

ومن قوله :

عبد الإله البكري مواهي الأزمان
سبط النبي الهادي المصطفى العنان
صلى عليه ربي والآل والإخوان
مع السلام الزائد له من الديان

وله غير هذا كثير نجده منبثا في ديوانه . وشعره سهل لطيف لا أثر
للتكلف فيه .

ومن الشعراء البكرين الذين ظهروا في القرن الحادي عشر : أحمد بن
عبد الرحمن الوارثي المصري الصديقي الإمام الكبير المفسر المحدث المتوفى
سنة ١٠٤٥ هـ (كان^(١) من الأدب في سنامه وكاهله ، تحوم الآراء حول مواعده
فترتوى من مناهله . وله نظم ونثر كما انتظمت الأزهار بعد ما انتشرت إعليتها
دراري الأمطار » فمن نظمه قوله يمدح أحد وزراء مصر :

يا أيها المولى الوزير ومن له من حللن من الزمان وثاق
من شاكر عنى يديك فاننى من عظم ما أوليت ضاق نطاق
من تخف على يديك وإنما ثقلت مواهبها على الأعناق .
وقال :

وكم لله من نعم نعم الكون ما طرها
تذكرنا أوائلها بما تولى أواخرها

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا ، ولا نعرف من نظمه سوى مقطعات قليلة وردت في خلاصة الأثر .

وأحمد البكري المتوفى ١٠٤٨ هـ وهو ابن زين العابدين ^(١) كانت له اليد الطولى في تفسير القرآن ، وإليه النهاية في علوم الطريق ومزيد الإتيان ، مع كرم يخجل المزن الهاطل ، وشيم يتحلى بها جيد الزمان العاقل . وجاء عريض وتمكين ، ومكان عند الناس مكين . يستلمون أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق . ومن مؤلفاته كتاب جعله على أسلوب « لوعة الشاكي ودمعة الباكي » سماه « روضة المشتاق وبهجة العشاق » وله شعر يدل على علو محله . وقصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه .

ومن هؤلاء الشعراء فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ حيث يقول ^(٢) :

يا بنى الصديق لى فى حبكم شأن عجب
كل يوم منه فى لحي وفى عظمى ديب
حبكم آل أبى بك ربه تمحى الذنوب
حبكم دينى ومن يبغضكو طاع مريب
غضب الله عليه فهو بالحق كذوب
لكم الرفعة والسطة والحال المهيب
ذكركم عند ملوك الأراض تعويد وطيب
كل عصر حضرة القديس لها منكم خطيب
ابن زين العابدين السيد البر الوهوب
ابن من يصدع بالحق ويعفو ويثيب
ابن من كان به الغوث مع الغيث يصب
شاهد الحضرة واخذ تخلص وناجته الغيوب

واستمر الفيض للـ أستاذ والفتحُ القريب
بلبل الحق لسان الـ غيب هطّال سَكوب

والتعاليم البكرية واضحة في هذه القصيدة كل الوضوح . فالشاعر يقول إنه يحب آل أبي بكر حبا امتزج بلحمه ودمه . ويرى أن حبهم سبب لغفران الذنوب ، ودينه الذي يدين به . ومبغضهم كافر حق عليه غضب الله . ويقول إن الملوك يتعمدون بذكرهم ، أي يتخذون ذكرهم تعاويذ وتمايم يتقون بها الشرور والمصائب . وإن الله يصطفى منهم في كل عصر إماما بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكري . ثم أشاد بمناقب أحمد البكري صديق زمانه الذي ورث الصديقية عن آبائه .

وقال: (١)

وأنت ابن صديق خير النبيئين خير الأواخر خير الأووال
ألست ابن من فضله قد آتى على ألسن الوحي من نبي الجلال؟
أينخي سنالك وأنت الشها ب على الرافضية أهل الضلال؟
فمن ذا يساميك أو من يدا نيك أو من يقاويك يوم النضال؟
لك الحال والقال في نحر شانيك من ذا مواضٍ ومن ذا عوال
فياويل أعداك إن مجلت أو قد ت الله أكبر يوم النزال

فالنحاس يقول إن أحمد البكري منجدر من ذرية أبي بكر صديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الأولين والآخرين . وأن القرآن قد شهد بفضل أبي بكر . ثم عجب من الرافضية أهل الضلال الذين ينكرون مكانة البكرين . ويجب أن نلاحظ أن الشاعر لم يذكر « الرافضية أهل الضلال » عبثا ، وإنما جاء تعريضه بهذه الطائفة لوجود قوم يتعصبون لآل علي ويروون أنهم أحق بالتقديم من البكرين ، وينكرون التعاليم البكرية . والأبيات التالية تعريض شديد بهؤلاء الخصوم ، وإشادة بمناقب الممدوح وفوته بأسمه

وعظيم فتكته بأعدائه . وقد يتبادر إلى الذهن من قول الشاعر « يوم الغزال »
أن حروبا نشبت بين البكرين وخصومهم ، ولكن الواقع غير ذلك . وقال :

أبى الله إلا أن يكون لك البقا وشايبك إلا أن يكون له الرغم
وعلمك إلا أن يكون مجسدا فأنت لسان العلم ما نطق العلم
وما الويل كل الويل إلا لحاسد عراين مجد كلها في العلاشم
ذوى صاحب الغار الذى أنت منهمو

ذوى الصدق إن قالوا ، ذوى العزم إن هموا

عصابة ترب المصطفى أنجم الهدى عليكم سلام الله ما نجم النجم
دعوا خصمكم يكفيه فى يوم بعثه فإن إله العالمين له خصم

فى هذه الأبيات تعريض بخصوم الممدوح الذين كفروا بالله بسبب عدم
إيمانهم بالتعاليم البكرية التى تجعل حب آل أبى بكر أساسا لصحة إسلام
المسلم . وحسب هؤلاء المنكرين أن الله سيكون خصما لهم يوم القيامة ،
وأن مصيرهم سيكون فى نار جهنم . وأشاد بفضائل البكرين نجوم الهدى
وأئمة الدين .

* * *

أما ديوان أحمد البكرى فلم يصل إلينا ، وإنما وصلت إلينا بعض مقطوعات
من شعره ، نذكر منها على سبيل المثال قوله يمدح السلطان مرادا

آل	عثمان	لهم	دولة	إلى	المعاد ^(١)
عمر	الله	بهم	كل	أقطار	البلاد
وحباهم	سطوة	دائما	بين	العباد	
ومحا	الله	بهم	كل	أرباب	العناد

(١) الترمذية الزهية ورقة ٥٠ مخطوطة ٢٤٦٦ تاريخ .

كم أزالوا ضيغها عن سبيل الحق حاد
وأبادوا عسكر الرفض عن حسن اعتقاد
خلف عن سلف سلكوا طرق الرشاد
ما تولى ماجد منهمو إلا وساد

نظم أحمد البكري هذه القصيدة عقب انتصار السلطان مراد على دولة إيران
الشيعة . وكان من الطبيعي أن يطرب الشاعر البكري لهذا الانتصار الذي
قضى على الرافضة . ونوه بعقيدة أهل السنة التي يدين بها العثمانيون .

وربما كانت هناك دوافع نفسية هيأت الشاعر لنظم هذه القصيدة وغيرها
مما عسى أن يكون قد نظم في هذا المقام . فقد مر بنا في مدائح النحاس له
تعريض بخصومه من الرافضة أهل الضلال . فأراد الشاعر أن يروي غليله من
هؤلاء الخصوم ، فمدح السلطان مرادا ، وأظهر الشماتة بهزيمة الرافضة . ولن
يستطيع خصومه بالطبع أن يردوا عليه في تلك المناسبة .

ومن شعره :

أحن إذا جنّ الظلام تشوقا إلى زمن بالقرب زاد تألقا
وأقطع ليلى ساهرا متفكرا لعل زمان الأانس يسعف باللقا

وقد أولع بنظم الألغاز ، وكان له فيها الباع الطويل ، فمن ذلك قوله

غزالة في بردها رافله تقتنص الأسد من القافله
في حرم الأمن وقد خلتها قاعة بالفرض وبالنافله
قلت لها رقي فقالت لمن كأنها عن مطلبي غافله
ثم انثنت تلغز لي باسمها لغزا به أفكارنا كافله
ما سم خماسي وتصحيفه شبه بدور لم تكن آفله
في سنة المختار خير الوري بيانه وهي له شاملة

في سنة نبه - مستيقظا وإن تشا في سنة كاملة
وهذه المقطوعة تمتاز بالسهولة والوضوح والبعد عن الصناعة اللفظية .

ومحمد زين العابدين البكري المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وفيه يقول صاحب
خلاصة الأثر^(١) « كان فصيح العبارة، طلق اللسان، كثير الفوائد، جم النواذر
وكانت الولاية ظاهرة عليه مع الدين المتين، والعقل الكامل، والتظاهر بالنعمة
في الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاً، مبعجلاً عند
الكبراء والوزراء، ذاجاه عريض، معتقداً عند عامة الناس وخاصتهم، مسموع
الكلمة، مقبول الشفاعة، يرجع إليه في مشكلات الأمور . اشتغل بطلب
العلوم وأتقنها، وبرع في كثير من الفنون سيما علم التفسير والحديث . وكان
له في علوم القوم وأصول التصوف قدم راسخ . وأقبل على التدريس إلى أن
صار رئيس البيت البكري . فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر
في الليالي المشهورة كليلة المولد والمعراج والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك
ذلك كله واستقل بالإفادة في بيته المعمور . »

وقد نزل في ضيافته كثيرون من الأدباء والعلماء الوافدين على مصر، نذكر
منهم المحبي والد صاحب خلاصة الأثر، وقد ألف كتاباً عن رحلته إلى مصر
وكان المحبي متعصباً للبكرين فكتب عن محمد زين العابدين فصلاً جاء فيه « فرع
غصن الدوحة البكرية، وفن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة
والسمو في النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء . رونق الليالي والأيام، وتاج
رأس العلماء الأعلام . بهجة الجميع ورواء حسنها البديع . من أضحكت له في العلوم
الحقيقية الرتبة الشائخة، وفي المعارف الإلهية القدم الراسخة . ولو لم يكن له من
صوم الشرف إلا خصوص هذه النسبة لكفاه ذلك في الفخر وعلو الرتبة .
وناهيك فخراً بأنه من ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة، واصطفاه

للخلافة على ملته وشريعته الطاهرة . فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا
ويسعوا إلى هذا البيت في كل وقت وساعة »
كما ذكره إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني في رحلته إلى مصر
بمثل ما تقدم .

وقد ترك محمد زين العابدين ديواناً اشتمل - كما يقول صاحب خلاصة الأثر
على نفائس القصائد والموشحات ، والمقاطيع والألغاز . ولكن ديوانه لم يصل
إلينا ، بل وصلت إلينا مجموعة من شعره في كتاب ألفه أحد أتباعه في المسمى
بدر الدين ، وهو كتاب « المجاز في رحلة محمد زين العابدين إلى الحجاز » فن
هذه المجموعة قصائد في التصوف والحب الإلهي . ومنها قصائد في الدعاية لآل
أبي بكر . مثال ذلك قوله :

ونحن حماسة الحى والحال شاهد	بمشهدنا الأعلى عن الحق بالحق
إذا جردت أسيافنا بمجالها	يشب لظاهها في دجى النقع كالبرق
وأسهمنا قتالة فهى لا تذر	عدوا يعاديننا بجهل ولا تبنى
عتيق العتيق الجد أفضل صاحب	خليفة طه المصطفى أشرف الخلق
فسلم لنا تسلم ولاتك منسكرا	فيوقعك الإنكار في المحو والحرق
وإن غررك الشيطان يوماً فلا تقف	بموقفنا نرمىك في أضيق الطرق
نصحتك فاسمع إن أردت نصيحة	ودع عنك طيش النفس والكبر بالحق
وخالف هوى النفس الذميمة واتبع	هوانا ولا تخش هوانا مع الصدق
وكن عبد حق مخلصاً في ودادنا	تنال الذى تهوى وتظفر بالعتق

فالأبيات الأولى في الحماسة وتهديد الخصم بالقتل والإفناء ثم تهديد من
بقية القصيدة - عن جده عتيق ، وما خصت به ذريته ، ووجوب الإتيان
لآل الصديق ، والإيمان بالتماليم البكرية التى تدعو إلى حب البكرين ،
والالتفاف حولهم ، وعدم التصدي لهم بالخصومة التى تؤدى بساكنها إلى
نار جهنم . ومن قوله :

فنحن بنى صديق أشرف مرسل وأكرم من أسدى الأمان خلائف
مشاهدنا جلت فجالت بنورها مرايا مزاياها لكل مكاشف
فجاهد تشاهد من سناها أشعة تحير في أوصافها كل واصف
تدلّت بنور الفضل من قدس البقا إلى عين أعيان حماة خلائف
همو رفقتى فى حضرة العز والتقى وندمان حانى من دهور سوائف
أقت بهم فى مركز الجمع مفردا أهز بسكر الشكر فيهم معاطف
أنا وارث الأسلاف لى بسلافهم مقام تعالى فوق أعلى الرفارف

ومنها :

فن نور شمس الأصل وصلى محقق وقد نشرت بالمكرمات صحائف
فطف شرق أقطار البلاد وغربها لتسمع ما تنبى بصدق هوائف

فى الأبيات الأولى يحدثنا عن الحقيقة البكرية التى ورثها عن آبائه الذين
كانوا مأمّن الخائفين . ويذكر أن وراثته للحقيقة البكرية جعلت له مقاما
ممتازاً عند الله وعند الناس . وفى الأبيات الأخيرة ينوه بقوته وبأسه وهيبته
التي خصه الله بها حتى غدا كالسلطان الجالس على عرشه يسمع له ويطيع أمره .
وقد ردد هذه الآراء فى معظم شعره . فانظر إليه حين يقول :

إنى محمد زين العابدين أبى وثانى اثنين جدى صاحب الهادى
و حين يقول :

نحن قوم من آل صديق طه مجدنا قد علا على فرق فرق
خلفاء عنه بحال وقال فتمسك بنا تعز وتسعد
و حين يقول :

وأنا ابن زين العابدين محمد قد طببت فى روض المعارف مغرسا
جدى عتيق والعتيقة مشربى من كأسها خمر الحقائق تحتسى

وحين يقول :

واسجد بحراب الشهود واقترّب لنا بنا ولا تخف من مكر
واسلم وعد مسلما بعزّة وادخل لحان بكرنا يا بكرى
وارو الحديث عن عتيق راحنا لجذك العتيق على القدر
أنا الفتى وابن الفتى بلا مرا جدى أبو بكر صديق الطهر

وهكذا اتخذ شعره وسيلة للدعاية للبيت البكرى كما فعل غيره من
لدعاة والصدّيقين. وله قصائد في الشكوى من أهل العناد والضلال. مثال
ذلك قوله :

ضلت عقول أهل العناد عن سبيل أهل مودتك
سلكوا طريقا في الفساد تبعدهم عن حضرتك

ركبو جواد غرورهم

وتطاولوا بفجورهم

وتغضبوا في زورهم

وبغوا على أهل الرشاد الصادقين بخدمتك

كل يقول أنا أنا

بالجاه قد نلت المنى

وأظنهم نالوا العنا

بالزيف عن طرق الفساد ووقعهم في شدتك

فأميرهم ومشيرهم

وكبيرهم وصغيرهم

وجليلهم وحقيرهم

ظل وللظل النفاذ ولك البقاء بقدرتك

... الخ .

وهذا من الشعر العذب الرقيق .

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى القرن الثاني عشر لنتابع الدراسة لشعر البكرين .
كان يعيش في أول القرن من شيوخ البكرين : زين العابدين . وقد
نزل عبد الغنى النابلسي الذي زار مصر سنة ١١٠٥ هـ في ضيافته ، وتحدث
عنه كثيرا في كتابه الذي ألفه عن رحلته واسمه « الحقيقة والحجاز في الرحلة
من الشام إلى مصر والحجاز » فقال^(١) « . . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا
إلى منزل الهمام ، بركة الأنام . الشيخ زين العابدين البكري الصديقي فتلقانا
بصدره الرحيب ، وجلست عند حضرته حصرة من الزمان في مجلسه المثل
على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان ، التي فيها نفحة من نفحات الجنان .
وتذاكرنا معه في بعض المسائل العلمية ، والمطارحات الأدبية ، والقصائد
الشعرية . واجتمعنا هناك عنده بقريبننا وزينا الفاضل الكامل محمد أمين^(٢)
المحبي الشامي . وبصديقتنا الفاضل الأديب الشيخ شاهين بن فتح الله وقد
أنزلنا الشيخ في دار لصق داره ، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره » .

وقال في موضع آخر^(٣) . « . . . وكان الشيخ زين العابدين قد
دما في ذلك اليوم إلى ضيافته ، وكان المجلس حافلا بأفاضل العلماء وأعيان
الكبراء . وحضر السماع وتحركت الآلات ، وسكنت النفوس والأصوات .
ولم نزل في ابتهاج وسرور ، ومثرائنة وحضور حتى مدت الموائد وجرت
العوائد . وكان ذلك في المجلس المثل على بركة الأزبكية . ثم بعد صلاة
المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة . فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع
الأحجار ، وقد أوقدت الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار . فوصلنا

(١) ورقه ٩١ مخطوط ٣٣٤ جغياوا .

(٢) هو صاحب نفاضة الأثر .

(٣) ورقة ١٠٢ .

إلى ميدان مفروش بالرخام والمرمر في ألوان كأنه قلائد العقيان . وهناك إيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام ، وأجل من صفحات الوجوه ، وأعطر من الزهر في الأكام . ورأينا الثريات من القناديل المشعولة ما تبقى بهجته النفوس والعيون مشغولة . وانطلقت مباخر العود ، وقامت مواسم الشهود . ونادى لسان الحال حين خاطب وقال :

يا صاحب العودين لا تهملهما حرّك لنا عوداً وحرّق عوداً
إلى أن قطعنا حصّة من مسافة الليل ، وتقلص ضوء الثريا فشمّر للمغيب
الذيل ، فقدمت الماء كحل السكريات ، والحلاوات الشهيات . ثم قدم العود
والعنبر المشهور ، وانهلّ ماء الورد من تحت غمام البخور . وقد تفرق الجمع
ووقف نور اللمع .

وقال في موضع ثالث^(١) « . . . نزلنا إلى مجلس الشيخ زين العابدين حتى صلينا الظهر ، ثم ركبنا وسرنا معه إلى دارهم الأولى التي كان يسكنها السادة البكرية سابقاً بالقرب من قناطر السباع ، ذات قصور عالية ، أرخصت غيرها وهي عالية . ورياض أنيقة ، وكيفما التفت وجدت حديقة . وفيها مجلس مطل على بركة الفيل ، كل كثير من البلاغة في وصفه قليل . لطيف الأرجا ، هو لنور الكمال معتمد وملجأ . يحيط به شبكات من الخشب المدهون ، مطلة على حوض من الرخام الملون بفنون . وعلى حافة ذلك الحوض شكل رقعة الشطرنج من الحجر السماقي والرخام . »

« ثم دخلنا في تلك الدار إلى بيت الولي العارف بالله تعالى الشيخ جلال الدين البكري الصديقي - رضى الله عنه - وهو الذي كان يسكنه في أيام حياته . وتبركنا به وبآثاره القديمة ، ومعاهده العظيمة . ودخلنا إلى قاعته التي هناك المسماة بقاعة التجلي . فإن الشيخ جلال الدين المذكور

فتح عليه فيها لما كان ملازماً للخلاوة والعبادة والعزلة بها ، وهي مقفلة لا يدخلها أحد إلا القليل . ففتحت لنا ودخلنا إليها مع الشيخ زين العابدين ، فرأيناها قاعة صغيرة جداً بإيوانين متقابلين ، وهي لطيفة البناء ، ظريفة الفناء ، بها النور الساطع ، والسر اللامع القاطع .

ولا شك في أن عبد الغنى النابلسي قد أعطانا فكرة واضحة عن بيئة البكريين في القرن الثاني عشر ، وحدثنا عن الندوات العلمية والأدبية التي كانت تعقد في قصورهم ، وتضم عدداً من رجال العلم والأدب . وفي رحلته قصائد كثيرة من نظمه ونظم غيره من الشعراء في مدح زين العابدين وأخيه محمد أبي المواهب . وكثير من هذه المدائح تبدأ بوصف بركة الأزبكية وما يحيط بها من الحدائق والقصور . ثم يتخلص أصحابها من ذلك إلى المدح . انظر إلى قول محمد أمين المحبي :

يا حبذا خُضر الحما ثل في رياض الأزبكيه
وخفوق أردية النسيم سرى ببقعتها النديه
أرض تكنفها الحدائق والرياض الأريضية

واستمر في هذا الوصف إلى أن قال :

فاختر هنالك مربعاً تكتني به كل الأذية
وتقيم موفور المنى وتمحفك المنى الخفسيه
في ظل زين العابدين بن الشهم أستاذ البريه
مولي أناخ المجد في أعتابه البيض النقيه

فالمدرسة البكرية امتازت بهذا الشعر الكثير الذي نظم في وصف الحدائق والبساتين ، والقصور والبرك ، والنسيم العليل وما يتركه في النفس من أثر . ولعبد الغنى النابلسي قصائد من هذا القبيل نذكر منها :

رعى الله من مصر على القرب مورداً به النيل وافي ماؤه يُذهب الصدا
(م ٩ الأدب المصري)

يسمونه بالأزبكية بركة مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها كوجه عروس لاح في الحسن مفردا
واستطرد من هذا الوصف إلى ذكر قصور البكرين ثم انتقل إلى
المدح فقال :

وفيها شبابيك عليها مظلة وعيدانها صيغت لجينا وعسجدا
بها قطبنا البكري يبدو برّوشن له ثم مملوء من العز والهدى

وهذا الشعر كله من وحى البيئة ، وهو خير من الغزل المتكلف الذي
كانت تبدأ به المدائح . وخير من ذكر الأماكن الحجازية التي اعتاد الشعراء
أن يرددوها في قصائدهم . ويبدو من رحلة النابلسي وغيرها من كتب
الرحلات والتاريخ أن القاهرة كانت تتمتع في ذلك العصر بكثير من البساتين ،
وببعض البرك . وكان الأمراء والأعيان يشيدون قصورهم حول تلك البرك .
وهؤلاء الأعيان - ومنهم البكريون - لا يكتفون بما حول هذه البرك
من البساتين ، بل يخرجون للنزهة في جهات بولاق وقصر العينى والروضة
ومصر العتيقة ويتبارى أدباؤهم وشعراؤهم في وصف تلك الجهات ، وما فيها
من زروع وطيور ودواليب . قال عبد الغنى النابلسي وقد خرج للنزهة في
صحبة زين العابدين « . . . ثم مررنا هناك على الروضة وهي جزيرة مصر
ذات الحسن المشهور ، المشتملة على الخضرة وألوان الزهور الخ . . »

وقال في موضع آخر « . . . وتوجهنا إلى الجهة المشهورة بقصر العينى ،
فدخلنا إلى منتزه لطيف الأوصاف ، متسق الأكناف . فيه أنواع الفواكه
والثمار ، ومحفوف بفقون الرياحين والأزهار . وفيه دولا ب لإخراج المياه
بالدواب . وهناك بركة من الماء وسواقى جارية رقيقة الهواء . جلسنا تحت
تلك العرائش من العنب وحوّلنا هاتيك الغصون المائلة ميل العرائس عذبة
الشنب ، إلى أن حضرت المائدة ، وحصلت من الاجتماع الفائدة . . . ثم عدنا

من ذلك المزار في أخريات النهار وقد امتلأنا سروراً ، وقلدنا بعقود اللطائف الأدبية أعناقاً ونحوراً ، ثم أورد له شعراً نظمته في وصف هذا البستان وما فيه من الدوايب .

وقد زار عبد الغنى النابلسي مدافن العائلة البكرية ، ونظم قصيدة نوه فيها بشأن أقطاب البكرين ، وبما خصوا به من المناقب والفضائل ، ووراثتهم للحقيقة البكرية . كما نظم قصيدة حينما دخل قاعة التجلي المتقدم ذكرها ، جاء فيها :

لما دخلتُ قاعة التجليِّ قلوبنا مالت من التَّمليِّ
وكيف وهى من جلال الدين في جلالها وهيبة التجليِّ
أعنى به البكرى نسل الصادق العتيق كوكب الهدى الأجلِّ
صاحب طه الخليفة الذى عنه نشأ في أشرف المحلِّ

ومنها :

لا زال منهم واحد فواحد فى كل عصر بالمقام الإلِّى
ومصر لا زالت بهم محفوظة وأهلها لشمسهم كالظلِّ

فالنابلسي كما يبدو من هذه الأبيات مؤمن إيماناً عميقاً بما يقول به البكريون من وجود صديق بكرى على الدوام بحيث لا يخلو عصر منهم . وقد أورد في رحلته بعض قصائد من شعر زين العابدين ، نذكر منها :

أنا نجل الصديق غيرُ مدافعٍ لى فى نسبتي وغيرُ ممانعٍ
أنا أصبحت للمفاخر جامع أنا زين العباد فانهب وسارع
لى فإنى لكل خير مَظَنَّةُ

ولنترك عبد الغنى النابلسي لنتقى نظرة على مصطفى بن كمال الدين البكرى المتوفى بالقاهرة سنة ١١٦٢ هـ وهو ليس من البيت البكرى ، وإنما أصله من الشام ثم جاء إلى مصر واستوطنها . وله مؤلفات كثيرة موجودة

بدار انكتب المصرية . وربما لقب بالبكرى لانتمائه إلى الطريقة البكرية
أو لانتسابه إلى بكريّة الشام . وقد نظم في شيوخ البكرين بعض المدائح
نذكر منها :

أهل المكاة والأمانة والتقى من مدحهم في سورة الأحقاف
أهل الصديق مقرهم حال به إذ تتبع الأبناء للأسلاف
ومنها في مدح أبي بكر :

يا أول الخلفاء ثانی اثنين في غار الوفا يا وافر الإسعاف
يا منقذ الإسلام يوم سقيفة رجعت به الأرواح خوف طواف
فسكت تاموداً له وقتلت مر تدأ فعاد الأمر للإيلاف

وفي قوله « من مدحهم في سورة الأحقاف » إشارة إلى قوله تعالى
« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي » إلى قوله « وأصلح لي في
ذريتي » . وقد مر بنا ما يزعمه البكريون بخصوص هذه الآية .

* * *

وقد بقيت المدرسة البكرية حاملة لواء الدعاية للبكرين على النمط المتقدم
حتى العصر الحديث . فهذا محمد البكرى الذى عين شيخاً للسجادة البكرية
عام ١٢٧٧ هـ كان قبلة أنظار الأدباء والشعراء . وقد مدحه شهاب الدين
المصرى بقصيدة جاء فيها :

وإذا خفت صولة الدهر فاقصد آل صديق أحمد المختار
هم مقر الأمان مجلى الأمانى مظهر الخير موضع الأسرار
حبيهم منزل الرضا وجماهم حيث تُتمحى كبائر الأوزار
هم نجوم الهدى ولا سيما من لاح فيهم كالبدر بين الدرارى
وهو شيخ الشيوخ مولى الموالى صفوة الصفوة خيرة الأخيار

وفي سنة ١٨٩٢ م تولى مشيخة السجادة السيد توفيق البكري . وقد
أقيمت بهذه المناسبة حفلة رسمية في قصر عابدين حضرها جم غفير من علماء
الأزهر ورجال الطرق الصوفية . وبعد أن شرب الحاضرون القهوة نهض
الخديو عباس وقلد الشيخ تاج الشرف . ثم نزل السيد توفيق ومعه مشايخ
الطرق الصوفية وكبار العلماء وسار في موكب ضخم حتى وصل إلى قصره
ياخر نفس . وهناك أقبل عليه الشعراء مهنتين مادحين . ومن هؤلاء الشيخ
حمزة فتح الله الذي يقول من قصيدة طويلة :

إنا نهنئ المكرمات وأهلها بحليفها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكري فرع أرومة الصدق يق زهرة دوحة الزهراء
العالم النحرير والعلم الذي أحياء رسوم المجد والعلواء
ومنها :

يا ابن النبي إليك أوفد مخلص أمدوحة تمشي على استحياء
فإليكها جهد المقل لأنكم في غنية عن مدحة وثناء

وفي أول مارس سنة ١٩٠٣ صدر أمر خديوي بتعيينه نقيباً للأشراف ،

ثم مدحه بعض الشعراء ، منهم أحمد نسيم الذي يقول :

بشراك توفيق أنت اليوم راعيها فهل نهنئك نظماً أم تهنئها ؟
خذ النقابة والعلواء تحملها إلى رحابك والرحمن يحميها
غابت زماناً وبانت بعد أن حجبت كأنها الشمس تمثيلاً وتشبيها
فانهض بها يا ابن آل البيت ماطلعت شمس الضحى نهضة لله تبغيها
حتى يقول أبو بكر لصاحبه بشراك عباس أعطى القوس بارئها

..... الخ

والآن قد فرغنا من دراستنا لشعر البكرين . وأهم خاصية لهذه المدرسة هي كما مر بنا تقديس ذرية أبي بكر ؛ ودعوة الناس إلى الإيمان بالتماليم البكرية التي تقدم ذكرها . ومن خصائصها كذلك تلك الروح الصوفية . للتأثرة بابن الفارض وابن عربي . والميل إلى وصف الحدائق والبساتين ، والجداول والبرك ، والأشجار والطيور والدوايب ، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة . وهي بذلك قد أضافت إلى الأدب المصري في العصر الذي ندرسه ثروة طائلة من النثر والشعر والموشحات والأزجال .

الفصل الثالث

المدرسة العلوية^(١)

سندرس في هذا الفصل الشعر الذي قيل في آل البيت . وأول شاعر تصادفه هو بهاء الدين العاملي الذي وفد إلى مصر سنة ٩٩٢ وأقام بها مدة من الزمن ، وألف بها كتابه « الكشكول » وفيه قصيدة^(٢) من نظمه تحت عنوان « وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان » وهي :

خليفة رب العالمين فظله	على ساكن الغبراء من كل ديار
هو العروة الوثقى الذي من بذيله	تمسك لا يخشى عظام أوزار
إمام هدى لاذ الزمان بظله	وألقى عليه الدهر مقود خوار
علوم الورى في جنب أبحر علمه	كغرفة كف أو كغمسة منقار
إمام الورى طود النهى منبع الهدى	وصاحب سر الله في هذه الدار
به العالم السفلى يسمو ويعتلى	على العالم العلوى من دون إنكار
ومنه العقول العشر تبغى كمالها	وليس عليها في التعلم من عار
أيًا حجة الله الذي ليس جاريا	بغير الذي رضاه سابق أقدار
ويا من مقاليد الزمان بكفه	وناهيك من مجد به خصه البارى

(١) كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الوقت تقضى بإيجاد فرق تتنافس فيما بينها على النفوذ ، وهي تقف بعيداً مطمئنة إلى سلطانها . فشجعت قيام حزبين كبيرين من المماليك هما : القاسمية والفقارية . ولم يكن عندهما ما يمنع من قيام فرقة تناظر البكرين ، وبهذا نفهم السر في ظهور النزعة العلوية إلى جانب النزعة البكرية . على أن النزعة العلوية بدأت بمدح أسجابه الأضرحة من آل البيت ، ثم أخذت تشتد يوماً بعد يوم نتيجة لاضمحلال النفوذ العثماني و ظهور المماليك كحكام حقيقيين للبلاد .

أغث حوزة الإيمان واعمربوعه
 وأنقذ كتاب الله من يد عصابة
 يجيدون عن آياته لرواية
 وفي الدين قد قاسوا وعاثوا وخبطوا
 وأنعش قلوباً في انتظارك قرحت
 وخلص عباد الله من كل غاشم
 وعجل فداك العالمون بأسرهم
 تجد من جنود الله خير كتائب
 بهم من بنى همدان أخلص فتية
 بكل شديد البأس عبل شمر كل
 تحاذره الأبطال في كل موقف
 أياصفوة الرحمن دونك مبدحة
 فلم يبق منها غير دارس آثار
 عصوا وتمادوا في عتو وإصرار
 رواها أبو شعبيون عن كعب الأحبار
 بأرائهم تخبيط عشواء معثار
 وأضجرتها الأعداء أيتة إضجار
 وطهر بلاد الله من كل كفار
 وبادر على اسم الله من غير إنظار
 وأكرم أعوان وأشرف أنصار
 يخوضون أغمار الوغى غير فكار
 إلى الحتف مقدم على الهول مصبار
 وترهبه الفرسان في كل مضار
 كدر عقود في ترائب أبكار

وقد أثبتنا هذه القصيدة كلها نظراً لأهميتها . فهي تسجل الآراء
 الشيعية التي نشرها العاملي في مصر في ذلك الوقت . فصاحب الزمان هو
 خليفة الله الذي مد ظله على العالم . وهو العروة الوثقى ، ومن تمسك به نجا .
 وهو الإمام الهادي الذي حاز جميع المعارف والعلوم . وهو منبع الهدى ،
 وصاحب الأسرار الإلهية في الدنيا . ومنه تستمد العقول العشر كما لها . وهو
 حجة الله الذي تجري الأقدار بإرادته ، ويمضي الزمان بمشيئته . ثم أخذ
 الشاعر يخاطب صاحب الزمان طالباً منه أن ينقذ الإيمان ويعيد إليه رونقه
 وبهاءه وجدته ، لأن ربوعه قد تهدمت وزالت ، ولم يبق منها سوى أطلال
 بالية . والقرآن أصبح في يد قوم عتاة عصاة ، أهملوا ما جاء فيه واتبعوا
 ما روى عن كعب الأحبار وغيره . ثم إنهم اتخذوا القياس في أحكام الدين ،
 واجتهدوا بأرائهم ، وضلوا سواء السبيل .

وبعد أن وصف الشاعر ما وصل إليه العالم من فساد وانحلال ، التمس من

صاحب الزمان أن يظهر فإن القلوب متعطشة لرؤيته . وأن ينقذ العالم من الظلم والطغيان ، ويطهر البلاد من الكفار . وسيجد في انتظاره جيشاً من جنود الله من بنى همدان المعروفين بالإخلاص له ، والمشهورين بالشجاعة والإقدام . وخصص بنى همدان لأن المتعارف عند فريق من الشيعة ومنهم الإثنا عشرية أن الإمام المنتظر سيظهر في بنى همدان . ومن العجيب ^(١) أن رجال الدين في مصر لم ينكروا على بهاء الدين هذه الآراء مع ما فيها من تعريض بأهل السنة ، وما جروا عليه في الأحكام من القياس والاجتهاد . ومع قوله إن كتاب الله أصبح في يد عصبة من الكفار .

وله قصيدة أخرى ردد فيها المعاني السابقة نذكر منها :

صاحب العصر الإمام المنتظر	من بما ياباه لا يجرى القدر
حجة الله على كل البشر	خير أهل الأرض في كل الخصال
من إليه الكون قد ألقى القياد	مجرباً أحكامه فيما أراد
إن تزل عن طوعه السبع الشداد	خرت منها كل سامي السمك عال
شمس أوج المجد مصباح الظلام	صفوة الرحمن من بين الأنام
الإمام ابن الإمام ابن الإمام	قطب أفلاك المعالي والكمال
يا أمين الله يا شمس الهدى	يا إمام الخلق يا بحر الندى
عجائب عجل فقد طال المدى	واضحل الدين واستولى الضلال

ثم إنه خصص في كتابه « الكشكول » فصلاً طويلاً عن السيدة فاطمة ، وذكر فيه كثيراً من مناقبها وفضائلها . وأورد أخباراً متفرقة عن الحسين ابن علي وبعض كبار آل البيت .

وفي تلك الفترة جاء داود الأنطاكي إلى مصر ، وكان كما نقل المحبي ^(٢) « شيعياً مخالفاً لعقيدة الأشعرية ، وموافقاً لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا علياً وقالوا بإمامته نصّاً ووصيةً . والحق أحق أن يتبع في بيان معتقد

(١) كان من مصلحة الدولة العثمانية أن ينقسم المصريون إلى فرق يأخذ بعضها بحناف بعض ،

(٢) الخلاصة ٢/١٤٤

وهي تقف موقف المتفرج .

الإنسان . وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكلم له من اعتقادات فاسدة ، وأقويل كاذبة باطلة » وقد ذكر داود في مقدمة تذكرته ما نصه « ... صلاة تزيد على حركات المحيط على من اخترت من النفوس القدسية لقوام الأدوار في كل زمان ، والإرشاد إلى منهاج الحق وقانون الصدق » والنفوس القدسية يراد بها الأئمة . والدور عند الإسماعيلية هو الفترة بين نبي وآخر . والأقوال متضاربة في أمر داود ، فمن الناس من قال إنه كان ملحداً ، ومنهم من قال إنه كان شيعياً . وظاهر مما ورد في مقدمة تذكرته أنه كان يدين بمذهب الشيعة الإسماعيلية .

وعلى كل حال فإن الأفكار الشيعية الفلسفية لم تجد رواجاً في مصر لوجود البكرين الذين كانوا ينشرون تعاليمهم بين الناس ، ويؤثرون على كثير من الشعراء والأدباء بالعطاء الجزيل . ولوجود حكام يدينون بمذهب أهل السنة . وكانت الدولة العثمانية كما سبق أن ذكرنا تشجع العلماء على تأليف الكتب ضد الأفكار الشيعية .

وقد حدثتنا كتب التراجم عن شعراء مصريين كانوا ينظمون القصائد في مدح أشرف مكة أملاً في نوال عطائهم ، ولكن لم يصل إلينا شيء من هذه المدائح .

ويجب أن نذكر أن عواطف المصريين كانت ولا تزال مع أهل البيت بالرغم من عدم رواج الفلسفة الشيعية بينهم .

* * *

وفي هذا العصر جددت أضرحة آل البيت في مصر ، واهتمت الناس في إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة . وأخذ الشعراء ينظمون القصائد في مدح آل البيت ، وبخاصة الحسين . مثال ذلك قول عبد الله الشبراوي المتوفى سنة ١١٧٢ هـ :

آل طه ومن يقل آل طه مستجيراً بجاهكم لا يُرد
حكم مذهبي وعقد يقيني ليس لي مذهب سواه وعقد

بيتكم مهبط الوحى ومنكم نور النبوة يبدو
ولكم فى العلا مقام رفيع مالكم فيه آل ياسين نِدْ
يا ابن بنت الرسول من ذا يُضاهى هيك افتخاراً وأنت للفخر عَقْدُ
كل من رام حصر فضلك رَغْرُ فضل آل النبي ليس يُعَدُّ

فخصائص الشعر العلوى ظاهرة فى هذه الأبيات . فالشاعر يذكر آل طه ، ويقول إن حبهم دينه الذى يدين به ، وقد انعقد إيمانه على هذا الحب . وبيتهم نزلت فيه الرسالة والوحى . ويذكر نور النبوة وآل ياسين ، وابن بنت رسول الله . وكل هذا وغيره من مميزات الشعر العلوى .

وله من قصيدة أخرى :

لست أخشى ريب الزمان وأنتم عمدتى فى الخطوب يا آل أحمد
من يضاهى نفاكم آل طه وعليكم سرادق العز ممتد
كل فضل لغيركم فالإيكم يا بنى الطهر بالأصالة يُسند
أى بيت كبيتكم آل طه طهر الله ساكنيه ومجد
ولكم فى الكتاب ذكر جميل يهتدى منه كل قارى ويسعد
وعليكم أنى الكتاب وهل بعد دثناء الكتاب مجد وسودد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » والشيعه يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا علياً والحسن والحسين وفاطمة ، وألقى عليهم عباةته وكان هو معهم تحت العباة ، وحينئذ نزلت الآية المتقدمة .

وقال :

لئن كان رفضاً حبكم يا آل أحمد فقد لذى فى حبكم ذلك الرفض
عرضت عليكم آل ياسين قصتى ويحسن من مثلى على مثلكم عرض
وعاداتكم إكرام من زار حبكم وحاشا لتلك العادة الخلف والنقض

على حبكم أفنيت عمري وهل لمن
نوها أنا يا آل النبي وحق من
حب أتاكم آل طه يزوركم
بحبكمو بُعِدُ من الله أو بُغِضُ
تذلل لعلياه السموات والأرض
وقد صحح في التاريخ حبكمو فرض

والبيت الأول مأخوذ من البيت المشهور المنسوب للإمام الشافعي وهـ

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافضى

ولن نجد عند الشبراوى فى مدائمه لآل البيت أكثر من المعانى المتقدمة
فلنتركه ولننظر فى شعر الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢هـ قال يمدح فاطمة الزهراء

أمأهى من طه المكرم بضعة
أماهى من قد حرّم الله جسمها
أماهى من قد أحصنت فرجها فلا
وخير نساء العالمين بلا مرا
وكان رسول الله يقبضه الذى
وقال لها صلى عليه إلهه
وفى الحشر يأتى المصطفى وهو را
على الناقة القصوى فتدخل تلوه
وفى خبر يغدو المنادى مناديا
ألا فكسوا روسا وغضوا نواظرا
وفى مدحها جاءت أحاديث حجة
وخصت من المولى بأشياء تميزت
فلا حيض يأتها ولا فى نفاسها
ولا جوع تشكوقط من أجل دعوة
وسر أبيها قد غدت كنية لها
وكان لها دوما يقوم إذا أتت
على حبها من مات كانت له البشرى
على النار تحقيقا وأحبابها جهرا
تداني لها نار وأولادها طرا
ومن شك فى هذا عليه بالاستقرا
يكون لها قبضا ويبسط بالأخرى
لأجل رضاك الله يرضى فيا بشرى
كب الأبراق وتأتى خلفه بنته العرا
إلى جنة المأوى التى حسنت ذكرا
لدى ذلك الجمع الذى عز أن يدري
لثلا يروا شخصا لمن ظهرت مرا
تفوت على من رام تعدادها حصرا
بها عن نساء العالمين حات نشرا
يرى دمها من أجل ذا لقب زهرا
دعاها لها طه ولو مكثت شهرا
فيا حسنها من كنية قد زكت نشرا
إليه ويحبوها بمجلسه جبرا

وما بين عينيها يقبل مثلما
وقد ضمها تحت الكسا وعليها
وقال إله العرش إني أحبهم
وأحب إلهي كل من قد أحبهم
لقد ولدتها من تسامت خديجة
فقد كرمت أما كما شرفت أبا
ها كوكبا فضل وبدرًا سيادة
شهيديان مسعودان بران سيادا
مصائبها لم ينسه خاطري وما
مصائبها أبكى العيون وأوقع الذ
ألا لعن الرحمن من قد سعى بما
هو آل بيت الطهر طه الذين قد
وفي سورة الشورى العجائب فاتلها
بها وبنجليها الكريمين والرضا
توسلت يارب العباد بهم عسى

يمصن لسانا قد حلا وزكا طهرا
ونجليها ضمها به زادهم فخرا
فطهرهم من كل ما يوجب الإصرا
ونوله ما يرجوه وارفع له ذكرا
حليمة خير المرسلين عـلا قدرا
وقد أنجبت شبليين سادا الملا الزهرا
وريحانة المختار من فاز بالإسرا
شباب جنان من عبيد ومن أحرأ^(١)
أتاه العدا من سوء بغى غدا أمرا
نفوس بكرب مثلما للحشا فرا
أباح دماء بالنفائس لا تشرى
نفي الرجس عنهم ربنا فاقرا الذكرا
تل ما تشا بل تغنم الفوز والأجرا
على والمختار ذن الآية الكبرى
أنال بحبيهم مرادى والنصرا

فاذا تأملنا في هذه القصيدة وجدنا الإدكوى قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث التي رويت في السيدة فاطمة . وبالرجوع^(٢) إلى صحيح البخاري ومسلم وجدت حديثين هما « فاطمة سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة » في رواية مسلم . وفي رواية البخاري « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » . وحديث « إنما فاطمة بضعة مني يؤذني ما آذاها » في رواية مسلم .

(٢) إرشاد الساري إلى صحيح البخاري ٦/١٤٤ .

(١) مر حرا : من حرار .
وصحيح مسلم ٣/١ المطبعة المصرية

وعند البخارى « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبني » وفي رواية عنده
« ويؤذني ما آذاها »

وقول الإدكاوي « وسر أبيها كان يودعه لها » فيه إشارة إلى حديث
ورد في البخارى ومسلم ومعناه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة وأخبرها
أنه سينتقل إلى الرفيق الأعلى فبكت . ثم أخبرها أنها ستكون أول من يلحق
به فضحكت . وقد كتبت هذا الخبر فلم تبسح به إلا بعد وفاة الرسول .

أما الأخبار التي أوردتها الشاعر عن فاطمة وهي أنها لا تحيض، ولا يخرج
منها دم عقب الولادة، وأن النبي دعا لها بدعاء يقيها شر الجوع، وأنها تركب
ناقة يوم القيامة وتدخل بها إلى الجنة على أثر الرسول، وأن مناديا ينادي
الناس ليغضوا أبصارهم حتى تمر بناقتها، إلى غير ذلك، فإن هذه الأخبار لم
ترد في الكتب الصحيحة، وهي من غير شك من مخترعات الشيعة . ومع ذلك
فالمسلمون أجمعون يشتركون في حب فاطمة، ويرتاحون إلى كل ما يقال
ويروى من أخبارها . ولا عجب في ذلك فهي بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي قول الإدكاوي « وفي سورة الشورى العجائب فاتها » إشارة إلى
قوله تعالى « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فإن الشيعة
فسروا القربى بأنها آل علي، وبذلك وجهوا الآية توجيهاً يخدم أغراضهم،
في حين أن خصومهم قالوا إن قرابة النبي لا تقتصر على آل علي، بل تشمل كل
من يمت إلى النبي بصلة القرابة من ناحية الآباء والأمهات، والمصاهرة والنسب .
ومن هنا نرى أن شعراء العلويين في مصر اتفقوا مع الشيعة في تفسير
هذه الآية .

وفي قوله « وقد ضمها تحت الكسا وعليها » إشارة إلى القصة التي
رويت حول نزول آية التطهير من الرجز . وقد رجعت إلى الطبرى وهو
للمشهور بالتفسير بالأثر فوجدت كل ما أورده من أقوال في هذا الصدد يتفق

مع ما ذهب اليه الشيعة ، اللهم إلا رواية واحدة تنص على أن^(١) الآية نزلت في نساء النبي . وخصوم الشيعة يأخذون بهذه الرواية . وأما شعراء العلويين في مصر فإنهم وقفوا إلى جانب الشيعة ، ولم تخل قصيدة من قصائدهم من الإشارة إليها .

وقد بكى الإدكاوى على ما أصاب الحسن والحسين ، ونوّه بشأنهما ، ولعن معاوية وابنه يزيد الذين قتلا هذين الشهيدين . والشيعة يذكر أن معاوية دس السم للحسن ، وقد تابعتهم الادكاوى وغيره من الشعراء العلويين بمصر في هذا الزعم . أما غير الشيعة فإنهم برأوا معاوية من هذه التهمة ، ونظروا إليه على أنه كان أحد الصحابة . وعندى أن الذى يولى ابنه يزيد إمارة المؤمنين مع علمه بنفسقه وفجوره لا يبعد عليه أن يسم الحسن .

وختم الادكاوى قصيدته بالتضرع إلى الله أن يميتة على حب آل البيت لأن حبه من الإيمان ، ولا يدخل الجنة إلا من مات على حبه . كما أن بغضهم كفر يؤدى إلى النار . وقد اشترك جميع الشعراء العلويين في هذا القول ، كما اشتركوا في التوسل إلى الله بآل البيت ، والاستغاثة بهم في الشدائد والملمات .

وقد التف شعراء العلويين حول شيوخ السادات الوفاوية ، ومدحهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال في الخلفاء الفاطميين .

ومؤسس^(٢) بيت السادات في مصر هو : محمد وفا ؛ الذى ينحدر من ذرية الإمام على . وقد جاء إلى مصر من شمال إفريقيا في أول القرن الثامن الهجرى ونزل بالاسكندرية وأقام بها مدة من الزمن . ثم انتقل إلى القاهرة وسكن

(١) ج ٢٢ ص ٧٢٦ المطبعة الميمنية بالقاهرة .

(٢) رفع ثقاب الخفا عن ائمتى إلى وفاء الوفا - تأليف مرتضى الزبيدى .

بجزيرة الروضة . وقد قيل في سبب تلقيبه بـ « وفا » أن النيل توقف في إحدى
السنين ، فتوجه العلماء والصلحاء إلى المقياس ودعوا الله لترتفع مياه النيل
كالمعتاد ، ولكن الله لم يجب دعاءهم . وبقي النيل على حالته من النقص . وقد
أخبر السلطان بوجود « مجد النجم » وصلاحه وتقواه . فأرسل إليه أن يتوجه
إلى المقياس ويدعو الله ، ففعل . فلم يلبث أن ارتفع الماء وظهر الوفاء ،
وصار الناس يقولون « وفا ، وفا » وخوذب حينئذ بذلك وصار علما عليه .

وليس من المهم أن نقف عند هذه القصة لنحكم لها أو عليها ، فالخرافات
موجودة في كل زمان ومكان .

واشتهرت ذريته باسم « السادات » . وقد توفي مجد وفا سنة ٧٦٥ هـ .
وكان كما ذكر منفردا في التصوف . وله ديوان شعر موجود ، ولكننا
سنغفل الكلام على شعره لأنه لا يدخل في عصرنا الذي ندرسه .

ثم انتقلت عائلة السادات من الروضة وسكنت مصر القديمة . وفي القرن
الحادي عشر كان لها مساكن بناحيتي الخرنفش وبركة الفيل . وقد ذكرهم
عبد الغنى النابلسي الذي جاء إلى مصر سنة ١١٠٥ هـ فقال ^(١) « ... ثم ركبنا
وتوجهنا مع الإخوان إلى جهة بيت السادة الوفائية المشهورين بالمعارف الإلهية
والحقائق الربانية . أهل النظم والنثر من التصانيف الفاخرة ، والدواوين
الزاهرة . وكان منهم البدر الكامل ، والسر الشامل الشيخ يوسف ابن متعة
البصر والسمع ، ونور الفرق والجمع ، الشيخ أبي التخصيص الوفائي ، رفع لهم
الله في الآفاق رايات المجد ، ولا زال ذكرهم بالسكالات الإنسانية بين مراتب
الغور ونجد » .

« فدخلنا إلى دارهم المعمورة التي هي بأنواع الهيبة والاحتشام مغمورة .
فتلقانا الشيخ يوسف المذكور بكمال البشاشة والسرور . وجاسنا عنده حصة

(١) ورقة ١٢٢ من كتاب الحقيقة والمجاز .

من الزمان حتى جىء لنا بماء الورد والبخور ، وحصل كمال اللطف والإذعان»
وذكرهم الشهاب الخفاجى المتوفى^(١) سنة ١٠٦٩ فقال « ومن البيوت
العاصرة بمصر بيت السادة الوفائية . سادات السادات ، لهم أنفس قدسية قد
أفيضت عليها العلوم الدينية . ما منهم إلا صاحب ديوان نافذ في سبيل
البلاغة بسطان » .

* * *

ومن أعلام هذا البيت : عبد الخالق بن وفا . وقد ذكره^(٢) الجبرتي فقال
« قطب زمانه ، وفريد أوانه . كان على قد أسلافه وفيه فضيلة وميل للشعر .
وامتدحه الشعراء وأجازهم الجوائز السنية . وكان يحب سماع الآلات » .
ومما قيل في مدحه :

دع عنك حاتم طى وابن زائدة واترك حديث بنى العباس والخلفا
وانظر بعينيك هل أبصرت من رجل فى الجود يشبه عبد الخالق بن وفا

توفى سنة ١١٦١ هـ وتولى بعده فى خلافتهم : محمد أبو الإشراق بن وفا .
واشتهر منهم أحمد بن إسماعيل أبو الإمداد ، سبط بنى الوفا . وترجمه
الجبرتي بقوله « الجناب الأجد ، والملاذ الأوحى . علم المجد وناشره ،
وجالب متاع الفضل وتاجرهم ، تولى نقابة الأشراف سنة ١١٦٨ وسار فيهم
سيرة مرضية . وقد مدحه عبد الله الإدكاوى بقوله :

قالوا نقابة مصر أودى كفؤها وتسربت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا ، بل لها الكفء الذى رتب العلا بفخاره قد حفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذلك قلنا أرخوا أدبا لأحمدنا النقابة زفت

(١) الريمانة ص ٣١١ طبع بولاق سنة ١٢٧٤ هـ .

(٢) ج ١ حوادث سنة ١١٦١ هـ .

ثم تولى مشيخة السجادة الوفاية سنة ١١٧٦ فمدحه الإدكوى بقوله :
قيل لي هل مدحت آل عليٍّ من بهم يكتسى الأديب الشرافه
آل بيت الوفاء من خُصِّصوا بال . مجد والفخر والتقى والإنافه
قلت ما قدر مدحتي لكرام بهم تأمن الأنام المخافه
غير أني لفرعهم أحمد الحج د سأجلو بمنطقي أوصافه
هو بيت الأفضال شمس للمعالى أوحده الفضل جامع الطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد ر خليبا وما دروا إسعافه
قال أعلى الجدود في الحال هاتوا نجلنا أحمد الزكي العرافه
قدّموه فقلت في الحال أرخ جده قد أولاه ركن الخلافة
توفي سنة ١١٨٢ هـ .

* * *

ولعل أشهر أفراد هذا البيت هو : شمس الدين محمد أبو الأنوار . وقد
ترجم له الجبرتي^(١) ترجمة مطولة نلخصها فيما يلي :
« نادرة عصره ، ووحيد دهره ، الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ،
ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، سبط بنى الوفاء ، وخليفة السادات
الحنفاء ، وشيخ سجادتها ، ومحط رحال سيادتها . وشهرته غنية عن مزيد
الإفصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح . »

« تولى خلافة بيتهم سنة ١١٨٢ . »

« ودرس على شيوخ عصره . وكان له اشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة
وللذاكرة في المسائل الدينية والأدبية . ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم ،
والمناقشة معهم في النكات واقتناء الكتب من كل فن . كل ذلك مع الجد
والتحصيل للأسباب الدنيوية ، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن

(١) ج ٤ ص ١٨٥ - ١٩٧ .

تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما ينحل بالمقدار ، بحيث يقضى مرامه من العظيم وجميل الفضل له . ويراسل ويكتب ويشاحح على أدنى شيء ، ويحاسب مولاه يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر . وكذلك دواوين المكوس المبنى على الإجحاف . فكل ما نسب له فيها هو معافي . وكلما طال الأمل زاد المدد ، وخصوصاً إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل كان الأسبق القديم في أعينهم هو الجليل العظيم . وهم لديه صغار ، لا ينظر إليهم إلا بعين الاحتقار . ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم وينحضع لهم ويتأدب معهم ، وكانوا على طرائق الأقدمين في العفة والانجماع عن كل عمل ينحل بتعظيم العلم وأهله ، والتباعد عن بنى الدنيا إلا بقدر الضرورة . وخلف بعدهم من هم على خلاف ذلك ، وهم أعظم مدرسى الوقت فأحدقوا به ، وأكثروا من الترداد عليه وعلى مواعده ، وبالغوا في تعظيمه وتقبيله يده ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعاً في صلاته وجوائز القليلة ، وحصول الشهرة لهم ، وزوال الخمول ، والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر . وزاد هو أيضاً وجهاً ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلاً بسعيهم إليه ، ويزداد كبراً وتبهاً . وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه . ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيلم ثيابه ويقول عند مشاهدته « يا مولاي يا واحد » فيجيبه هو بقوله « يا مولاي يا دائم ، يا على يا حكيم » . فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين جبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه . وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه . وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخطبهم في أشغاله وهم قيام وانصرفوا ، طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم . ولا يجيب في رد التحية إلا بقوله « خير ، خير » .

« ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصة مسامريه إلا بانتقاد أهل مصره ، وغيبة غالب أهل عصره . وتنبسط نفسه إلى ذلك ، وإليه يصفى » .

« وفي سنة ١١٩٠ ورد إلى مصر عبد الرازق أفندي رئيس الكتاب ومن أكابر أهل الدولة . فنحته الدولة بواسطة مائة كيس لإصلاح زاوية أسلافه . وكان معينه في ذلك الوقت أيضاً الشيخ محمد مرتضى الزبيدي . »

« ثم أرسل وزيره وكتبخده الشيخ إبراهيم السندوبي إلى دار السلطنة بمكاتبات يلتمس فيها رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما في حوزته من الالتزام من الضرائب التي تدفع إلى الديوان كل سنة . وكان إبراهيم المذكور غاية في الدهاء والحيل الساسانية ، والتصنعات الشيطانية ، والتخليطات الوهمية ، وتقلبات الملامتية . فتم مرامه بما ابتدعه من المخزقة والإيهامات الملفقة . ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتلب خلاف ذلك فوائد . »

« ولما حضر حسن باشا الجزائرلى سنة ١٢٠٠ هـ وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبليية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال وفعل ذلك . فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قائلاً له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلت السلطان لإقامة العدل ، ورفع الظلم كما تقول ، أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحریم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظاً شديداً . »

« وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة . وكذلك مراد بك أودع عند محمد البكرى وديعة . وعلم حسن باشا فأرسل عسكرياً إلى السيد البكرى فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده . وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قائلاً « إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة ، فلا أسلم ذلك مادام صاحبها على قيد الحياة . » فاشتد غيظ الباشا منه ، وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة انتصاره

تلحق . فكان يقول - يعنى حسن باشا - : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى .

« ولما رحل حسن باشا الجزائرلى عن مصر وعاد الأمر إلى المماليك زادت عندهم مكانته . وآل إليه نظر المشهد الحسينى ، ومشهد السيدة نفيسة والسيدة زينب وبقى الأضرحة الكثيرة الإيراد . وأخذ يتشدد مع القائميين على هذه الأضرحة فى تحصيل أموالها ، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجريد المحمى على أرجلهم »

« وكانت مساكنه مطلة على بركة الفيل . وبها قاعة كبرى تسمى « أم الأفراح » مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها ، والرخام الملون . وبها الفسقية والسبيل والقمريات الملونة . فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش ، وعمل بها فسقية بالرخام ، سماها الأنوارية ، نسبة إلى كنيته وأمامها فسحة عظيمة . وأنشأ بجوار بيته مسجداً يصلى فيه . وذلك لبعده المساجد الجامعة عن داره . وتعاضمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامية . وأنشأ بستاناً كبيراً ، وغرس به الأشجار والرياحين والثمار . وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشرب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة »

« وتعاضم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج والحضور بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور فى مجلس وردهم الذى هو محل عزهم . وصار يلبس قاووقاً بعمامة خضراء تشبهاً بأكابرا الأمراء ، وبعداً عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين »

« ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه ، والذين كان يستحى منهم ويهابهم

وتقلبت عليه الأحوال ، واندرجت أكابر الأمراء ، وتأسر أتباعهم وممالئكمهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدي مخاديمهم ، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم ، لا جرم كانت هيبتة في قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغارده هو لهم كذلك . فكان يصدعهم بالكلام ، وينفذ أمره فيهم ، ويذكر الأمير الكبير بقوله « ولدنا الأمير فلان » وحوادثه عندهم مقضية ، وكلامه مسموع ، وشفاعته مقبولة ، وأوامره نافذة فيهم وفي حواشيهم وحريماتهم . « واتفق أن بعض أعظم المباشرين من الأقباط توقف معه في أمر ، فأحضره ولعنه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد . ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلد . ولما شكوا إلى مخدومه ما فعل به ، قال للحاضرين : « وماذا تريدون أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ؟! فرحم الله عظامهم » واتفق أن جماعة من أولاد البلد ووجهاتها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصحابهم ، وتبسطوا فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر ، فوشى للمترجم ونقل له أنهم أدرجوه في سخريتهم . فأحضرهم واحدا بعد واحد وعزّهم بالضرب والإهانة »

« فكان من حين إلى حين يقع في بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس . وكذلك فلاحو الحصص التي حازها والتزم بها ، فإنه زاد في خراجهم عن شركائه ، وفرض عليهم زيادات كان يحبسهم عليها شهورا ، ويضربهم بالكرابيج وبالجملة فقد قلب الموضوع ، وغير الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد ، وولاية واعتقاد ، صار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلظ أدنى غلظة ، ويتحاماها الناس من جميع الأجناس . وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه في شيء ، بل يوافقونه ولا يتسكمون معه إلا بميزان وملاحظة الأركان . ويتأدبون معه في رد الجواب ، وحذف كاف الخطاب ، ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ ، بل حتى في الآثار المروية ، والأحاديث النبوية . وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات ، والوصف بالمناقب الجليلة ، والأوصاف الجميلة ، حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخطب بها :

يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسيني ، وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم ، والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب ، وغفران الذنوب ، حتى إنى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : « لم يبق على الخطيب إلا أن يقول (١) اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات !! »

* * *

ولما دخل الفرنسيون مصر كانت له ترجمه بعض المواقف المشرفة التي تحمل بسببها كثيرا من الأذى . فقد حدث أن قبض بونابرتة على ابن القاضي التركي وحبسه في القلعة . فتشفع المشايخ عند بونابرتة ليطلق سراحه . وكان السادات حاضرا فضم صوته إلى صوت العلماء وأضاف (٢) قائلا : « إنكم تقولون دائما إن الفرنسيين أحباب العثمانيين . وهذا ابن القاضي من طرف العثمانيين . فهذا الفعل مما يسىء الظن بالفرنسيين ، ويكذب قولهم وخصوصا عند العامة » فغضب بونابرتة من كلام السادات واستدعاه إلى مجلسه وعاتبه ولامه . وحجزه مدة من الليل ، وأخيراً أطلق سراحه وأمره بالانصراف إلى منزله .

ولما نشبت المعارك بين الفرنسيين والجيش العثماني ، ودخل العثمانيون القاهرة وشرعوا في الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم ؛ كتب السادات إلى عثمان كتبخدا الدولة الرسالة الآتية :

حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير . وما هي من الظالمين ببعيد .

(١) الجبوتي ٤ / ١٩٢

(٢) الجبوتي ٣ / ١٠٣

ظننتُ أنكُ عدتني أسطوبها ویدی إذا اشتد الزمان وساعدي
فرمیت منك بغير ما أملتہ والمرء يشرق بالزلال البارد
أما بعد ، فقد نقضت عهدي ، وتركت مودة آل جدني . وأطعت الظلمة
السفلة ، وامتثلت أمر المارقين الثفلة ، فأعنتهم على البغي والجور ، وسارعت
في تنجيز مرامهم الفاسد على الفور ؛ من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى
والفقير إطعام عسكركم الذي أوقع بالمومنين الذل والمضرات ، وبلغ في النهب
والفساد غاية الغايات . فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل
بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي . فاستحکم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات
وانقطعت الأسباب . فلذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت
كان بالخير مشمو لا .

« كيف لا ، وأكابرهم أضرمت السوء للمرتزقة في تضيق معاشهم وأخذ
مرتباتهم ، وإتلاف مآب أيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم . وقد أخفتم البلد بعد
أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها . ثم فررتم فرار الفيران من السنور ،
وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور . فواغوثةا ! واغوثةا ! أغثنا يا غياث
المستغيثين ، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين ، وانصرنا وانتصر لنا ، فإننا
عبيدك الضعفاء المظلومون ، يا أرحم الراحمين . »

هذه الرسالة كتبت عقب انهزام المصريين في الوقائع التي جرت بينهم وبين
الفرنسيين في مدينة القاهرة ، والتي خرب بسببها معظم أحياء المدينة . وقد
أرغم الأهالي شيخ السادات على أن ينفق على جانب كبير من المجاهدين . فلما
انتصر الفرنسيون فرضوا غرامات على سكان القاهرة ، وفرضوا على شيخ
السادات ٥٣٥ ألف فرنك .

فذهب إلى داره وصحبه بعض الجنود الفرنسيين لحراسته حتى لا يهرب ،
ثم اعتقلوه في القلعة وكان في نيتهم قتله ، فشفع فيه عثمان بك البرديسي .
واعتقلوا فراشه ومقدمه . وحبسوه في حجرة مظلمة فكان ينام على التراب ،

ويتوسد حجرا . وضربوه ضرباً مبرحاً يومين متتابعين . ثم أنزلوه إلى داره في حراسة شديدة . وكان لديه عشرة آلاف ريال فدفعها للفرنسيين . ثم باع بعض أمتعته ولكن هذا لم يف بالمطلوب . فرجعوا به إلى معتقل القلعة ماشياً وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ، ومثلها في الليل . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها . فأحضروا محل السندوبي تابعه وعذبوه حتى ماين الموت ، فعرفهم بمكانها ، فجاءوا بها وحبسوها معه ، وكانوا يضربونه في وجودها وهي تبكي وتصيح . ثم تشفع المشايخ في نقلها من عنده ، فنقلوها وبقي الشيخ على حاله ، وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوها ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا .

ولما قتل كليبر وخلفه مينو سنة ١٢١٥ هـ أفرج عن شيخ السادات فرجع إلى بيته بعد أن دفع ماسبق أن تقرر عليه ، واستولى الفرنسيون على ضياعه وأوقفه التي كان متنظراً عليها ، وحرموه من مرتباته ، وأمروه بعدم الاجتماع بالناس . وألا يخرج من بيته دون إذن منهم ، كما أمروه بالاقتصاد في أموره ومعاشه ، وأن يقلل من أتباعه .

* * *

وكان السادات^(١) الوفاية يتشبهون بالملوك فيخلعون على أتباعهم الكنى والألقاب مثل أبي الفوز ، وأبي التذاني ، وأبي الإقبال ، وأبي العزم . وكانت لهم مواسم خاصة يحتفلون بها وهي :

(١) الميعاد (٢) مولد المحرم (٣) مولد الحسين (٤) ٢٧ رمضان ، وفيه يمنح شيخ السادات أتباعه ومريديه الكنى .

والطريقة الوفاية التي تنسب إلى مؤسس هذا البيت هي شعبة من الطريقة

(١) انظر بيت السادات الوفاية تأليف توفيق البكري ص ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٤ ،

الشاذلية ولهذا الطريقة حزب مشهور هو حزب الفتح ، يقرأ في بيت الشيخ كل أسبوع . ولها خرقة صوفية خاصة . ولشيخ السجادة تاج خاص يلبسه في المواسم والأعياد .

أما الزوايا التي تتبعهم فهي :

١ - زاوية الرباط وهي بناحية الخرشف . وكانت العادة قديما أن من يتولى مشيخة السجادة الوفائية يتوجه إليها ويمضي بعض الوقت في قاعة خاصة تسمى « قاعة التجلي » حيث تحل فيه الأسرار الإلهية ، كما يزعمون ، ثم يخرج في موكب حافل إلى مسجد الحسين .

٢ - الزاوية الكبرى وهي شرقي الإمام الشافعي ، وقد هدمت في عهد الوالي العثماني عزت محمد باشا سنة ١١٩١ وبني في موضعها مسجد ضخم فخم بأمر السلطان عبد الحميد الأول

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا إذا دخلوا على شيخ السادات قالوا « يامولاي ، ياواحد » فيرد عليهم بقوله « يامولاي يادائم ، يا على يا حكيم » والآن نريد أن نعرف السر في اختيار هذه العبارات دون سواها ، وقد وفر علينا مشقة البحث أحد شعراء السادات حيث قال :

جعلت مدحك يامولاي أورادا	ياواحد العصر يامن بالتقى سادا
قل يا على تجده ناصرا أبدا	يا دائم السر آباء وأجدادا
وإن يقل قائل ما أصل خيرتها	من دون الأسماء للأستاذ أورادا
فكل لفظ آتى قطب الوفاء به	يدريه محترزا من كان نقادا
إذ كل من ذكر اسمها في تضرعه	لله يطلب معنى مابه نادى
فاختار أسماء مولى مابها طلب	لأنه فاق أنجبا وزهادا
لاخوف نار ولا في جنة طمعا	بل يرتجى قربه لم يبلغ إبعادا

أعلى المقامات في التعبيد عندهم يافوز من كان للرحمن عبادا
 وشيخنا القطب فوز الأولياء له أعلى المراتب تسليكا وإرشادا
 ورب عبد غدارقا لطائفة فقال بل واحد مارمت إلحادا
 لا جزء في غير الله يملكه وفيه رد على من رام تعدادا
 وأنه كرر المولى للذته بكونه لمقام العبد قدادا
 فيه دليل على إثبات رتبته قطبا إلى أن وفي لاجور ميعادا
 أو واحدا كان لكن لا دوام له فقال بل دائم جودا وإمدادا
 ودائم لا زوال وهو قابله فقال لا ، بل على والسوى بادا
 ومن تكن هذه الأوصاف فيه فقل هو الحكيم وقد وفيت إيرادا
 أمر الحكيم مطاع لا خلاف له سلم تجمد منه إيجادا وإنجادا
 وكل شيء ففيه حكمة بلغت فضلا وعدلا وإعداما وإيجادا

فالشاعر يقول إن الناس إذا ذكروا الله ذكروه بأسماء وصفات تعبر
 عما تنطوي عليه نفوسهم من رغبة أو رهبة . أما شيخ السادات فإنه
 اختار اسما لا يدل على رغبة في شيء من الأشياء لأنه زاهد إلى أبعد حدود
 الزهد ، ولا يدل على خوف من النار أو طمع في الجنة . وكل ما يجول بخاطره
 هو أن يتقرب إلى الله ، وهذه أعلى مقامات العبادة . وقول شيخ السادات
 « يا واحد » تأكيد منه لوحدانية الله ، وأنه لا يشرك به أحدا ، وإقرار منه
 بالعبودية . ولكن قد يفهم من الواحد أنه لا دوام له ، فلذلك أكد دوام
 الله بقوله « يادائم » ثم رفع من شأن الله بقوله (يا على) ومن كانت هذه
 صفاته فهو حكيم ، والحكمة ظاهرة في كل ما يصدر عن الله وهو مطاع يجب
 أن نسلم إليه أمورنا

هذه هي الأفكار التي من أجلها اتخذ شيخ السادات شعاره السالف
 الذكر في تحية الناس له ، وفي رده عليهم

وقد ردد شعراء السادات هذه العبارات في شعرهم . مثال ذلك قول أحدهم

قت في حضرته مبتهلا فعسى أبلغ من قصدي المراما
قلت يا مولاي يا واحد في وصفه يا دائم الفضل دواما
يا على الشأن عن درك السوَى يا حكما أحكم الأمر احتكاما

* * *

وقد مر بنا أن شعراء مصر اجتمعوا حول شيخ السادات محمد
أبي الأنوار ومدحوه بقصائد كثيرة . وقد جمع الحسن البدرى العوضى
جانبا كبيرا من هذه القصائد في كتاب اسمه « اللوائح الأنوارية » والآن نريد
أن نلقى نظرة طويلة على هذه المجموعة من الشعر انرى ما فيها من الأفكار
التي يمكن أن تضاف إلى خصائص المدرسة العلوية .

فهذا شاعر يقول من قصيدة في مدح أبي الأنوار :

الجوهر الفرد الذى بوجوده أنس الزمان وبهجة الأقطار
محي رباغ الفضل بعد تهذم مروى رياض المجد بعد بوار
قطب الوجود إمام كل موحد سعد السعود نتيجة الأعصار
ملك تدين له الملوك وسيد ورث العال عن سادة أطهار
الله توجه بتاج جلاله وكساه حلة هيبة ووقار
فانزل بواديه المقدس إنه . تجلى السرور ومنبع الأسرار

فالشاعر يقول إن شيخ السادات هو الجوهر الفرد . والشيعه يطلقون
الجوهر الفرد على الحقيقة المحمدية .

وشيوخ السادات أحياء رباغ الفضل بعدما درست معالمها ، وغفت آثارها .
وهو الذى أعاد للمجد رونقه وبهاؤه .

وهو قطب الوجود ، وإمام كل موحد . وهنا تظهر النظرية الشيعية في

الإمامة والإمام . فشيخ السادات الذي هو رئيس البيت العلوي في مصر ،
هو إمام المسلمين وهو الذي يجب أن يسمع له المسلمون ويطيعوا .

وإنك لتجد هذه الفكرة - أي فكرة الإمامة - أو على وجه أدق
إمامة شيخ السادات واردة في كل ما مدح به من الشعر . مثال ذلك
قول أحدهم :

وعش زينة للدهر إنك روحه فما دمت لا ينفى الزمان ولا يُعجى
وإنك للدين القويم ابتهاجه وإنك منهج الحنيفية السمحا
وإنك للإسلام أعظم ناصر فواليتته وُدًّا وأوليته نصحا
وإنك كهف المسلمين وركنهم وملجأهم في كل نائبة قبجا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة أزلت لهم عن كل مشكلة جنحا

فشيخ السادات هو روح الدهر ، وقرة عين الدين الذي أدخل عليه
البهجة والسرور . وهو منهج الحنيفية ، وحارس الإسلام والمسلمين . وقد
جعله الله رحمة للعالمين .

وقال آخر :

وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السند الهمام المجتبي صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذي لم تشتمل أبداً على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يجتار
كنناه مولاه أبا الأنوار إذ من نوره تتولد الأنوار
نولاه مولاه خلافة آله فما به شرف لها وفخثار
بعلاه آمنا فمن يؤمن ينل عدنا ونار لظى لها الكفار
يا صفوة الرحمن من أقرانه يا من له نعم على غزار

فالله اختار شيخ السادات لرتبة الإمامة . فهو الإمام المصطفى الذي
اجتباه ربه . وهو الحقيقة المحمدية ، لا نظيره ولا شبيهه . وهو العروة
الوثقى والآية الكبرى ، والسراج المنير الذي يهدي الناس بضيائه . وهو
مشرق الأنوار ، من آمن به فقد فاز بجنات عدن ، ومن كفر فجهنم
مقره ومثواه .

وقال آخر :

أنعم بها من روضة مأنوسة مخوفة بطوالع الأنوار
أحيا مآثرها الإمام المرتضى صدر الصدور ومطمع الأنظار

وقال آخر :

وأتى أبو الأنوار وارث مجدهم عز البرية فخرها وإمامها

وقال آخر :

يا ابن الأماجد يا إمام المؤمنين فتى وكهلا

فشيخ السادات هو الإمام المرتضى الذي ارتضاه الله واختاره . وهو
إمام المؤمنين فتى وكهلا ، لأنه ورث الإمامة عن آباءه .

وانظر إلى قول أحدهم :

الغيث الغياث يا ابن النبي من عدو وحاسد وغبي
قعدوي يحرف القول عمداً وهو خصمي وليس بالمرضى
وحسودي الكذوب لاشك مغري من خبيث من فتية الأموي

ومنها :

هو نجل السادات آل وفاء كرم الله وجههم بعلى
آل بيت مبرأون من الرج س بنص في المحكم العربي
ملجأ اللائذين غوث البرايا مأمن الخائنين من كل شي
يا إمام التحقيق في كل فن يا مفيد العلوم يا ابن الوصي

أنت حقا باب المدينة للعالم بمحکم الوراثة الشرعی
فالآراء الشيعية ظاهرة في هذه القصيدة ظهورا لاخفاء معه . ففي الأبيات
الأولى نجد تعريضا بالذين قعدوا عن نصرة الإمام علي ، وتعريضا بالأمويين .
وفي الأبيات الأخيرة نجد مدحا لآل السادات الذين هم من ذرية الإمام علي .
وقد طهرهم الله من كل رجس كما نص على ذلك القرآن الكريم . وهم ملجأ
اللائذين ، ومأمن الخائفين . وشيخهم الإمام ابن الوصي ، وهو باب المدينة
للعلم ، وهذا إشارة إلى الحديث الذي يرويه الشيعة وهو « أنا مدينة العلم
وعلى بابها » والشاعر يقول إن شيخ السادات ورث العلم عن علي ، أي أن
العلم انتقل في ذريته إلى أن تسلمه شيخ السادات الإمام المرتضى . والوصية
التي ذكرها الشاعر هي الأساس الذي قامت عليه التعاليم الشيعية .

وقال الخشاب :

لو يستطيع لجوده أغنى الوري والعالم العلوي من آلائه
خلف النبي محمد ووصيه نور السراة الغر من أبنائه
لو كان في عهد النبي ووجوده أمسى مع السبطين تحت عبائه
شهم عليه الله في تنزيهه أثنى فأعيا اللسن حسن ثنائه

فالخشاب يقول في البيت الأخير إن الله مدح شيخ السادات في القرآن
الكريم . وهكذا يقول الشيعة في الأئمة . انظر إلى قول ابن هانيء الأندلسي
في المعز لدين الله الفاطمي :

مهدت بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا
فالقرآن الكريم مدح أهل البيت حين وصفهم بالطهر والبراءة من الرجس .
والخشاب يؤمن بنظرية الشيعة في الوصية ، ويقول إن أبا الأنوار هو الوصي
ولو أنه كان موجودا في عصر النبي عليه السلام لأدخله مع الحسن والحسين
تحت عبائه . وقد سبقت الإشارة إلى قصة العبادة .

وانظر إلى قول محمد بن شبانة :

لبنى الوفا في الكون أعلى رتبة
ورثوا السيادة عن علي جدّهم
هذا هو النسب الذي يعلو على
كالشمس في أفق السماء ونورها
من مثلهم والعلم ميراث لهم
فهو الخيار بنو الخيار وجدّهم
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم
بعد النبي وصحبه الأبرار
باب المدينة قاتل الكفار
كيوان والبدر المنير الساري
نفع الأنام وبهجة الأعصار
كالجدّ حيدرة الرضا الكرار
نخر العلاء وأصل كل نثار
سلمت عقيدته من الأوزار

ففي هذه الأبيات نجد محمد بن شبانة يردد الأفكار التي مرت بنا من القول بوراثة آل السادات للإمام علي ، والإشارة إلى حديث « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وغير ذلك من المميزات التي انفردوا بها ، وأن من أحبهم سلمت عقيدته وصح إيمانه .

* * *

وشيخ السادات هو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن
ملئت جوراً . قال أحد الشعراء :

إذا لم يك المهدي هذا تيقنوا ببطلان ماقد يزعمون فلا مهدي
فإن لم يكن أبو الأنوار هو المهدي الذي ينتظره الناس فلا مهدي إذن
على الإطلاق .

وانظر إلى قول عبد الرحمن الصفاقسي :

وقد بلغت آمالكم سورة الضحى
إذا جاء نصر الله تبت يد العدى
وتبقى لهذا الدين كهفاً وملجأً
وأوصافكم في سورة الفيل تذكر
وقابلها الخذلان من حيث تنصر
وردأ به الإسلام يعلو ويظهر

وتبتهج الأيام بالعدل والهدى
ويصبح داعى النصر فى كل موطن
هنالك يعاو ديننا بمحمد
سلالة خير الخلق من آل هاشم
فقم يا أبا الأنوار لله حسبة
وكن واثقاً بالله معتصماً به
فإنك داعى الحق والحق دامغ
وإنك مهدي الزمان فلا تدع
فلا زلت بالمعروف والخير أمراً
وتصبح أهل الفضل بالفضل تفخر
ينادى على الكفار الله أكبر
على دين إبراهيم بالنسخ يظهر
ومن هو لسر الوفاى مظهر
فإنك فى كل الأمور المظفر
على ثقة بالفوز والله ينصر
لباطلهم وهو الزهوق المتبر
بمصرك شيئاً ماله الشرع ينكر
وتنهى عن الفعل القبيح وتزجر

ففى هذه القصيدة ترى فكرة مهدوية محمد أبى الأنوار واضحة وضوحاً تاماً . وقد أشار الشاعر إلى ماورد فى سورة الضحى من خطاب الله للنبي عليه السلام بأنه ماودعه وما قلاه . وأنه سيعطيه عطاء يرضى معه . وقال إن موقف محمد أبى الأنوار يشبه موقف النبي محمد فى هذه السورة ، أى أن الله سيعطيه ما يرضيه كل الرضا ، فى حين أن خصومه ومنكرى مهديته سيهلكهم الله كما أهلك أصحاب الفيل ، وسينصره نصراً عزيزاً مؤزراً ، فيعلو به الدين ، ويملا الدنيا عدلاً وهداية . ثم التفت الشاعر إلى شيخ السادات وأخذ يجرسه على القيام للجهاد فى سبيل الدين ، فهو داعى الحق ، ومهدى الزمان ، الأمر بالمعروف الناهى عن الفحشاء والمنكر .

وهذا شاعر آخر يقول إن شيخ السادات هو الإمام المعصوم :

الإمام الهمام ذو المجد والقدر الرفيع ذو الآيات

وعصمة الأئمة من النظريات الشيعية المشهورة .

ومن زار شيخ السادات فكأنما زار النبي صلى الله عليه وسلم . قال

أحد الشعراء :

(م ١١ - الأدب المصرية)

لازم أبا الأنوار تحس بعيشة منه هنيئة

ابن النبي فكل من وافاه قد وافى نبيته

وشيوخ السادات هو روح الله . قال أحدهم :

شمس الشموس وسر مرآة السنا روح الإله المنتقى من وهبه

جمعت له متفرق الفضل الذي للأولياء عناية من ربه

وقال مرتضى الزبيدي :

هو روح الإله في كل مجلى هو تاج الجمال والعلواء

وكثيرا ماشبهوا شيخ السادات بالنبي محمد عليه السلام . من ذلك

قول أحدهم :

رقيت سمي المصطفى وابن سبطه مراتب عز قد غدا فضلها جما

تبوات منها رغم شانيك منصبا مكان رسول الله في هاشم قدما

أويذكرون اسمه كما يذكر اسم النبي محمد . مثال ذلك قول أحدهم :

سريره كسيرته وأسنى فيا حسناه إذ يعنى ويقصد

فذاك السيد السند المقدى أبو الأنوار سيدنا محمد

وقول الآخر :

ألا إن حزب الله حزب محمد ومن ذا لحزب الله في الخلق يغلب

وتظهر في هذا الشعر روح التعصب لآل علي وتفضيلهم على من سواهم ،

من ذلك قول الشاعر :

من قال من خير الورى من آخر وأول

أجبتة مؤرخا خير الورى آل على

وقول الآخر :

أقول لمن ضاهى وسيع رحابهم رحاب على لا يضاهيه مرحب

وشيخ السادات يعلم الغيب . قال الخشاب :

له قلم بعلم الغيب يجري وبالأرزاق والقدر المتاح
وزيارة شيخ السادات فريضة كالحج بل أكثر . قال أحد الشعراء :
فلبيته سعى الأفاضل عندهم فرض كفرض الحج في عرفات
والحج مفروض علينا مرة ولبيتهم عدد من الكرات
والعلوية ظاهرة ظهورا تاما في قول الشاعر :

أبنا على والخبير بمدحهم في محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التي في نوعنا زهر بنفح الطيب ساد ثمامه
ونتيجة السادات درة عندهم ومحمد بدء له وختامه

وفي الشعر العلوي نجد كثيرا من الصور الدينية كالحج والطواف والسعي
والوقوف بعرفات وغير ذلك . قال أحد الشعراء :

يا خير من حجت إليه ركائب الـ فضلا تقبل ركنه المحروسا
وتراهو يسعون في مرواته وصفاه لا يلقون منه عبوسا
يقفون في عرفات واسع فضله متأزرين من الخشوع لبوسا
بمهاك حط مفتت الأكباد من شط الديار وقد أناخ العيسا
تهنا بعيد الفطر جاءك زائرا فقريته التسبيح والتقديسا
أرضيت ربك في قنوتك ليله وأغظت في أيامه إبليسا
وقال محمد بن شبانه :

مولى إذا حضر الأفاضل عنده نزلوا نزول الحج في عرفات
يرجون غفران الذنوب جميعها من أكبر الآثام والتبعات

وهنا نجد وجه شبه كبير بين هذه اللدائح وبين اللدائح التي كان ينظمها

الشعراء في الخلفاء والأئمة ، وبخاصة أنها كانت تقال في عيد الفطر أو عيد الأضحى كما كانت الحال مع الخلفاء .

وتكثر في الشعر العلوي الإشارة إلى الآيات القرآنية والاقتباس منها ،
مثال ذلك قول القائل :

هذا أبو الأنوار من أنواره أضحت لأسرار الحقيقة ترشد
ضرب الإله بها المثال لنوره في الذكر من زيتونة تتوقد
وقول الآخر :

له في العالمين لسان صدق وحسن لقائه والله محمد
له قدم صدوق في المعالي ومن مثل ابن خير الخلق مسعد
ومن يرجوه أو يأوى إليه فقد آوى إلى ركن مشيد
وقال آخر :

فصل له شكرا وقيام نحر الفدا وكبر على الأعدا فشانيك أبتـر
وقد زلزلوا بالعاديات وأهلكوا بقارعة فيها مع الصرصر
وألهامو بالعصر ويل خسرم وأحوالهم في سورة الفيل تذكر
والأمثلة على ذلك كثيرة .

* * *

وكان الشعراء في مدائحهم لشيخ السادت ينظرون إلى ما نظم في الخلفاء والأئمة ، ويأتون بما سبقوا إليه من المعاني والصور في هذا الباب .

مثال ذلك قول أحدهم :

وأتى الخلافة بل أتت وما لها عنه مفر

وهذا من المعاني القديمة . وانظر إلى قول السفاقي :

هل تفكون أسيرا من قياد أو تجيرون صديقا من معادي ؟
أوتوالون محبا صادقا وده في كل يوم في ازدياد ؟

أو تراعون حقوقاً أوجبت أن تراعى حقها أهل الوداد ؟
يا بني السادات قوموا بسرعة وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
يا كرام الحى فاجموا حوزتى وامسحوا عن ناظرى كحل السهاد
أنتمو القوم الأولى عاداتهم نصره العانى وإسداء الأيادى
مبتغى العافين فى يوم النداء ملجأ العاصين فى يوم المعاد
يا أبا الأنوار من أنواره أشرفت فى كل أرجاء بهادى
يا سعى المصطفى خير الورى ياسليل السادة الشم الجياد
ياولى العهد من بعدهموا ياعهاد الخير من قبل العهد

إن هذا الشاعر قد ابن هانىء الأندلسى فى قصيدته التى مطلعها :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد
بل إنه سطا على كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه . والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد سلكوا مسلك القدماء فى الغلو فى المدح . مثال ذلك قول أحدهم
سادوا الأنام فلقبوا سادتها من قبل ما ذر الإله نفوسا
وقول الآخر :

فالناس بالتحميد شرف قدرها والله باسمك شرف التجميدا
وقول غيره :

جلت مواهبه وحارت فى مناقبه الفكر

* * *

وشيوخ السادات هو الأمين على سر الرسول . قال أحدهم :
وهو الأمين على سر الرسول ومن سواه من سره زهر المنى اقتطفنا

ثنى عليه بقاع الأرض أجمعها وكل حى صفى ذكره ألفا
وحب آل السادات هو الإسلام ، وهو الدين الصحيح ، والمعتقد الحق .
الذى يؤدى إلى الجنة ، وسواه باطل يذهب بصاحبه إلى النار . قال أحدهم :
فهو أهو دينى وعقد ولائى لست عنه أحول دنيا وأخرى
وقال آخر :

آل طه ذخيرتى للمدح فيكم وأرى جبكم هو الإسلام .
مذ أتانا إلا للوذة تتلى فهو فينا بفضلكم إعلام .
وقال آخر :

من الذين إله العرش طهرهم ومن أحبهمو لن يدخل النار
وآل السادات أمان الخائفين . قال أحدهم :
هو الأمان إذا جار الزمان وإن حار الأنام هو السادات آل وفاق

* * *

وامتازت مدائح الشعراء لشيخ السادات بالإشادة بكرمه المفرط الذى
أزرى بكرم حاتم وغيره . قال أحدهم :

أغنى عن الإكسير جابر فضله وكفى ذويه الحل والتكليس
هذا هو الإكسير لو يلتقى على زحل الفقير أعاده برجيسا
أحيا بغيث نواله أرض العطا فربت وأصبح روضها مأنوسا
وقال آخر :

يهب الجزيل إلى النزيل ويحتمى بجواره العافى من الأضرار
غيث وغوث لايضام نزيله كفل للملا بمحامد الآثار
وقال غيره :

أغنى ذوى الفاقات من كف لها التقبيل عاده .
وسقاهمو من راحة سلمت ودامت فى الزيادة .
فيها العطاء سجية ولحاتم منها استفاده .

وقال آخر :

بجر إذا ذكرت مآثر جوده لاحاتم يبتى ولا همأما

وقال غيره :

وبجود راحتك الشريفة أخصبت للعالمين منازل وديار

* * *

وامتازت هذه المدائح كذلك بالإفراط في الإشادة بعظمة شيخ السادات
وقوة بأسه وهيبته . مثال ذلك قول أحدهم :

خرت لسؤدده الأذقان ساجدة وطاع عن علاه اللين والشرس

وقال آخر :

لولا انحصار الملك فيكم لم تكن في بابكم كل الملوك عبدا

وقال آخر :

تطوف الملوك بأعبابه وتسمى لحرمة إجلاله

وقال غيره :

إذا قابلته ملوك الورى تخر لهيبته ساجده

* * *

وظهرت في بعض هذه المدائح آثار البيئة المصرية . مثال ذلك قول القائل :

علت على غيرها أقطار مصر به فخراً وإشراقها بابن النبي جلى

وقال غيره :

إذا شهبوا في مصر فضلك بالسوى لقد جهلوا والله عزة مقدارك

وقال غيره :

لوجودهم في مصر أوفى نعمة عمت على البلدان والأمصار

سور على مصر رفيع مانع خدمت علاه موانع الأسوار
وقال غيره :

أنارت به مصر السعيدة وازدهت وأصبح فيها للعفاة مقيل
وقال غيره :

وهم روح مصر وقطب رحابها وبهم تم فخرها والنظام
وقال آخر :

عج بالمطى إلى حمى حرم لهم من حله ما مسه إضرار
عرج على سفح المقطم نحوهم تر مشهداً سطعت به الأنوار
هو مشهد قد شوهدت أسراره وتعطرت بعبيره الأقطار
هو كعبة طافت بها أهل النهى وسعت إليها بالصفا الزوار
وقال غيره :

والنيل في طاعاته مهما نهى مهما أمر

وقال غيره :

أرى عملاً جارا لهم وأظنه بأقطابهم قالوا عليه المقطَّب
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم فقال السها قُصِرَ لأنى أقرب
المقطب أى المقطم

* * *

وقد بقيت للمدرسة العلوية وستبقى ما بقي حب الناس لآل البيت . حقيقة
إن مدائح الشعراء لآل السادات قد اختلفت منذ أمد بعيد لأن هذا البيت
قد فقد مركزه الأدبى ، ولكن الشعراء ما زالوا ينظمون القصائد فى بعض
أصحاب الأضرحة من آل البيت .

ويمتاز شعر هذه المدرسة بصدق العاطفة ، وهو عنصر أساسي من عناصر الإجابة . كما يمتاز بكثرة الإشارة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والافتباس منهنما وبنوع خاص الآيات والأحاديث التي تمجد آل علي وتقدسهم وترفع شأنهم ، وتثبت حقهم في الإمامة . كما تمتاز المدرسة العلوية بكثرة تناولها وجودته وبعده عن الصنعة اللفظية . وكان هدفها أولاً التوسل بأصحاب الأضرحة من آل البيت والانتفاع بكراماتهم في تحقيق الآمال ، والفوز ببركاتهم ، والتقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمدح آل بيته . وهذا الهدف ما زال قائماً إلى يومنا هذا .

وأما الهدف الثاني وهو نشر التعاليم الشيعية التي تحصر الإمامة في أبناء علي فلم يظهر بوضوح إلا في زمن الشيخ محمد أبي الأنوار . وذلك لأنه كان على جانب كبير من الثروة والجاه والنفوذ . وربما كانت له مطامع سياسية كان يحلم بتحقيقها . فقد رأينا بعض الشعراء يخلعون عليه لقب « المهدي المنتظر » الذي سيملا الدنيا عدلاً ورحمة بعد أن ملئت جوراً وقسوة . ويبدو أن الرجل كان على شيء من الاستعداد للقيام بدور سياسي . فقد وقف مواقف مشرفة من حسن باشا الجزائري في موضوع أموال إبراهيم بك . ومن بونابرت في موضوع ابن القاضي التركي . وفي الرسالة الشديدة اللهجة التي بعث بها إلى عثمان كتيخدا الدولة . وفي انضمامه إلى الشعب في ثورته ضد الفرنسيين ، وفي إنفاقه الأموال الكثيرة على المجاهدين .

وربما كان حرصه على جمع الأموال والإكثار من العبيد والمماليك يخفي وراءه غرضاً بعيداً ، وهو الرغبة في الاستيلاء على مقاليد الحكم . وقد سخر الشعراء والأدباء ، ومنهم مرتضى الزبيدي ذو الكلمة المسموعة ، للنشر الدعوة لحكومة علوية ، وتمهيد الأذهان لقبول تلك الحكومة وتأبيدها ، وتعريف الناس بحقوق آل علي في الإمامة ، وعلى ضوء هذا

نستطيع أن نفهم قول الجبرتي «... وصار يلبس قاووقاً بعامة خضراء، تشبهاً بأكابر الأمراء، وبعداً عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين»، وقد كانت أحوال الدولة العثمانية في ذلك الوقت مضطربة كل الاضطراب، والثورات تعصف بها، والحركة الوهابية على أشدها. أضف إلى ما تقدم أن نفوذها في مصر كان قد تلاشى تماماً في تلك الفترة. وكان أمراء المماليك يهابونه ويخضعون لأوامره خضوعاً تاماً. ولكن قدوم الحملة الفرنسية وما تلاها من الحوادث التي انتهت بتولى محمد علي حكم مصر قد قطع عليه أحلامه، وسد كل طريق أمامه.

* * *

وامتازت مدائح السادات خاصة بوجود شبه بينها وبين ما كان يقال في الخلفاء والأئمة. ولا شك في أن بيت السادات قد وجه الشعر في فترة معينة وجهة خاصة من شأنها أن ترفع من مقام العلويين، وتعيد إلى الأذهان ما كان ينظم في زعمائهم وأقطابهم.

وينبغي أن نلاحظ أن المدرسة البكرية لم يكن لها نظير في جميع أنحاء العالم الإسلامي. في حين أن المدرسة العلوية كان لها أمثال في بقاع كثيرة حينما وجد أشرف ينتمون إلى آل البيت. وبعبارة أدق إن شيخ البكرين لم يكن له منافس في حين أن شيخ السادات كان له منافسون أقوياء في كل مكان تقريباً. ولذلك فزعامة كانت محلية. وينبغي أن نعلم أن محل أبا الأنوار ظهر في وقت كان فيه شيوخ البكرين قد وصلوا إلى حالة شديدة من الضعف والتخاذل، فلم تكن لهم تلك الهيبة التي تمتع بها أجدادهم منذ أوائل الفتح العثماني إلى نهاية القرن الحادي عشر.

وقد توفي الشيخ محمد أبو الأنوار في أوائل حكم محمد علي . وكانت الدولة العثمانية قد عوّضته عن خسائره الكثيرة التي لحقت به خلال الاحتلال الفرنسي ، فاستعاد ثروته في مدة وجيزة : ولما مات وضع محمد علي يده على تلك الثروة ، ولم يترك شيئاً لورثته ، لا من الأموال الطائلة ، ولا من الأقطان .

وإلى هنا ينتهي الكلام على المدرسة العلوية .

الفصل الرابع

المدرسة الأميرية

سندرس في هذا الفصل الشعر الذي قيل في السلاطين والأمراء ، والولاة والحكام وأصحاب النفوذ والجاه من مدح أو هجاء أو رثاء ؛ محاولين أن نتبين مدى العلاقة بين هذا الشعر وبين المصلحة الشعبية ، وموقف الشعراء من هذه الناحية .

والملاحظ أن الشعراء المصريين كانوا قبيل الفتح العثماني ينطقون بلسان الشعب إلى حد كبير . فقد عرضوا بالسلطان الغورنى لظلمه وعسفه . مثال ذلك قول ابن إياس :

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا فوق مالا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق
وقوله :

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعبا
وصار فى ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا (١)
وقوله :

سلطاننا الغورى فارت عينه لما اشترى ظلم العباد بدينه
لازال ينظر أخذ أرزاق الورى حتى أصيب بأفة فى عينه
ومع أن الشعراء قد عرضوا بالغورى هذا التعريض العنيف ؛ إلا أنهم

(١) إشارة إلى قاعة نخبة اسمها « نصف الدنيا » هدمها الغورى واستولى على ما بها من الرخام سنة ٩١٠ هـ

جميعاً وقفوا في صفه حين خرج لقتال العثمانيين لأن المصلحة الوطنية كانت تقضى عليهم بذلك . فمدحوه بالقصائد الجيدة ، وتمنوا له النصر على أعدائه .
مثال ذلك قول ابن إياس :

قل لابن عثمان إذا قابلته اقبل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شامنا بجماله يخشى عليك اللدغ من ابن الحنش (١)
وقال :

ياسليم شاه كُفَّ عن أخذ مصر بلد شرفت بخير إمام
فهو ششافعي قطب ولى نجل إدريس عمدة الإسلام
هي تدعى كنانة من غزاها قسم الله ظهره بالحسام
فابن إياس يناشد السلطان سليم أن يكف عن غزو مصر ، ويحذره تارة من ابن الحنش ، وأخرى من الإمام الشافعي . ولما تم الغزو العثماني وسقطت الدولة المصرية ناح الشعراء وبكوا . مثال ذلك قول محمد بن قانصوة :

كان في مصر ملوك أظهروا فيها العجائب
ذهبوا عنها وصارت دورهم فيها خرائب
وهي أضحت بعد عز قرية في حكم نائب

وقال بدر الدين محمد الزيتوني من قصيدة زجلية طويلة :

نسأل الله أن يحسن العاقبه ويعيد الراجح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ التار ويرد الكسره على الكافر
اشتهى التار لقتلة الغورى ولعسى أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عندي ويغنو على وتر أوطار
بعد هذا ما يخشى غراب البين إن زعق في ديارنا أوطار

(١) ابن الحنش . هو ناصر الدين ، من أمراء الشام ، وكان قد أوقع بالعثمانيين هزيمة كبرى بالقرب من دمشق .

وقال ابن عباس :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ومصيبة عمت بليتها الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأى إليها عسكر سيأهمو حلق الذقون ولبس طرطوريرى
لا يعرف الأستاذ من غلمانه وأميرهم بين الأنام تحقرا
جل الإله مصدقا عما حكى فى سورة الروم العظيمة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صادقا أن ابن عثمان يلى وكذا جرى

فابن عباس يبرى على سقوط مصر فى أيدي العثمانيين ، وعلى اندحار
الجيش المصرى . وقوله من الأتراك أى من للماليك الأتراك . ثم يعرض بعساكر
العثمانيين الذين امتازوا بحلق لحاهم . ويشير إلى ما جاء فى سورة الروم من قوله
تعالى « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى
بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد » وكان يطلق على العثمانيين اسم
« الروم » لأنهم سكنوا بلاد الروم . ويقول إن الله أخبر فى هذه الآية أن
الروم ، أى العثمانيين ، سيدخلون مصر ويحكمونها . وهذا تفسير لم يقل به
أحد من قبل .

أما محمد بن قنصوة فإنه أعرب عن ألمه وحزنه لأن مصر فقدت سيادتها
واستقلالها ، وأصبحت ولاية عثمانية يحكمها والى ينوب عن السلطان العثمانى .
والزيتونى يتمنى أن يثار للغورى من قاتليه ، ويرى أن عار الهزيمة
لا يمضى إلا بذلك . فإن تحقق له هذا فإنه يستحق التهئة ويقم الأفراح
والليالى للملاح .

هذا هو موقف الشعراء من الغزو العثمانى . فالى أى حد عبروا عن آلام
الشعب وأحزانه ؟

لقد ارتكب العثمانيون من الفظائم ما لم تر له مصر نظيرا من قبل .
قتلوا وأسرفوا فى القتل . وخربوا وأمعنوا فى التخريب ، ودمروا وأفرطوا فى

التدمير . هدموا القصور حتى زالت أحياء كاملة . واعتقلوا عددا كبيرا من الأعيان والعلماء والتجار ونفوسهم إلى الأستانة ، ولم يرحموا في ذلك الشيوخ الكبار الذين أنهكتهم الشيخوخة وأضناهم المرض . ثم نقلوا عددا كبيرا من الصناع . ونهبوا مقادير عظيمة من التحف والنقائس . فلا عجب إذا تألم الشعب وحزن حزناً عميقاً لهذه الأحداث الجسام التي نزلت به . ولا شك في أن الشعراء كانوا مصورين لنفسية الشعب إلى حد بعيد .

* * *

ولما مات السلطان سليم فرح المصريون ورأوا في ذلك انتقاماً إلهياً .
انظر إلى ابن إياس حين يقول من قصيدة :

وأراد الخلود من ملك مصر قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنا سهام الدياجي بدعاء فيها يفوق النبلا
بعد ما جار في الأنام بقتل من جيوش تدك منه الجبالا
فاستجاب الدعاء ومن علينا بانفراج الهموم جبل تعالي
وأثنتنا أخباره بزوال صيرت رشده حقيقا ضلالا
زال عنا بموته بجمرة دون حرب وكفى الله المؤمنين القتالا

فابن إياس يعبر عن فرح المصريين بموت السلطان سليم ، ويقول إن سهام الدياجي - أي دعاء المظلومين - هي التي أهلكت سليماً بعد أن طغى وبغى ، وظلم وأفرط في الظلم . فاستجاب الله دعاء المظلومين وأصيب سليم بجمرة أي ورم خبيث قضى عليه . ولكن هل انقضى حكم العثمانيين بوفاة السلطان سليم ؟ كلا ، فنظرة الشعراء كانت محدودة بشخص الساطان المتوفى .

وكذلك نجد المصريين قد فرحوا بموت خير بك أول من ولي حكم مصر من قبل العثمانيين . وذلك نظراً لما سار عليه في حكمه من الظلم الشنيع

وعبر ابن إياس عن فرح الشعب بقوله :

اعجبوا من نائب في مصرنا خانة الدهر وجازاه العمل
زال عنه الملك والمال معاً وأتاه الموت يسعى بالعجل .
وقال على لسانه :

أصبحت بقعر حفرة مرتهنا لا أملك من دنياي إلا كفننا
يا من وسعت عباده رحمته من بعض عبيدك المسيئين أنا
ولكن بعض الشعراء تجاهلوا المصلحة الوطنية وقبلوا أن يكونوا دعاة
للظالمين فسخروا شعرهم في مدح هذا الوالي . وربما فعلوا ذلك لمنفعتهم الذاتية
أو دفعاً للشر . وهم على كل حال لم يعبروا عن رأى الشعب .

* * *

ولما آل ملك العثمانيين إلى السلطان سليمان ، مدحه الشعراء المصريون .
وكان سليمان قد اشتبك مع المسيحيين في عدة حروب وانتصر عليهم ، وأخضع
بعض البلدان لحكمه . فرأى المصريون في ذلك انتصاراً للإسلام على أعدائه
لذلك فرحوا بانتصار سليمان الذي أعمل سيفه في رقاب المشركين ، وأدخل
بلادهم في حوزة الإسلام . قال مجد بن قانسوة من قصيدة :

أفدى سليمان من مليك ليس له في الورى مقاييس
أنكبرسا داسها وهدت من دوسه وهو خير دايس
ومنه صارت خير دين مدارساً أمحت الكنائس
وبعد في رودس ستبدو وتمحق أهلها النجائس
وهو بسيف الله نصر في عنق المشركين مايس

لقد نسى المصريون استقلالهم ، وأضحوا ينظرون إلى مصيرهم ،
لا من الناحية الوطنية ، بل من الناحية الدينية . ولما كان السلطان العثماني
هو القائم بالجهاد ضد المسيحيين ، وهو وحده القادر على حماية المسلمين ؛

لذلك كان احترامه واجباً مقدساً على كل مصري . والخروج عليه كفرآ
وبغياً . نرى ذلك واضحاً حينما حاول أحمد باشا الملقب^(١) بالخائن الاستقلال
بمصر سنة ٩٣٠ هـ فقد خرج عليه الأمير جانم الحزاوي ونصب علماً سلطانياً
ونادى : من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت هذا العلم . فلبى نداءه
خلق كثير ، وبذلك استطاع أن يقضى على أحمد باشا ويعيد مصر إلى
نفوذ السلطان .

وكان تقديس المصريين واحترامهم للسلطان العثماني يزداد على مر الأيام .
انظر إلى قول أحد الشعراء حين قتل السلطان عثمان وهو :

قتلتمو عثمانكم وختتمو إمامكم
ألم تخافوا فتنة تاريخها ظلامكم

ونجد الإسحقى يصف محدثي الفتنة في عهد الوالي محمد باشا سنة ١٠١٦ هـ
بالخوارج ، فيقول^(٢) « فما وجدت الخوارج للحرب طاقة » ، وقد وصف
الشعراء هؤلاء الثوار بالبغياة والخوارج . قال أحدهم :

بشرى لمولانا الوزير محمد فهو الذي بذوى المفاسد يفتك
وعلى البغاة له انتصار دائم تاريخه جمع الخوارج أهل كوا
وقال آخر :

إن البغاة المارقين قد رمى رب العباد كيدهم في نحرهم
وقد راعى بونا برت حين جاء إلى مصر هذه الناحية وقدرها حق
قدرها . فنراه يذكر في منشوراته السلطان العثماني مقرونًا بعبارات الإجلال

(٢ ، ١) الإسحقى ص ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٠ هـ
(م ١١ الأدب المصري)

والتعظيم . من ذلك ما جاء في منشوره الأول : « ومع ^(١) ذلك الفرنسية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني . وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه » ، « ومع ذلك إن للمماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره » إلى أن قال « والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثماني » .

ولكن الشعر الذي قيل في السلاطين العثمانيين قليل جداً لا يكاد يذكر . وذلك لبعده المسافة بين شعراء مصر وهؤلاء السلاطين . ومن المؤكد أن شعراء مصر لم يمدحوا أحداً من السلاطين كما مدحوا السلاطين عبد الحميد الثاني .

* * *

أما العلاقة بين الشعراء والولاية فكانت تختلف تبعاً للظروف . فإذا اشتهر الوالي بالعدل والنزاهة والاستقامة لهجت الألسن بمدحه والثناء عليه وإذا سار على غير ذلك تعرض للهجاء . مثال ذلك أويس باشا الذي ولي مصر سنة ٩٩٥ هـ ففي زمنه « حصلت ^(٢) الفتن ، وتحركت العساكر ، وقتل من قتل ، وهرب من هرب . وحدثت المطالب وكثرت المناهب من وجوه شتى » فلما مات هجاه بعضهم بقوله :

أهلك الله أويساً إنه جار في الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تجبر واعتدى وبه الظلم تبدى في مزيد
أهلك الحرث وكم من فتنة أممها بالجهل فيما لا يفيد
مذ دهاه الموت ما أفلته لا ولا كان له عنه حميد
خاب سعيًا بوفاة أرخسو ها وخاب كل جبار عنيد

(١) الجبرتي ٣/٥ طبع بولاق

(٢) الإسحقى ص ٢٢٢

وكان كثير من هؤلاء الولاة يجيدون فهم اللغة العربية والأدب العربي .
تذكر منهم عبد الله باشاً الكبير الذى ولى مصر سنة ١١٤٢ هـ فقد قال
فيه الجبرتي « وكان من أرباب الفضائل ، وله ديوان شعر جيد على حروف
المعجم . ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب . وكان إنساناً
خيراً صالحاً ، منقاداً إلى الشريعة . أبطل المنكرات والخمير ومواقف
الخطاى والبوظ » وقد مدحه عبد الله الشبراوى بقصيدة تذكر منها :

أقام العدل في مصر وأحيا معاملة بها بعد الدور
وساس الملك دهرأ فاستقامت بقوة عزمه كل الثغور
ويقضى في البرية لا بظلم يعاب به القضاء ولا يجور
تجمعت المحاسن فيه حتى لعمر أبيك فاق على كثير
سجيته إقالة مستقييل وهمته إجارة مستجير
وإن حادثته في العلم تلقى مجوراً موجها دُرَّ النحور
وإن ساومته شعراً فحدث عن ابن ربيعة أو عن جرير
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور

في هذه الأبيات تأييد لما قاله الجبرتي عن هذا الوالى . قال الشبراوى
يشيد بعدل الممدوح وكرمه ، وتمكنه من الشعر ، وإقباله على العلم . قال
الجبرتي « وله ديوان وتحقيقات . وكان له معرفة بالفنون والأدبيات
والقراءات . وللشيخ عبد الله الشبراوى في مدحه قصائد طنانة » وقد
رجعنا إلى ديوان الشبراوى فلم نجد به سوى قصيدة واحدة . فلعل باقى
القصائد قد سقطت من الديوان . ثم قال الجبرتي « وأخذ المترجم عن العلامة
الشيخ أحمد العماوى الكتب الستة ، والمواهب ، وألفية المصطلح رواية
ودراية وإجازة » .

ومن هؤلاء الولاة محمد باشا راغب الذي ولى مصر سنة ١١٥٩ هـ
ينظم الشعر بالعربية . وألف رسالة في العروض . وله كتاب « سفينة
ودفينة الطالب » ومنتخبات الوزير محمد راغب . وقد مدحه
الإدكاوى بقصيدة منها :

الوزير الماجد المفـضال وهـاب الرغائب
والذى من بحر كفيـنـه سحاب الجود صائب
والذى للعلم منـه والندى لم يخل طالب
والذى قد جمعت فى ذاته أسنى المناقب

وقد وصفه الجبرتى بقوله « وكان إنساناً عظيماً عالماً محققاً » ويـ
كان محسناً إلى الأدباء والشعراء ، فلذلك مدحوه . أما مدة حكمه
كلها فتن وقلقل . وكان هو المعرض على هذه الفتن ، إذ شجى
للمماليك ضد بعضهم الآخر ، فنشبت بينهم معارك دامية . وقد
الشعراء ذلك لأن هذه الفتن كانت وبالاً على المماليك وحدثهم فقد أذ
وهذا يتفق مع مصلحة الشعب . وهذه الفتن وللمعارك سببها التنا
السلطان ، والطمع فى التملك ، ورغبة طائفة معينة فى الاستئثار
البلاد .

ومن لهجت الألسن بمدحهم على باشا الحكيم الذى ولى مصر
الأولى سنة ١١٥٢ هـ والثانية سنة ١١٦٩ هـ وفيه يقول الجبرتى
أيامه أمناً وأماناً . والفتن ساكنة والأحوال مطمئنة « وقال « وسـ
للعهودة ، وسلك طريقته المشكورة المحمودة . فأحيا مكارم الأ
وأدر على رعيته الأرزاق بحلم وبشر ربيّ عليهما فكانا له
وصدر رحيب لا يضيق بنازله ذرعاً » وقد مدحه الإدكاوى بـ
تذكر منها :

ألا أيها الوزير ياسمى القـد ر ومن أيد الإله فخاره
والجليل الكبير والفاضل . النجـد ر عين الملا وصدر الوزاره
والمشير المشـار في دولة المـجـد د إليه حقاً بكل إشاره
والكريم المهيمـن في ذات مولا ه إلى كل بأس ديناره
والذى جعل الإله به الدهـر ر فأضحى فريده مختاره
والسنى الأخلاق والطاهر الأء راق لله ما أعزّ نجاره
والوفى الحفى قولاً وفعلـاً كم طريد لجأ إليه أجره
والمشير الحروب في نصر دين الله ه بالسمر والظبي البتاره
والمجلى الكروب إن أدهش الـ أبطال وقع العسالة الخطاره
كم له من وقائع في أعادى الله ه ذاقوا منها ردى وخساره
فسل الفرقة الروافض تنبـيـك ك ببأس له يقـد الحجاره
من سطاها بالسنة اعتصموا منـد ه فأولاهم الأمان بشاره
وسل المشركين كم شن فيهم وعليهم من غارة بعد غاره
كم صياص قد هدها ونواص مدها كالتيوس وقت الجزاره
فجزاه الإله عن نصره الدين جزاء ينى بربح التجاره

.... الخ

وقد كان على باشا الحكيم قائداً مقداماً ، حارب في إيران وأوروبا
وظفر بالنصر تلو النصر . لذلك رأينا الأذكوى يتغنى في شعره بهذه
الانتصارات .

فما تقدم نرى أن شعراء مصر في ذلك الوقت لم يكونوا مجرد مادحين
مأجورين ينظمون القصائد في مدح الظالمين . بل كانوا معبرين عن رأى
الشعب فمدحوا من استحق المدح ، وهجوا من استحق الهجاء .

نتقل بعد ذلك إلى العنصر الثالث الموجه لهذه المدرسة ، وهو عنصر المماليك . وكان هؤلاء القوم في شغل شاغل عن الأدب وأهله بالحروب والفتن والدسائس التي لم تحمد بينهم قط . وكانت الدولة العثمانية تعمل على تمزيق شمل المماليك وإضعافهم بإثارة هذه الفتن فيما بينهم .

وكان الشعب المصرى يصاب من جراء هذه المعارك بخسائر فادحة متلاحقة فى الأنفس والأموال فمن لم يمت قتلا مات جوعا، ومن سلمت دأره نهب أمواله . وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر وبخاصة عند الشاعر حسن البدرى الحجازى الذى جعل هذه المعارك وما يترتب عليها من تخريب وتدمير موضوعاً لشعره . مثال ذلك قوله فى فتنه وقعت سنة ١١٢٢ هـ وهو :

دامت عليها مدة مديدة	فى كل وقت هو لها يجدد
أيوب والإفرنج والباشا كذا	عهد الصعيد بيك الأفسد
قد فعلوا مناكرا شنيعة	بأهلها تفت منها الأكبد
ضرب مدافع ودور حرقت	وسادة قد قتلت وأعبد
وفى الرعايا القتل والنهب فشا	والجوع والظما ومالا يعهد
وجملة القول عن الذى جرى	لا تسألن فشرحه لا ينفد
والعلماء أهل الضلال والردى	لهم أباحوا كل مالا يحمد
وبعد ذا أيوب والصعيد مع	من صحبافروا بليل لا هدوا
ودور أيوب جميعا نهبوا	نهبها ذريعا ما عليه أزيد
ودور من ناصرته حتى غدا	للجوم فيها مقعد ومرقد
وبعده الإفرنج جهرا قطعوا	وكل من شايعه قد أخذوا
والباشا المعكوس قهرا أنزلوا	من قلعة ولعنة قد زودوا
وابتهجت مصر وسر أهلها	وانشرحوا وانبسطوا وعيدوا
تبارك الله مبيد من طغى	ومن بنى ومن نكيرا يقصد

عرض حسن البدرى الحجازى فى هذه القصيدة بالعلماء ووصفهم بأنهم
أهل الضلال . وذلك لأن كل فريق من المتخصصين استطاع أن يأخذ من
العلماء فتوى بجوار قتال الفريق الآخر تحت التهديد والوعيد . والباشا الذى
أشار إليه الشاعر هو خليل باشا الذى أوقد نيران هذه الفتنة الكبرى التى
استمرت طويلا ، وعانى الناس فيها كثيرا من البلاء .

* * *

وقد اشتهرت قلة من هؤلاء المهاليك بحسن السيرة . نذكر منهم إسماعيل
بك إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ هـ فقيد وصفه الجبرتى بقوله « وكانت أيامه
سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقاليم فى أمن وأمان من قطاع البلد وأولاد
الحرام . وكان صاحب عقل وتدبير ، وسياسة فى الأحكام ، وفطنة وفراسة
فى الأمور . ورثاه الشعراء بمرث كثيرة » نذكر منها :

وكان جديراً بالرئاسة والعلو فقد سار فينا سيرة سارها عمر
وكان له حزم ورأى ومنعة ولكن إذا جاء القضاء على البصر
به غدر الجبار جر كس ما كرا فعما قليل سوف يجزى بما مكر
أسر له كيدا به كان حنقه بديوان مصر بئس والله ما أسر
فقطعه إرباً وسيق لجنة وقاتله ظلما يساق إلى سقر
فمن بعده الأذئاب فوق الروس قد علت وعلى الأشراف قد جاء محترق
تقدمت الأندال لما تأخرت صناديدها هذا لعمرى من الكبر
ألا فى سبيل الله قامت قرودها ونامت سراحين المعارك فى الحفر
فأين جبان القلب من أسد الشرى وهيات أم أين الذوات من الصور
وقال آخر من قصيدة :

يا عين جودى بدمع هامل ندما على الذى كان فى مصر لنا سندا

يا أهل مصر بكاء واندبوا رجلا مهذبا مثله في العز ما وجدنا
فكم أغاث فقيراً من ظلامته وأبدل الجور عدلاً والفسوق هدى
فالآن حق لكم ذوب الفؤاد أسي فقد فقدتم وحق الله كل ندى

ولما بلغ خبر وفاته أهل مكة والمدينة حزناً شديداً ، وصلوا عليه
صلاة الغائب . ولا شك في أن هذا الشعر الذي نظم في رثاء إسماعيل إيواظ
يصور نفسية الشعب الحزين الباكي أحسن تصوير . ويعبر عن حقه على
قاتله والرغبة في الانتقام منه . وفي القصيدة الأولى يتألم الشاعر لما وصلت
إليه أحوال البلاد بعد مقتل إسماعيل إيواظ من اختلال الأمور ، فقد ارتفع
الأوغاد والسفلة ، وتصدر للحكم من لا ضمير له ولا ذمة .

* * *

واشتهر بعض للماليك بميله إلى الأدب وتشجيعه للأدباء . من هؤلاء الأمير
كتخدا رضوان الجلفي المتوفى سنة ١١٩٢ هـ وفيه يقول الجبرتي « واعتكف
المرجم - يعنى الأمير رضوان - على لذاته وفسوقه ، وخطاياه وترهاته .
وأنشأ عدة قصور وبالغ في زخرفتها وتأنيقها ، خصوصاً داره التى أنشأها على
بركة الأزبكية . فكان ينتقل فى تلك القصور ولا سيما فى أيام النيل ويتجاهر
بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح . وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد ،
وخرجوا عن الحد فى تلك الأيام . ومنهم أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى
أفاعيلهم . فكانت مصر فى تلك الأيام مراتم غزلان ، ومواطن حور وولدان
فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب . وقصدهم
الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح وأعطاهم الجوائز السنية .
وداعب بعضهم بعضاً فكان يغرى هذا بهذا ، ويضحك منهم ويباسطهم .
واتخذ له جلساء وندماء ، منهم الشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدي ،
والشيخ مصطفى اللقيمي الدمياطي صاحب المدامة الأرجوانية فى المدائح

الرضوانية ، وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة . وللشيخ
عمار القيروانى مقامة مدحا فى المترجم ومداعبة للسيد حمودة السديدى المخلوى .
وأجابه بأبلغ منها مقامة وقصيدة من رويها أديب العصر الشيخ قاسم بن عطاء
الله المصرى ، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوى ، والعلامة السيد
قاسم التونسى . وألف فيه الشيخ عبد الله كتابا سماه « الفوائح ^(١) الجنانية
فى المدائح الرضوانية » جمع فيه مامدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف
وتواشيح » .

وقال الجبرتى « وأنشأ - يعنى الأمير رضوان - قصرا فى الأزبكية له
قباب عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد ، والزجاج الملون والألوان
الزاهية ، والصنائع الدقيقة . وبني قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى
وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ،
ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار ، وبني قصرا آخر بداخل البستان مطلا
على الخليج . فكان يتنقل بين هاتيك القصور وبخاصة فى أيام النيل » .

وإذا استعرضنا المدائح الرضوانية ألفيناها تزخر بذكر الرياض والغياض
والنسيم العليل ، والهواء البليل ، والأزهار والأطياري ، والأنس والطرب ،
والفرح والسرور ، والخور والولدان ، والأدواح والأغصان ، والأشجار
والأوراق ، والحسن والجمال ، والروائح الزكية ، والكاس والطاس وغير
ذلك مما أوحى به البيئة . مثال ذلك قول مصطفى أسعد اللقيمى الديمقراطى
المتوفى سنة ١١٧٣هـ

بشرى الربيع الزهى وافت بشأره وعن حلاه البهى نمت سرائره
ونشر روح الصبا أهدي لنا خبرا من طيبه فاح فى الأفاق عاظره

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٤٨٧ - أوب

ومالت القضب والأطيار قد صدحت
وجاء في حلة الإبداع مبتهجاً
فسر مقدمه الحالى أذا شجن
وروحه بمعانى الحسن قد علقت
وروضة لنجوم الزهر جامعة
قامت بها أمراء الدوح خاطبة
رام الخلافة كل إذ علا وسما
فالورد قام بدعواها فشوكته
والبيان وافى بتاج الملك منتصباً
والأقحوان بدا يزهو بهجته
وانترجس الغض ينونحوها شزراً
قال الشقيق حويت الفخر أجمعه
وقد تبسم من عجب أزاهره
يختال تيباً به حفت عساكره
يهيجه من معانى الدوح ناظره
وفى صفاه فكم تسعى خواطره
وزهرها مفرد فى الحسن ساثره
مقام عز تسمى منه فاخره
من فوق منبره الزاهى منابره
قوية حينما سئلت خناجره
وقال من رامة حكما أنظره
وحوله زمر قامت تناظره
لأنه طالب للملك ناظره
والملك حق الذى تسمو مناخره

وهكذا استمر الشاعر فى سرد مناظرة بين الأزهار المختلفة ، ثم تخلص
من ذلك إلى مدح الأمير رضوان .

وله من قصيدة أخرى :

وهات لي حديث الازبكيه وما حوت أدواحها الزكيه
حسناً زهت أرجاؤها السنيه إذ لاح فى غرتها البهيه
قصور رضوان العلا والمجد

يا حبذا معاهد حسان يغنيك عن وصفى لها العيان
قد حل فيها الحور والولدان حصباؤها الياقوت والمرجان
فانظر تراها جنة كالخلد

فكم بها من دوحه أنيقه وروضة أغصانها وريقه

وربوة أنهارها غديقه ومرجة أزهارها عبيقه
من نرجس وسوسن وورد
الح

والأمر الثاني في هذه المدائح هو احتواؤها على وصف القصور التي
شيدها الأمير رضوان . مثال ذلك حمودة السديدي :

بناء كأن المجد هندس شكله بروض رياض راق فيه غدير
وضاعت مبانيه على قبة السما وأضحت أيادي النصر فيه تشير
إلى اليمن والإقبال والسعد وللني ووجه التهاني بالأمان جدير
يفوق على أعلى السماكين نوره كذا البدر من أنواره لمينير
فليس يرى في مصر مثل بنائه وليس يحاكي حسن ذاك قصور
ويشرح منا الصدر رونق حسنه كأن سناه بالدواء خبير
لقد خلته دار النعيم لأنه به الحور كم زفت لهن بدور

فالشاعر يقول إن هذا القصر بلغ أقصى درجات الفخامة والإتقان
والجمال . ولا يوجد في مصر كلها ما يضارع قصر الممدوح في العظمة والسمو
والحسن . وهذا القصر كأنه الجنة لما به من أنواع الترف وأسباب السعادة
واللذة ، ولما به من الحور والولدان ، والجداول التي تجري من تحته ،
والحدائق التي تحيط به .

والأمر الثالث هو الإشادة بمناقب الممدوح وخاصة ما عرف عنه من
كرم . مثال ذلك قول يوسف الحفناوي للتوفي سنة ١١٨٧ هـ :

مولاي بل مولى الأنام وملجئى رضوان ذى الجاه العلى الأرفع
غوث العفاة وغوث كل مؤمل وأفى الرحاب بذلة وتخصع
عند العطاء يريك بذل يمينه سمحاً سحائب جوده لم تقلع
بطل إذا لمعت بوارق سيفه غربت سوارم كل شهم أشجع

تغنيه شدة بأسه وسطاه عن
مولى إذا شاهده وسمعته
أنست به الأيام ما قد أسلفت
من أين للأمم السوالف سيد
لو يبذل الدنيا استقل عطاءه
أو أين للجلفى قرم مشبه
هيات لم تلب النساء مثاله
حمل الظُّبى بل ذاك أعظم موقع
أغناك عن مرأى سواه ومسمع
من كل قرم أو جواد مسرع
بالبشر يلتقى الوافدين إذا دعى
لرفيع همته التي لم تشفع
يردى العتاة بئأسه المترفع
وسواه بالعلياء لم يتمتع
وهكذا كل ما نظم في رضوان من المدح لم يخرج عن هذه المعانى .
واشتملت هذه المدائح كذلك على الغزل ووصف الحجر . مثال ذلك
قول أحدهم :

في حب ريم من الأتراك منفرد
ما ماس من خفر يثنى معاطفه
ولا بدا وجهه في ليل طرته
إن فاه مال إليه العقل مختطفا
بدر أدار من الصهباء شمس ضحى
يسعى بها وسلاف التيه يعطفه
يلقى على كأسها من نور وجنته
راح إذا مازجتها الراح من فمه
في الحسن والالطف زان الخلق بالخلق
إلا اختفى منه غصن البان في الورق
إلا أراك سناه الشمس في الغسق
بمسمع لشهى اللفظ مسترق
يلوح للأؤها في الكاس كالشفق
ما بين مصطبح منها ومغتبِق
أشعة قد هدتنا أوضح الطرق
تعود سكرى بذاك القرقف العبق
وهذا الشعر من وحي البيئة . فقد انتشر الغزل في فتيان الترك وفتياتهم
في ذلك العصر .

ومن أمراء المماليك الذين ظفروا بمحظ وافر من مدائح الشعراء :
عبد الرحمن كتبخدا المتوفى سنة ١١٩٠ هـ صاحب المبانى الكثيرة التي أشرنا
إليها حينما تكلمنا عن الحالة الاجتماعية . فمن ذلك قول الإدكاوى يمدحه
ويهنئه ببناء شيدته :

أشموس أشرقني أم نجوم أم وجوه بها تزول الهموم
وقدود تميم أم ذى غصون في رياض أمالهن النسيم
وجنان تزهو وإلا بناء شاده للماجد الهمام الكريم
الذي عز أن يدانيه خلق في المعالي وهل يداني العظيم ؟
والذي نخص بالفخار ولكن بره للعفاة بر عميم
هو عبد الرحمن ذو المنصب الشامخ دامت له المعالي تروم
سيدي هكذا تكون المباني فاطرح ذكر ما بنته الروم
مجلس زخرفته كف صناع أخل الروض عقده المنظوم
مجلس طائر السرور لديه أبد الدهر ساجع لا يريم
مجلس فيه النواظر ملهى وبه الحظ والهناء مقيم
بالبناء الجديد أسعدك الله ولازلت في نعيم يدوم

* * *

ومن شجعوا الأدب الأمير جاویش الخربوطلى . ولما زوج بنته لعلی
بك الكبير نظم الشعراء قصائد في مدحه وتهنئته . فمن ذلك قصيدة
للادكاوي مطلعها :

وصل الحبيب وصح منه الموثق واغتاض عاذلى الجهول الأحق
ووفى بموعده لهذا لم أقل وعد الزيارة قلبه المتعلق
ثم تخلص من الغزل إلى المدح فكان مما قاله :

أعنى أمير المجد مأمول الجدا من أمه لاشك فهو موفق
ذاك الأمير على المقدار من بلواء عليها السيادة تخفق.

ذو العزة القعساء والمهم التي بذيوها راحى المتنى يتعلق

..... الخ

أما بعد فليس هذا الفصل جديدا في الأدب ، وإنما هو امتداد لما نظمه الشعراء في الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والوزراء .

ويبدو مما مر بنا في هذا الفصل أن هذا الشعر لم يندثر في خلال العصر العثماني كما يتوهم الناس ، بل ظل محتفظا بمكانته التي شغلها من قبل . وهو في معظمه جيد العبارة ، قوى الأسلوب ، بعيد عن التكلف ، يحمل طابع البيئة المصرية .

الفصل الخامس

المدرسة الشعبية

هذه مدرسة قديمة عرفت في مصر قبل العصر العثماني . وفي مطلع هذا العصر نرى من شعرائها :

١ - ابن إياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠ هـ فقد نظم شعراً كثيراً باللغة العامية في أغراض مختلفة . مثال ذلك قوله :

كان ابن عثمان منجاً مصر مثل الضيف رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا في الشتا والصيف أطراف اقلامهم تفعل فعال السيف
في هذين البيتين صور ابن إياس آلام الشعب وماعانا من ظلم الحكام
وعمال الخراج الذين لا ينقطعون عن تحصيل الأموال حتى استنزفوا دماء
المصريين وأذاقوهم الجوع والخوف . وفي قوله « أطراف اقلامهم تفعل
فعال السيف » تصوير رائع لإفراط العمال في إيقاع المظالم بالشعب .

٢ - ومن معاصري ابن إياس ، زجال مشهور ، هو بدر الدين الزيتوني
(٨٣١ - ٩٢٤ هـ) كان أحد نواب السادة الشافعية ، فاضلاً عارفاً بصناعة
القضاء والتوقيع ، ماهراً في الخطب ، فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،
علامة في فن الأزجال ، والموشحات ، والموالييا ، وكان وكان ، والقوما .
وله قصيدة طويلة من فن الزجل في مائة وعشرين بيتاً ، رثى فيها السلطان
الغوري وسرد ما حدث من المعارك بين الجيش المصري والجيش العثماني ،
نذكر منها :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجومو طالع ساير
وبهذا رب السما قد حكم والملك دار ولم يزل داير

خامس عشر من ربيع آخر تسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادي شافع الخلق في نهار القيام
كان خروج السلطان بتجريده لابن عثمان طالب بلاد الشام
والأمارة في خدمتو موكبين بالماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهره كان بتقدير الواحد القاهر
في محفه خرج معو القاضي وكاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب هو مجد فعلاو الجميل محمود

.... الخ

وقد حرص الزيتوني على أن يسجل في هذه القصيدة كل ما شاهده منذ
خروج الغوري إلى اللحظة التي قتل فيها . وحدثنا عن ألمه وحزنه لما حل
بالجيش المصرى من هزيمة . ثم عزي نفسه بذكر القواد والملوك الذين ماتوا
وذهب ملكهم وأصبحوا في ذمة التاريخ من أمثال سليمان الحكيم، والنمرود
وكسرى أنوشروان ، والاسكندر الأكبر ، ونلاحظ أن حبه للتسجيل
انتاريخى قد غاب عايه .

ولما مات بدر الدين رثاه ابنه محمد بزجل نذكر منه :

يحق لى أن أرثى لموت والدى كان أفصح النظام وعقلور جيح
في درج الاكفان للقيامه اندرج واجب على فقدو بعزى أصبح
كان والدى في فن الأزجال تقصدو حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفي جميع العلم مالو نظير فقيه مدرس في جميع الفنون
.... الخ

ومما هو جدير بالذكر أن استخدام الشعر الشعبي في الرثاء قد كثر في هذا
العصر ، كما انتشرت النساء اللاتي احترفن التعديد وهو نوع من الشعر مازال
حتى أيامنا هذه ينشد في اللآثم .

وفي الزجل المتقدم يذكر محمد بن بدر الدين الزيتوني بعض مناقب والده ومفاخره . فيقول إن والده يستحق الرثاء لأنه كان شاعراً مجيداً ، ذا عقل راجح ، وفكر سديد . وكان مشهوراً بفن الزجل ، إليه تشد الرحال . وكان الناس يعنون بسماع أزجاله وحفظها . ويصف والده بأنه العالم الذي لا يشق له غبار ، والفقير البارع ، والمدرس المجيد في جميع أنواع العلوم والفنون . ويقول إن موته خسارة كبرى ، يستحق أن يلطم من أجلها ويكفي رافعاً صوته بقدر ما يستطيع .

* * *

وروى ابن إياس في حوادث سنة ٩٠٩ هـ أن الناس خرجوا للفرجة على الاحتفال بسفر المحمل ، وكان احتفالاً مشهوداً . وصنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحه حتى أرى دى الرماحه
بيع لى لحافى المحمل حتى أرى شكل المحمل

فقد بلغ من روعة الاحتفال وتهافت العامة على رؤيته إلى درجة أنهم كانوا على استعداد لببيع فراشهم وغطائهم وهما أعز ما يملكون ، أو هاكل ما في بيوت الفقراء من الأثاث ، وذلك ليتيسر لهم الخروج للتمتع بمشاهدة هذا الموكب الفخم . وانطلقوا يرقصون ويغنون بهذا الغناء .

وفي حوادث سنة ٩١١ هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب وجود الدريس في منازل المهاليك ، وكانوا قد أفرطوا في خزنه . وشرع الوالى يقبض على الناس ويرغمهم على نقل الدريس بعيداً عن مواطن الحريق . فتعطت أعمالهم ، وصنفوا رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس والّا يحموك الدريس
(م — ١٣ الأدب المصرى)

فلم يجدوا أمامهم سوى الهرب من حمل الدريس ، إذ لم يكن في قدرتهم أن يفعلوا شيئاً غير ذلك ، فمن اختفى استراح ، ومن ظهر سخر في نقل أعمال الدريس . ويبدو أن العامة قد واجههم عناء شديد وبلاء عظيم في هذه الحادثة فتحركت مشاعرهم بهذا الغناء .

وفي حوادث سنة ١٣١١هـ خلع المهاليك الوالي التركي عقب فتنة كبرى سالت فيها الدماء وتناثرت الأشلاء ، وخربت دور كثيرة . وكان هذا الوالي هو مدير تلك الفتنة ، فلما خلع اجتمع عليه الأولاد الصغار وأخذوا يرقصون ويغنون بصوت مرتفع قائلين :

ياباشا ، ياباشا ياعين القملة مين قال لك تعمل دى العملة
ياباشا ، ياباشا ياعين الصيره من قال لك دبر دى التدبيره

* * *

ومن أنواع المواليا التي عزفت في مصر قبل العصر العثماني وانتشرت انتشاراً كبيراً في خلاله :

١ - القرقيا : وهو ما يتناول الهزل

٢ - البليق : ويستخدم في الغزل

٣ - المكفر : بكسر الفاء ، ويستخدم في الوعظ

فمن المكفر قول محمد سالم الحفناوى المتوفى سنة ١١٨١هـ

يامبتغى طرق أهل الله والتسليك دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
إن أذكروني لرد المعترض يكفيك فاجعل سلاف الجلاله دائماً فيك

وهذه المواليا في الوعظ والإرشاد . فهو يخاطب من يريد الوصول إلى الله وسلوك طريق المتصوفة والأنخراط في صفوفهم ، وينصحه بترك الاعتراض على الناس وبمداومة ذكر الله .

وقد استخدم محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الموشحات في الدعوة

شرب القهوة مثال ذلك قوله :

أدر القهوة في كأس البها
قهوة البن وناهيك بها
هي حل ما نهى عنها نهى
فاسقنى يا صاح

شنف الكاسات واسمع ما أقول
إنها شرب الأجلاء الفحول
أولياء الله أرباب الوصول
لحمى الفتاح

ما علينا من عنول جاهل
مفتري زور كلام باطل
خامل الذكر وميت زائل
راح مع من راح

ففي هذه الموشحات تصوير للنزاع العنيف الذي نشب بين أنصار شراب
القهوة وخصومها . وقد حاول البكرى أن يتحدى هؤلاء الخصوم ، فطلب
من الساقى أن يدير عليه القهوة في الكؤوس الجميلة . ثم ذكر أن شراب
القهوة لذيذ جدا ، وحلال عند أرباب العقول السليمة ، والقهوة شراب
الأكابر وذوى المراتب الرفيعة من أولياء الله المقربين إليه . ويقول إنه
لا يكثر بكلام الجاهل الذي يلومه على تعاطي هذا الشراب ، والذي يحرمه
مستنداً إلى أدلة فاسدة وآراء باطلة . وهذا الجاهل نكرة لا يعرفه أحد ، ولا
يسمع به إنسان ، فسكأته في عداد الأموات . وهذه الموشحة جيدة التراكيب
قوية الأساليب ، واضحة العبارة ، مليحة الإشارة .
ومن موشحاته التصوفية قوله :

طلعة المحبوب كل القمر
هكذا هيئت كل البشر
كيف لا تسرى بكل الصور
وهم هالات

وحدت معنالك عيني نظرا
قال لي قلبي شهدت الأثرا
ما تراني عين سعدي ما ترى
وحدة بالذات

زال لبسي حيث نفسي أعربت
وكذا شمسي بأفقي غربت
مثما روعي بروحي طربت
والهوى لذات

.... الخ

فالبكري يقول إن الله تجلى في مخلوقاته فهو كالقمر الذي هام الناس
بجبهه والمخلوقات تحيط به إحاطة الهالة بالقمر . وهو واحد بذاته وصفاته .
ولما أدرك هذه الحقيقة زال من قلبه كل شك ، وامتلاء فرحاً وسروراً ،
ونعم بهذه اللذة الروحية التي غرق فيها .

* * *

ومن الشعر الشعبي الذي وصل إلينا من هذا العصر مجموعة عنوانها
«الروض الوضاح في نهاية الأفراح ، المسمى باجتماع الشمع في فن خيال الضل»
وهذا النوع من الشعر التمثيلي الذي يشترك في إلقاءه بضعة أشخاص يمثلون
موضوعات مختلفة ، ويقفون فوق منصة مرتفعة وراء ستار ، مستخدمين

بعض آلات الطرب ، ويرقصون ويغنون ، ويقومون بحركات بهلوانية
كالتى تشاهد فى الأراجوز . ومما جاء فى هذه المجموعة :

عن خيال الضل دايم محتجب فانتبه يا من غفل عنو ونام
تلتقى هزلو وجدوشى عجب وعبارات شبه الاحلام فى المنام
والمرقص من ورا الستراحتجب والشخوص تحكى شخوص هذا الأنام
كان هناك مرقص وستائر وتماثيل دقيقة الصنعة ، وصور تشبه صور
الناس والحيوانات والمباني والحدائق وغيرها .

ومنها :

ليلة سعيده عند ما قد رأيت أهل الأدب يحكو بدور الكمال
لما طلبتوني إليكم أتيت للعب والتفریح وفن الخيال
يا سادتى أنى بكم اقتديت يا من حويتو الفخر والامتثال
ربى يفرح قلوب الجميع بزيارة النبی الهادى ودار السلام
ياسامعين قولوا مدد يا حسين والفاطمه اقروها لبنت الإمام
فمن هنا نرى أن اللاعب قد بدأ التمثيل بتحيةة الناس الذين دعوه ليعرض
عليهم ألعابه . وقد ذكر أنه لى دعوتهم وحضر ليدخل على قلوبهم الفرح
والسرور ، وليطلعهم على فن خيال الظل . وقال انه يتخذ من الحاضرين
قدوة حسنة له فى حياته . فهم أهل الفضل والأخلاق الحميدة، ثم سأل الله أن
يوفقهم إلى زيارة النبی صلى الله عليه وسلم ، وطلب منهم أن يلتمسوا العون
من الحسين ، وأن يقرأوا الفاتحة لبنت الإمام ، أى للسيدة زينب . ومنها :

وبعد هذا انتظروا أشياء عجب فى الأدب والحظ والانشرح
أشخاص وحازوا كل معنى طرب كان السبب من مصدر الفن راح
وحى ظهر شكوا لأهل الرتب نالوا الأرب بأهل الوجوه السماح
يارب بالهادى نبينا الشفيع وبالصحابه الفائزين الكرام

تغفر ذنوبي يا كريم يامعين بفضلك وادخلنا ديار السلام
ولما فرغ من المقدمة السابقة التفت إلى الحاضرين وأخبرهم بما سيحدثون
من عجائب فنه ، وغرائب تمثيلاه . وذكر أن هذا الفن كان قد اختفى من
مصر مدة من الزمن ومدح الحاضرين وأعرب عن حبه لهم . ثم دعا الله أن
يعفّر له ذنوبه وأن يدخله الجنة .

ثم ذكر بعد ذلك أسماء الممثلين وهم : (١) نرجس بن تقادير (٢) الكابس
(٣) أبو حردان (٤) أبو قراميط (٥) السكران .

ولكل من هؤلاء الأشخاص دور يقوم به ، وموشحات ينطق بها .
وقد أضربنا صفحا عن ذكر ما جرى على لسانهم لاحتوائه على ألفاظ مكشوفة
وعبارات السب والشتم التي تسمع في الشوارع من السفلة والأوشاب .

ويغلب على هذه التمثيليات الغزل والشكوى من فراق الحبيب ، ونداء
الليل وغير ذلك مما هو معروف الآن . كما اشتملت على مدح الأولياء والوعظ
والإرشاد ، والحث على التمسك بكمكارم الأخلاق ، ففيها الهزل والخلاعة
والمجون إلى جانب الجد ، ومن التمثيليات الجديدة تمثيلية «فلاح في بطن تمساح»
وقد وقف شخص اسمه الكابس يخاطب الفلاح بقوله :

دور من الكابس للفلاح وهو في بطن التمساح :

يا أخي أعلمني على دي القصة لما بقيت في بطن تمساح كاسر
يا هلترى غضبوا عليك إخوانك والا مرابط كان سرو حاضر
والا أبوك قلبو غضب من يمك والادعت أمك في الظلام العاكر
انهض واعلمني صحيح واصدقني يامن رماه وعدو وأصبح نواح
قل لي على من أخرجك من بيتك لما عليك قد اغتدى دا التمساح

فالفلاح كما نرى قد وقع في شدة عظيمة ، وضيق مؤلم إذا أضحي محبوسا
في بطن تمساح . وقد طلب منه الكابس أن يحدثه عن سبب وقوعه في هذه

المصيبة . وهل كان سبب ذلك غضب إخوانه أم غضب أحد من الأولياء ؟
أم غضب والده أم غضب والدته ودعاءها عليه في جنح الليل . وطلب منه أن
ينهض ويخبره الخبر الصحيح ، وأن يكون صادقا في قوله عن السبب الذي
أخرجه من بيته وأوقعه فريسة لهذا التماسح الجبار الذي التقمه وحبسه
في بطنه .

فإرد الفلاح قائلا (دور من الفلاح)

أبكي ودمع العين جارى على خدى
حالى صبح مسكين والى انكتب وعدى
وقعت وقعة شين وعدى ولا بيدى
لكن أقول يارب يا باعث الأرياح

فالفلاح هنا يبكي بكاء مرأ على ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاء ،
ولكنه مع ذلك لم ييأس من رحمة الله ، بل يطلب الفرج ويؤمل في النجاة ،
ويرجو اليسر بعد العسر .

وبعض هذه التمثيليات يبدأ بمدح النبي ثم ذكر الخلفاء الراشدين ومشهورى
الصحابة . وتنتقل بعد ذلك إلى الأغراض التي أنشئت من أجلها . وهى تصور
بوجه عام وقوع بعض الناس فى ضيق وشدة ، ثم استغاثتهم بالله والأبياء
والأولياء ، ورضاهم بالقضاء والقدر . ثم تنتهى بحدوث الفرج بعد الشدة .

* * *

ومن الشعر الشعبى تلك القصائد التى لم يلتزم فيها أصحابها صحة اللغة والنحو
والعروض كالتقصائد التى وردت فى سيرة المظاهر بيبرس والأميرة ذات الهممة
وكقصيدة أبى شادوف التى شرحها يوسف بن محمد الشربينى المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ
فى كتابه « هز القحوف » نذكر منها :

على من جتو قصعة وهو بيحرت ويقعد يجرف للحنك تجريف
على من دعس بالعزم في المش والبصل ولو كان بالكرات كان ضريف
على من شرب مترد ملان مظنبر ومن اللبن الحامض يرف ورفيف
على من جتو أم الخلول لدارو ويعزم على أهل البلد ويضيف

وفي هذه القصيدة الطويلة وفي شرحها من ذكر المقاذر والعورات ،
والعبارات المكشوفة والألفاظ القبيحة مالا نهاية بعده . وقد تعمد الشارح
أن يشنع على الفلاحين ويرميهم بكل موبقة ، ويصفهم بمختلف العيوب ،
وكان الشريبي من الأشراف ، وبين هؤلاء وبين الفلاحين خصومة عنيفة
مازالت حتى عصرنا هذا . انظر إلى قوله في مقدمة كتابه « وقبل الخوض في
بحر هذا الكلام نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف ، ووصف طبعهم
الكثيف ، وأخلاقهم الرذيلة ، وذاتهم الهبيلة ، وأسمائهم المقلبة ، وقحوفهم
المشكلة ، وقصانهم للمشرمطة ، وأشعارهم الملهبطة ، ونسائهم المزعجات ،
وما لهم من الدواهي والبليات ، فنقول :

«أما سوء أخلاقهم وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ،
وملازمتهم لشيل الطين والعمار . وعدم اكترائهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم
بأهل الكثافة ، كأنهم خلقوا من طينة البهائم كما قال ذلك الناظم :

لا تصحب الفلاح لو أنه ناجة أرياحها صاعده
ثيرانهم قد أخبرت عنهم بأنهم من طينة واحده

«فهم لا يخرجون عن طور القحافة لملازمتهم المحراث والجرافة . وهز
قحوفهم حول الأجران ، وطردهم من الملق والغيطان ، ودورانهم حول الزرع
ونظهم في الحصيد والقلع ، وغطوسهم في الجلة والطين . إن عاملتهم أكلوك ،
وإن نصحتهم أبغضوك ، وإن أقت لهم الشرع رفضوك ، وإن ألنت لهم
الجانب مقتوك . العالم عندهم حقير ، والظالم عندهم كبير . أمورهم معاند ،

يوليس عندهم فوائد . عندهم قابض المال أعز من العم والخال . سود الوجوه ،
إذا رأوا معروفا أنكروه ، كما قال الشاعر :

أهل الفلاحة لا تكرمهمو أبدا فإن إكرامهم في عقبه ندم
يبدوا الصياح بلا ضرب ولا ألم سود الوجوه إذالم يظلموا ظلموا»

وعلى هذا المنوال من الرغبة في التشهير بالفلاحين ، والتشفي منهم نسج
المؤلف كتابه . ومع ذلك ففيه فوائد نذكر منها إirاده لكثير من الألفاظ
والتعابير الريفية . وإيراده لبعض الأغاني التي نسبها لأهل الريف وتصويره
لجهل الفلاحين وفقرهم ، وما كانوا يقابلون به إذا حضروا إلى القاهرة من
الازدراء والاحتقار والسخرية . كما صور أخلاق بعض المتظاهرين بالدروشة
وما صاروا إليه من فساد وانحطاط وبعد عن أحكام الدين . فما نسبه
لشعراء الريف :

والله والله العظيم القادر هو عالما بسريري وخبياطي
إن عاود القلب المشوم ذكركم لأقطعو من مهجتي بأصابعي
وعلق على^(١) هذين البيتين بقوله « هذا الكلام من بحر الهلطقة ،
والمعاني المشرمطة ، وتفاعيله : متخلبطة متخلبطة متخلبطة . وعرضه بيقين
من زنجية لشربين ، وطوله باحتياط من السرو لدمياط . »

« وأما شرح معانيه المسخمة ، وحل مبانيه الملممطة ، فقوله — والله
والله العظيم القادر — يريد القسم غير أنه لم يقع الموقع لأنه ذكر الصفة بالضاد
المعجمة لا بالطاء المشالة ، جريا على لغة أمثاله من أهل الريف . وقوله — هو
عالمًا — بنصب عالمًا مع أنه مرفوع ؛ ليس على قاعدة النحويين ، إلا أن لسانه
لم يساعده على ذلك ، لأن السنة أهل الريف تنصب المرفوع ، وترفع المنصوب
كما يقولون عبد الرحمن برفع راء الرحمن . وهذا من باب عجرفة الكلام
المناسبة لهؤلاء القوم »

(١) حز العجوف ص ٥١ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

وقد يكون في كلامه هذا بعض الحقائق . وعلى كل حال فإن منزلة الفلاح قد هوت إلى الحضيض في هذا العصر حتى أصبحت كلمة «فلاح» سبة وشتمة من الشتائم التي يوجهها بعض الناس إلى بعض . وغدت توحى بالخشونة والبعد عن الرقة والذوق والالطف . وأصبحت حياة الفلاح منذ العصر العثماني إلى عهد قريب موضوعا للسخرية والتهكم من بعض الكتاب .

* * *

وقد نظم إبراهيم الشافعي سنة ١١٧٧ هـ قصيدة طويلة من فن الزجل ، مدح بها الأمير عبد الرحمن كتحدا ، عنوانها «مشارع خيرات حسان في مدح الأمير عبد الرحمن» سجل فيها كل ماشيده الأمير المذكور من المباني ، وما أنفقه من الأموال في أوجه البر . ومما جاء فيها :

وكم عرايا قد كسا وكم غريب قد أكرمه
بأرض الجزيرة لو سبيل تجاه بولاق فافهمه
عليه سواقى دايه منه الحسود قد انكده
بشارعه حوض للدواب شيد بناه ونظمه
وعبد الرحمن أمير بفعل خير قد انفرد
وربنا صار لو معين وأقى الأعدى بالكمد

* * *

وكان بعض الشعراء يقلدون الموشحات الأندلسية ، وينسجون على منوالها . نذكر منهم إسماعيل بن خليل الملقب بالظهوري ، المتوفى سنة ١٢١١ هـ فقد نظم موشحة على وزن موشحة ابن خطيب داريا الأندلسي جاء فيها .
ليت شعري يا أخلاء الهوى هل أرى بدري بجاني مؤنسى

أم أقاسمى من زمان قد قسا ورمى أحشاي سهما عن قسي

دور

ياستقى الله زماناً قد مضى في مغالي مصر في عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لي ما قضى بالتداني إذ غفت عين الرقيب
شب من تذكراها نار الغضى في فؤادي وتلافي في النجيب
واعتراني دهشة حين جرى من دموعي سائلا في الغلس
وغدا قلبي كلياً مذ سرى بارق في نحو ذاك المكس

دور

يارياضاً حسنها زاه يشيق جاد في مثواك منهل السحاب
كم مضى لي فيك من معنى أنيق حين كان اللهو مزهى الجناب
هل ترى عيني محياك الشريق لابسا برد التهانى والشباب
وأرى بدرى يئسجيني على ذلك البسط الشهى السندس
وأحسلى صبر دهرى بالمى من معان زاهيات الملبس

وهكذا يستمر الشاعر إلى آخر تلك الموشحة الطويلة في أسلوب قصصي سهل ممتع . فيذكر الحان وأيام الصبا واللهو والعبث التي أمضاها ونعم بها بين حدائق مصر وبساتينها . ويحدثنا عن اتصاله بمحبوبته بعيدا عن أعين الرقباء . ثم أخذ يتحسر على تلك الأوقات السعيدة الحلوة التي لن تعود . ووصف لنا ما تركه في نفسه الذكريات من لوعة ، وما تذرته عيناه من دموع وما أصاب قلبه من جروح ، ثم وقف يخاطب الرياض ، واصفا إياها بالجمال والفتنة ، ذاكرا الأيام الحلوة التي قضاها بين ربوعها ، متمنيا لو أن تلك الأيام قد عادت إليه مرة أخرى ليمتتع نفسه بوصول الغيد ، والجلوس معهم على الحشائش الخضراء السندسية ، تحت ظلال الأشجار الوارفة

ومن أشهر الزجالين في هذا العصر الشيخ عامر الأنبوطي المتوفى
سنة ١١٧٣هـ وأزجاله تتناول أنواع الطعام والشراب . فمن ذلك قوله :

أكلك من الضأن رطلين يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يازين دا الأكل منو تعاسه

وقوله :

أكل المطبق مع الفجر بالشهد والسمن السايح
الليجيبيو لو أجر في جنسة الخلد رايح

وقوله :

يا طابخ الضأن اشتد واغرف أواني وسيعه
عامر آني لك وله يد في الأكل دايمًا سريعه

وقوله :

أوصيك لا تأكل الفول يورث قلبك قساوه
تقطع نهارك كالغول تائه وعندك غشاوه

وقوله :

خشاف مشمش وعناب الشرب منهم دوايه
من بعد ما كل كباب يارب حقق رجايه
ومن نظمه ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك في النحو
تذكر منها :

يقول عامر هو الأنبوطي أحمد ربي لست بالقنوطي
وأستعين الله في ألفيه مقاصد الأكل بها محويه

فيها صنوف الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم
طعامنا الضاني لذيذ لئنهم لحمًا وسمناً ثم خبزاً فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عم مطاعماً إلى سناها القلب أم
والأصل في الأخباز أن تقمرا وجوزوا التقديد إذ لا ضررا
فامنعه حين تستوى الخرفان

ومن قوله على وزن لامية العجم للطغرائي :

أناجر الضأن تريق من العلل وأصحن الرز فيها منتهى أملي
أأكل غداء وأأكل في العشاء على حدٍ سوى إذا اللحم السمين قلى
فيم الإقامة بالأرياف لا شبعي فيها ولا زهتي فيها ولا جذلي
ناء عن الأهل خالي الجوف منقبض كمعدم مات من جوع ومن فشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمني ولا كريم بلعجم الضأن يسمح لي
طال التلهف للمطعم واشتعلت حشاشتي بحمام البيت حين قلى
أريد أكلًا نفيساً أستعين به على العبادات والمطوب من عملي
والدهر يفجع قلبي من مطاعمه بالعدس والكشك والبيسار والبصل
ناديت هيا ولا تبطن بغرفك لي فإنه خلق الإنسان من عجل

وله على وزن لامية ابن الوردي :

اجتنب مطعم عدس وبصل في عشاء فهو للعقل خبيل
وعن البيسار لا تمن به تمس في صحة جسم من عليل
واحتفل بالضأن إن كنت فتى زاكي العقل ودع عنك الكسل
من كباب وضاع قد زكت أكلها ينفي عن القلب الوجل

ويبدو أن الأنبوطي كان يمثل في عصره طبقة المتهافتين على الأكل ،
المتطفلين على الموائد ، الذين لا هم لهم إلا حضور المآدب ، وإشباع نهمهم
من اللحوم والخضار والرز والفواكه وغيرها . وقد كان الناس يخشون

الأنبوطى وأمثاله . فالجبرتي يقول فيه « إنه الشاعر المهجاء المفلق ، هبيب شراره محرق » ويقول إن الناس كانوا يتحامونه ، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يكرمه ويكسوه اتقاء للسانه .

واحتاجت للمقاهى الكثرية التى ظهرت فى ذلك العصر إلى المغنين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق فتنهال عليه الأرباح الوفيرة . واتصل المغنون بالشعراء يلتمسون منهم نظم للمقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشون فيه . وقد لبى الشعراء هذه الدعوة ونظموا كثيراً من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة . وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة « وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغاني ، ومنتشرة بين الناس ، يتغنون بها فى أوقات سرهم » ومن أشهر مؤلفى الأغاني فى ذلك الوقت عبد الله الشبراوى . قال :

والله مليح وجميل وكامل الاوصاف وأنا احبه ملو قلبي وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل فى رفته أما كلامه ما أحلاه
وقال :

شفته على غفله قوى حبيته - أسمر ومن طبعى أحب الاسمر
ميلت ناغشته لقيت له رقه ولطف زايد والبشاشه اكثر
يا أهل الأدب والله وحق المختار ما شفت عمرى فى الجمال مثله
قمر مصور ما نظرتش حسنه فى حد من بعده ولا من قبله
وقد سجل الشعر الشعبى كثيراً من الوقائع التى جرت بين المصريين

والفرنسيين إبان الحملة الفرنسية . من ذلك قول أحد الزجالين من
ملحمة طويلة :

حازوا بيوت الغز سكنوا فيها وباشهم خيم بيت الألفى
عسكرهم بالأزبكيه صاروا على البيوت ما عاد لهم بيت يكفى
وزيرهم خيم بيت البكرى والكسارى حل بيت الجلفى
قايم مقام دوى سكن بيت هامم والجنند فى الأسواق تراهم خطار
حتى الديار تشقى فكن مستبصر هذى مواعظ جت لأهل الأبصار

ومنها وفيه إشارة إلى الثورة التى نشبت ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ :

نادى منادى فى البلد بالنهضة قالوا الجهاد مفروض على دى الأمة
راح الخبر فى الحال إلى بيت دوى قايم مقام فاعتاظ وقام فى همه
هجم عليه زمزوم ودهشوا راسه فمات وبعده اشتد كرب الزحمة
وجات عساكر مسرعة لا تحصر وقاتلوا الإسلام وباعوا الأعمار
يومين قتال والحرب زايد قدره ما خلتهم إلا عفاريت عمار

وعقب إخماد الثورة شدد الجنرال برتملى على الحركة الوطنية واضطهدها
اضطهاداً عظيماً . وقد عرف عند العامة باسم فرط الرمان . وإليه يشير الزجال
المتقدم فى قوله :

من بعد هذا الأمر دار الوالى مع الأغا والسكب فرط الرمان
حاشوا خلايق فى حبوس القلعه قد أسجنوهم والمقدر كان
من كان فرغ عمره قتل فى ليله ومن خلص من عزته قد هان
وتمموا النكته بقتل الستة اللى تقدم ذكرهم فى الأدوار
يا عين عليهم بالمدمام جودى واجعلى دموعك عليهم غزار

والمدرسة الشعبية ما زالت قائمة تؤدي رسالتها. وقد اتسعت دائرتها بعد ظهور المجلات الهزلية وأصبحت تتناول جميع نواحي الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وعاطفية. وكثرت الأغاني كثيرة لم يسبق لها مثيل وبخاصة بعد إقامة دور الإذاعة وتنافس المغنين في إلقاء أدوار جديدة.

الباب الثاني

دراسات تكميلية في الشعر

تكلمنا في الباب الثاني على مدارس الشعر وبيئاته . وفي هذا الباب سنتكلم على الشعر الذي نظمه الشعراء استجابة للفن الشعري وحده .
فن ذلك :

١

الوصف

كثر في هذا العصر وصف الشعراء للحدائق والبساتين ، والثمار والمياه .
ونستطيع أن نؤلف مجلداً ضخماً من آثار الشعراء والكتاب في حديقة الأزبكية وحدها ، وفي بساتين بولاق . وقد امتازت هذه القصائد الوصفية بركة أساليبها وسهولتها ، وجودة معانيها وصدق عاطفة ناظميها وبراعتهم الفنية . ففيها التشبيهات اللطيفة والصور الجميلة . وفيها حيوية فياضة وشعور متدفق . مثال ذلك قول الشبراوي من قصيدة طويلة :

في كثيب من الجزيرة يختلج
حيث مجرى الخليج والماء فيه
ثم عجز بي للنهر عن أيمن الـ
حيث مالت نحو الظباء ظباء
حيث تختال في ملابسها الغز
حيث تلتقي العشاق بين صريع
روضة راضها النسيم سحيرا
ل دلالا في حلة خضراء
يتثنى كالحية الرقطاء
تقصر في ذاك راحتي وهنأني
بقدود تفرى أديم الحشَاء
لأن تهباً بقدفد تهباء
أو قتييل مضرج بدماء
باعتلال صحت به واعتلاء
(م - ١٤ الأدب المصري)

وأصول الأشجار ترسب في قيـد من الماء ضيق الأرجاء
ولطيف النسيم يعبث بالغصـنـين فيهنز هـزة استهزاء
وترى الغصن تارة يتمطى في اعتدال وتاوة في انحناء
وغدير اللجين ينساب طوراً باعوجاج وتارة باستواء
قنوات كأنها الزرد المنـظوم وقت الهيجاء تحت اللواء
ياخـرير الخليـج تفديـك نفسـي فلكم نلت في هواك شفائي
يانديـمـي جدّد بذكراه وجددي واحي ذلك الغرام بالإغراء
هات حدث عن نيل مصر ودغني من فرات ودجلة فيحاء
وأعد لي حديث لذات مصر فحديث اللذات عني نائي
أى عيش يطيب في مصر إلا بمليح متوج بالبهاء
نزّه الطرف بين قدّ وخذّ وجبين وطلعة حسناء
فرعى الله أرض مصر وما ضمته من أهيف ومن هيفاء
إن مصر لأحسن الأرض عندي وعلى نيلها قصرت رجائي

فالشبراوى في هذه القصيدة يصف لنا جزيرة الروضة وما فيها من
حدائق وبساتين . ويقول إن هذه الجزيرة تختال دلالة بما فيها من أبسطة
سندسية خضراء تأخذ بمجامع القلوب . ثم يتحدث عن مجرى الخليج
ويشبه الماء حين يجري فيه بالحية الرقطاء . والرقطة بياض يشوبه نقط
سوداء أو بالعكس . ثم أخذ يتحدثنا عن جمال النساء اللاتي كن يخرجن
في تلك الجهة ، وعن اجتماع العشاق الذين أضرّ بهم العشق وأضنّاهم الغرام .
ثم عاد إلى وصف المناظر الطبيعية بجزيرة الروضة . فالنسيم عليل ، والهواء
نقي منعش . . والأشجار على حافات الجداول فجذورها راسبة في ماء ضحل .
والنسيم يداعب الأغصان فتهتز استهزاء به . والأغصان تارة تمتد معتدلة
وتارة تندحنى . وجداول الماء التي تبدو كالفضة تنساب صرة معوجة وصرة
مستوية . وهي تشبه الدروع أو السيوف حينما تعد للقتال في وقت الحرب

ثم أخذ يخاطب خريير الماء المتدفق في الخليج ، ويقول إنه كثيراً ما شفى نفسه من آلام الحب وأسقام الغرام بجوار هذا الماء وفي كنفه . ثم وجه الخطاب إلى نديمه الذي صحبه في تلك الأماكن والتمس منه أن يعيد على مسامعه ذكريات الأيام الحلوة التي أمضاها بين جزيرة الروضة ومجرى الخليج ، لأن هذه الذكريات تبعث في نفسه اللذة والنشوة والارتياح ، ولأنها تجدد حبه القديم ، وتبعث غرامه إلى الحياة . ويقول إن نهر النيل عنده أفضل أنهار العالم ، لا يعادله دجلة أو الفرات أو أى نهر آخر على سطح الأرض . وهو يطرب طرباً عظيماً إذا حدثته عن مصر ونيلها ، وجزيرة الروضة ومجرى الخليج . والحياة في مصر لا تحلو إلا في صحبة امرأة جميلة يتمتع عينيه بمشاهدة قوامها المشوق وخدودها الوردية وجبينها المشرق وطلعتها البهية . ثم دعا الله أن يحفظ مصر ومن بها من أرباب الجمال والحسن ، وأهل الفتنة والملاحة .

وقد كان الشبراوى رحل لأداء فريضة الحج . والحجاز كما لا يخفى بلاد صحراوية لا زرع فيها ولا ماء . فهناك أدرك القيمة الكبرى لنهر النيل ولما هه العذبة ، وجزيرة الروضة وما بها من الحدائق والبساتين والحقول الناضرة ، والأشجار المورقة . وقارن بين بيئة الحجاز الصحراوية ، وبين بيئة مصر الخصبة الزراعية . ووازن بين الحجاز الذي يشح فيه الماء ويغلو سعره ، وبين مصر ونيلها العظيم فانعكست هذه الحالة النفسية في شعره الذي يذكر فيه نهر النيل . انظر إليه حين يقول :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع	بمصر ومن لى أن ترى مقلتي مصرا
وكرر على سمعي أحاديث نيلها	فقد ردت الأمواج سائله نهرا
بلاد بها مد السباح جناحه	وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويداً إذا حدثتني عن ربوعها	فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانه	تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا

إلى أن يقول :

على نيلها شوقاً أصب مدامعى وأصبو إلى غدران روضتها الغراء
إذا حذرتنى بلدة عن تشوق إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها وأروى بماء النيل مهجتي الحرا

..... الخ

وهذا كله انعكاس لآثر البيئة الصحراوية التي قاسى آلامها وأهوالها ،
وعدم فيها الماء حتى أضرَّ به العطش . فإذ ذاك عرف النعمة الكبرى لنهر
النيل فتغنى بذكره في غير ملل ولا ضجر . بل إن تكرار ذكر النيل كان
يحدث في نفسه لذة لا تضارعها لذة ، ومتعة لا تعادلها متعة . إنه في هذه
الآبيات يظهر للنيل قداسة تصل إلى درجة العبادة . وهذا لا يحدث إلا ممن
كاد يهلكه العطش .

وكان الشبراوى يجمع بين وصف الطبيعة وما فيها من فتنة ، ووصف
النساء وما فيهن من حسن وبهاء . ويدعو إلى عبادة الجمال أينما وجد ، جمال
الطبيعة وجمال الإنسان . وقد جراه في مذهبه شعراء كثيرون .

* * *

وقال الشهاب الخفاجى :

قَدَحَتْ رَعُودُ الْبَرْقِ زَنْدًا أَضْرَمْنَ أَشْجَانًا وَوَجَدًا
فِي خَمَةِ الظَّمَاءِ إِذْ مَدَّتْ عَلَى الْخَضْرَاءِ بَرْدًا
حَتَّى تَتَأَبَّ نُورُهُ وَتَمَطَّتِ الْأَغْصَانُ قَدًّا
وَأَتَى الشَّقِيقُ بِمَجْمَرٍ لِلرُّوضِ أَوْقَدَ فِيهِ نَدًّا
وَعَلَى الْغَدِيرِ مُفَاضَةٌ سَرَدَتْ لَهُ النَّسَمَاتُ سَرْدًا
وَحِسَابُهُ مِنْ فَوْقِهِ قَدْ بَاتَ يَلْعَبُ فِيهِ نَرْدًا

فسقى معاهد بالحمى من عنبر للمسك أهدى
عجيباً لدر ناصع أودعن فى مسك مُندى
فى ظل عيش ناعم بنسيم أسحار تردى
الح . . .

وهذا وصف جميل . فى ليلة تراكم سحابها واشتد ظلامها ؛ سم صوت الرعد وتلاه البرق فكأنه زند أشعل نيران الحب والغرام . وانتشرت الروائح الجميلة التى تفوق رائحة للمسك . ومر النسيم العليل يداعب الأغصان التى كانت فى نوم عميق ؛ فاستيقظت وأخذت تتمطى لتزيل عن نفسها آثار النوم . كما أن الأزهار طفقت تتشاءب . وبدت مياه الجداول كأنها دروع نسجها النسيم العليل وأحكم نسجها . حقاً ! لقد امتزج الشاعر بالطبيعة وتفاعل معها فجاءت قصيدته صدى لما انطوت عليه جوانحه .

وقال الصلاحى من قصيدة طويلة :

ياطيب أنفاس الريب مع فى تنفسها عبير
والجو حجرة عليها من ضبابها بخور
وافت به رود بأس رارى لها طرف خبير
وسعت على طرق الجدا ول والنسيم لها سفير
وطروس قامتها عليها من ضفائرها سطور
ياطيب ما تملى الشعو روحسن ما نقل الغدير
ما ذاك إلا فرع لى ل قد تبليج فيه نور
والورق ساجعة لها من كل ناحية سمير
والريح تعتنق الغصون بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراح تح ملها الكواكب والبدور

فقضيت منها ما قضيت وكان لي ولها أمور
وضممتها عند الوداع وكل أنفاسي زفير
وبكت عيون السحابة حين تساقط الدمع الغزير
تحتنا معا فتحت الـ أغصان منا والنحور

... الخ

فالإصلاحي قد مزج وصف الطبيعة بالغزل ، بل إنه تغزل في الطبيعة نفسها
غزلا لطيفا يسيل رقة وعذوبة . ووصفه للطبيعة كما ترى يفيض بالحيوية
ويزخر بالحركة والنشاط ، فالجو معطر بأنفاس الربيع حتى كأنه يشبه جمره .
البحور التي تفوح منها الروائح الشذية الجميلة . وهذه الجمره قد حملتها إليه
فتاة رائعة الحسن ، ومشت على حافات الجداول حتى وصلت إليه ، وقد سبقها
النسيم مبشرا بقدمها بما يحمله من رائحتها الطيبة . وشعرها كأنه الليل في
شدة سواده ، ووجهها الذي يظهر من خلال شعرها الأسود كأنه النور الذي
يتبدى في جنح الليل . وتحدث عن تغريد الطيور والحجر وما فعلته به ، ولقائه
مع هذه الغادة ، وما جرى بينهما في ساعة الوداع حين انهمرت دموعه مع
انهمار الأمطار .

* * *

فإذا تركنا وصف الطبيعة إلى وصف الأشياء ، وجدنا لشعراء هذا العصر
قصائد رائعة . مثال ذلك قول نور الدين العسيلي من شعراء القرن الحادي
عشر يصف دولابا « ساقية » :

ودولاب صررت به سحيرا يئن كآفة الصب المروع ،
غدت أضلاعه تنعد سقما ويفنى جسمه صب الدموع
يدور كمن أضل الألف منه وذاق تشتت الشمل الجميع
فقلت له فديتك من كئيب كساه لهم أثواب الخشوع

علام أراك تبكى كل وقت
فقد قربت لى حزناً بعيداً
فقال : أما علمت بأن مثلى
فإني كنت فى روض رفيماً
ولى فى المنتهى أعراق صدق
إذا ما الورد قابلنى وحياً
ويصفر البهار لى خوفاً
وإن قصدت بنو الآداب ربيعى
فقيضى الشقاء إلى غيبى
فألقانى على رأسى صريعاً
وقطع لطف أوصالى بعنف
فصرت أرى الذى قد كان دونى
على قلبى أدور عناً وأبكى
فكيف ألام إن أدمنت نوحى
وحالى ناصح أبناء جنسى
فإن الدهر كالصيد كيدا

وتهتف فى المنازل والربوع ؟
ونحانى نواحك عن هجوعى
خليق بالصبابة والولوع ؟
أبيت من الأزاهر فى جموع
أصول أنجبت أزكى فروع
تضرج وجنتاه بالنجيع
كصفرة عاشق صب مروع
أجود من النثار على الجميع
شديد البطش جبار قطوع
وأنت مشاهد حال الصريع
وصار يدق عظمى فى ضلوعى
أناف وصار ذا شأور فيبع
عليه أسى كفتلات هلوع
وجدت بمدعم الطرف الهموع ؟
فلا تعتد بالجذع المنيع
وأسباب القضا شرك الوقوع

فهذه قصة لطيفة نظمها الشاعر فى قصيدة رائعة مؤثرة ، تنهى بمغزى مفيد ، وعبرة نافعة وعظة بالغة . وانظر إلى هذه الصور الجميلة التى اشتملت عليها تلك القصيدة . فقد صور الشاعر الدولاب فى صورة تزر بالحيوية . صورة عاشق ولهان يتألم ويتوجع ويتأوه من ألم العشق وشدة الوجد ، وعنف الغرام ، حتى اعتل وساءت صحته ونحل جسمه ، فظهرت ضلوعه بحيث يمكن رؤيتها ، ويسهل عدها . وكاد جسده يفنى من غزارة الدموع التى يسكبها ، ومن الحزن الذى ألم به . وهو لا ينقطع عن الدوران كأنه

يبحث عن حبيب فقده . ثم وقف الشاعر أمامه يسأله عن سبب بكائه الدائم ونواحه وعويله . وقال إن أنين الدولاب الحزين قد قرب إليه حزناً كان بعيداً عنه ، وأعاد إلى ذهنه ذكريات ألمية كان قد نسيها . وبذلك سبب له أرقاً مستمراً ، وطرد النوم عن عينيه .

فرد عليه الدولاب شارحاً أسباب نوحه وبكائه . فقال إن مثله جدير بالحزن والبكاء لأنه كان شجرة عظيمة في روضة غناء ، تحيط بها الأزهار من كل جانب . إذا قبلها الورد حياها واحمر خجلاً لرؤياها . وإذا شاهدها البهار اصفر خوفاً ورهبة . وإن ذهب إليها أهل الأدب أظلمتهم بأغصانها المورقة ، ونثرت عليهم ثمارها . فقيض لها سوء طالعها أحد الأشقياء الأغبياء الجبابرة فبطش بها بطشة كبرى ، وصرعها في غير رحمة ولا شفقة . واقتلعها من جذورها وألقاها على الأرض ، وقطعها بمنتهى العنف . فالذي كان في نظرها حقيراً ارتفع شأنه وعلا قدره ، وغدا عظيماً إذا قورن بها في حالتها الزرية التي صارت إليها . فهي تدور وتبكي حزناً على نفسها ، ولا ينبغي أن يلومها إنسان إن هي سكبت الدموع مدراراً . وختمت كلامها بإسداء النصيحة لأبناء جنسها .

ومضمون النصيحة أنه لا يجب أن يغتر الإنسان بنفسه ، ويعتقد أنه في مأمن من الدهر وحوادثه ، والزمان وكوارثه . بل يجب أن يأخذ حذره على الدوام . فالدهر كالصياد الذي ينتهز الفرص ليظفر بالفريسة . والقضاء هو الشرك الذي يقع فيه الإنسان . لقد وفق الشاعر في هذه القصيدة إلى حد بعيد ، وأجاد وأبدع .

الغزل

لم يخل الإنسان في يوم من الأيام من عاطفة الحب للجنس الآخر . وقد امتاز الغزل في العصر العثماني بالرقة والسلاسة ، وانتشر انتشارا واسعا في الشعر الفصيح ، وفي الشعر العامي الذي يتمثل في الأغاني والموشحات والأزجال والمواويل . وإن الأغاني المصرية في ذلك الوقت كانت تدور كلها تقريبا حول الحبيب وبعده ، وهجره وصدده ، وتمنى لقائه ، والتحدث عن جمال عيونته ورموشه ، وقامته المشوقة ، وخطوده الموردة . وكثيرا ما يمزجون الغزل بوصف الأزهار والأغصان ، والرياض والغياض ، والنسيم العليل والروائح الشذية ، والحديث عن الخمر . ويستعملون ضمير المذكر مع أنهم يتغزلون في الأنثى مثال ذلك قول الشبراوى :

في مجلس من مافيه عيب سوى تمام عارضه ونفحة ورده
وتناثرت أزهاره لما رأى هذا الغزال محجبا في برده
ياما أحيلى قده لما مشى في مجلس تيهها وجاد بوعده
ودنا وأتحفنى وأطفأ لوعتى وشنى فؤادى من تاهف ببعده
يا عاذلى دعنى فما قلبى معى أسلوه بل فى حكه وييده

فالشاعر هنا يصف اجتماعه مع حبيبته مستخدما ضمير المذكر . ويقول إنه في موضع بعيد عن الأنظار غير أن رائحة الحبيب الجميلة التي تفوح منه ، ووجهه المشرق الوضاء قد يدلان على مكانهما . ثم وصف ما شعر به من اللذة والنشوة حين أمضى مع هذه الغادة بعض الوقت . وتصور العاذل أى اللأم في الحب يلومه في هواه ، فقال إنه لا يستطيع أن يتناسى حبه هذا ، لأن قلبه قد وقع أسيرا في يد المحبوب .

ويرجع انتشار حديث الحب في الشعر للمصرى خلال العصر العثماني إلى عدة أمور :

١ — ميل المصريين إلى التفرج عن أنفسهم والتخفيف عن آلامهم الناتجة عن ظلم الحكام وقسوتهم . ولا شيء يفرج عن النفس أكثر من الحديث عن الحب واللقاء والعناق والتقبيل وغير ذلك .

٢ — ميل بعض المصريين إلى حياة الطرب واللهو، ولا يتم ذلك إلا بذكر الحب والتغزل بجمال الإنسان وجمال الطبيعة .

٣ — ميلهم إلى إقامة الأفراح والموائد . وليس هناك ما يصلح للغناء في هذه المناسبات إلا أغاني الحب .

٤ — ميل بعضهم إلى التمتع باللذة الجنسية إلى درجة الإفراط ، وهذا ناتج عن طبيعة الجو .

وإنك لتجد العمال المصريين يقومون بأشق الأعمال ، والعرق يتصبب من أجسامهم ، ومع ذلك ترتفع أصواتهم بترديد أغاني الحب ، وما ذلك إلا لرغبتهم في التسرية عن أنفسهم ، وطرد الآلام التي تحمل بهم .

وقد لاحظ بعض الغربيين أن الإباحية تختلط بالدين في شعرنا الغزلي ، الفصيح والعامي . قال إدوارد^(١) لين الذي زار مصر سنة ١٨٢٥ : « ولقد سمعت أغنية لم يؤذ سمعى مثلها في رخاوتها ورقاعتها . وفيها يصف عاشق مستهتر شعوره حين وقعت عيناه على فتاة جميلة فيقول : سبحان من صورك يا بدر . فهو يسبح الله ، ثم يمضى فيقذع في وصف مغاصرته الغرامية . وقس على ذلك بقية أغانيهم . وفيما يلي أغنية عن الحب والخمر تعد مثالا لخلط الإباحية بالدين في الشعر العامي والشعر المنثور . ولما كان من عادة المصريين

(١) إنجائري يتحدث عن مصر ص ٨١ وما بعدها .

استعمال ضمير المذكر في أغانيهم العاطفية في الوقت الذي يخاطبون فيه الأنثى
فقد عمدت في ترجمتي هذه الأغنية إلى الإنجليزية إلى استعمال ضمير المؤنث
بدلاً من المذكر. وهذه هي الأغنية :

جاد بالوصال ، رشيق القوام
بعد بعده ودلاله ، بست اسنانه وخده
ورن الكاس في إيديه ، وفاح المسك والعنبر .
من اللي قوامه فاق غصن البان
فرش لي حبيبي فرش بالقصب
وقضيت الوقت في هنا موصول
ودلوقت اطلب من الله مولاي
يعفرلي ذنوبي وآثامي
وكل اللي قاله قلبي ، دي أعضائي تشهد على
وكل ما يشهد كربى أنت ياربى رجائى
أنت الكريم الغفور، احفظنى يارب واعف عنى
وأصلى على المخلوق الكريم ، اللي ضللت عليه الغمامه
وحيشفع لنا يوم القيامه

قال إدوارد لين « وقد دخل على أحد أصدقائي وأنا أدون هذه
الملاحظات ، فقرأت عليه هذه الفقرات من الأغنية ، وسألته : هل يعتقد
أنه من اللائق أن يجمع بين الدين والعريضة على هذه الصورة ؟ فأجاب قائلاً :
لا غضاضة مطلقاً . هذا رحل يحكى كيف اقترف إثمًا ثم يسأل الله العفو
والمغفرة ويصلى على نبيه . فقلت : ولكن هذه أغنية كتبت لكي يتغنى
بها أناس يقترفون المنكر وما حرمه الله . انظر معى هنا : إننى إذا أغلقت
صفحات الكتاب هكذا فإن الجزء منها الذى كتب فيه كيف ارتكب
الرجل خطيئته سوف يلتصق وجهه بالوجه بذلك الذى كتب فيه اسم الله . وبذلك
يعلو ارتكاب الخطيئة على طلب المغفرة » .

« فأجاب صديقي قائلاً : هذا هراء : اقلب الكتاب فاجعل أسفله أعلاه من ذلك الجانب ، وحينذاك ينقلب الوضع فيصبح الاستغفار فوق الخطيئة ويعلو عليها . والله تعالى يقول : قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وأنا لا أرى ما رآه إدوارد لين من اختلاط الإباحية بالدين في هذه الأغاني . والأصح أن يقال إن الإنسان ينطوي على جانب روحاني ، وآخر حيواني . فإذا أراد الجانب الحيواني أن يظهر ويتغلب على الإنسان قاومه الجانب الروحاني ، وهنا نرى النزاع النفسي بين الجانبين . وحين ينتصر الجانب الروحاني يكون مصحوباً بالشعور بالذنب والندم على ما فرط من الإثم ، والرغبة في الرجوع إلى الله . يتضح ذلك مما جاء في الأغنية المتقدمة « ودلوقت أطلب من الله مولاي يغفر لي ذنوبي وآثامي » أي بعد أن أخذ الجانب الحيواني مجراه الطبيعي شعر الإنسان بالندم فرجع إلى الله تائباً مستغفراً ، معترفاً بذنبه وضعفه . ومن الأمثال الشائعة بيننا « ساعة لقلبك وساعة لربك » ففي ساعة القلب يفرج المصري عن نفسه بالتحدث عن النساء الجميلات . وما زالت أغاني الحب هي السائدة في عصرنا ، وهي التي يقبل الناس على سماعها .

وانتشار الشعر الغزلي في العصر العثماني يشبه في أيامنا انتشار الروايات التي تدور حول الحب ، والقصص التي تتناول العشق . ومن لطيف الشعر الغزلي قول عبد الله الشبراوي :

منتهى الآمال عندي أهيف	وجفون زانها ذاك السواد
وخدود تتلظى حمرة	ودلال قد نفي عنى الرقاد
إن ذنبي عند من يعذاني	أن قلبي في الهوى لو رُد عاد
يا أهيل العشق هل من منجد	هل سلا الأحياب ذو وجد وساد ؟
ما احتيالي في الهوى ؟ ما عملي ؟	ليس لي إلا على الله اعتماد

بين جفنى والكرى معترك واختلاف وشقاق وعناد
فتنتى ظبى ظريف أهيف كلما قلت جفاه زال زاد
إن يكن عشقى له أفسدنى فاعلموا أنى راض بالفساد
ورشادى إن يكن فى سلاوتى فدعونى لست أرضى بالرشاد
هو قصدى لست أسلوه وإن صرت فيه مُثلة بين العباد

فى هذه القصيدة نلاحظ الموهولة فى التعبير . ويقول الشبراوى إن كان حبه ضرباً من الفساد فهو مرتاح إليه ، راض بأن ينظم فى صفوف المفسدين ، ولا يرضى أن ينظم فى سلك الراشدين المهتدين إن كان رشاده فى ترك الحب .

وله من قصيدة :

وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا وأسخط من ذكر السلو وأغضب
وعشق القدود الهيف عندى عقيدة وطبع عليه قد ربيت ومذهب
قضى الله أن الحب أعلى فضيلة وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

ويذكر الشبراوى فى شعره أنه عالم بفنون الغرام ، وأن علمه قائم على التجربة والاختبار . ويدعو الناس إلى أن يتلقوا عنه هذه الفنون دون سواه ، فهو الخبير بها ، العالم بأسرارها . ويقول إن الحب فى المرتبة العليا من مراتب الفضيلة . وهو أحلى النعم وأعذبها وأجملها مذاقاً . وقد وقف قلبه على أرباب الجمال وأهل الحسن والفتنة . والهيام بالقامة الممشوقة والخصر النحيل دينه الذى يعتقده وسجيته التى نشأ عليها . فهو والحالة هذه يعبد الجمال ويهيم بالحسن حيث وجدته . ويقول إنه اتخذ الحب دينه ، وموته فى سبيل الحب مذهبه :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى وموتى شهيداً فى الصبابة مذهبي

وقد وصف اجتماعاً له مع إحدى عشيقاته فقال :

عانقته فاسودت المقل التى هى بلوتى واحمرت الوجنات

وضممت قامته نخلت كأنها قد عجلت لذاتها الجنات
ياقلب إن زعم العواذل أنه في الحسن يوجد مثله قل هاتوا
مازلت أجنى من لذيذ خطابه تحفا لها من طيبه نفحات
وبلغت قصدي حيث جاء لمنزلى هذا الغزال ورقت الأوقات
ودنا يودعنى فلا وأبيك ما بقيت لدى التوديع في حياة

فهو يذكر ماجرى في هذا الاجتماع من الضم والعناق والتقبيل في شعر
يكاد يلتهب بالعاطفة ، وأسلوب يسيل رقة وعذوبة .

* * *

وقال يوسف الحفناوى ، وكان من شعراء الأمير كتنخدا رضوان :
ملاً الفؤاد هوى ووجداً رشاً لعيني السهد أهدى
مترنح الأعطاف قد نشر الجمال عليه برداً
يختال في حلل الدلال فيزدري بالبان قدأ
ريم سلاف حديثه أشهى من الصهباء وردا
لذن القوام لقده الـ أغصان تسجد إن تبدى
يرنو فيلعب بالنهى ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجمال طلا عته ملاح العصر جندا
بجفونه النعس المرأض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف - لحظيه اتخذ ن جوائح العشاق غمدا
الخ...

وليوسف الحفناوى غزل كثير من هذا النوع . وكله سهل العبارة ،
سليم الأسلوب ، جميل الصياغة . حقا إن المعانى الواردة في هذه الأبيات

متداولة ومعروفة ، ولكن الشاعر استطاع أن يجيء بها في شعر موسيقى
عرقص مطرب فبدت كأنها جديدة .

وقال عبد الله الإدكاوي المتوفى سنة ١١٨٢ هـ

عذاره لما بدا كالأس في الروض استقر
سبي الرجال مثلما سبي لربات الحجر
رأيناه أكبرنه وهو لهن قد بهر
وقد قطعن أيديا وقلن ما هذا بشر
وخده لما احتسى من كل من له نظر
أرخی العذار ساترا وردا وحيننا قد ظهر
وظن ذلك مانعا فصار يُخطف بالبصر
في مصر أضحي مفردا جماله قد اشهر

وهذا غزل بالمذكر . وفيه يشبه المحبوب بيوسف الصديق في روعة جماله
ويقول إنه أسر قلوب الرجال والنساء . ثم نظر إلى قصة يوسف الصديق ،
وما جاء فيها من أنه لما دخل على النسوة أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن ما هذا
بشر ، إن هذا إلا ملك كريم . وقد حافظ على الموسيقى الشعرية مع ما في هذه
الآبيات من الاقتباس ، وهذا يدل على البراعة الفنية والملكة الشعرية .
وقال :

ياشادنا ما أصيده عقولنا والأفئده
ويارشنا قوامه إذا انثنى ما أميده
ومصلتنا من لحظه على الورى مهنده
ومصلينا حشاشتي حجر اشتياق أوقده
وباعثا لمهجتى سهامه المسدده
وساترا صبح البها بالطرة المجدده

وسالبا منى النهى بالوجنة الموردة
وساحرا بجفنه هاروت رأس الفسده

... الخ

ولم يكن الإدكاوى عاشقا لشخص معين ، وإنما كان كغيره من شعراء عصره يعجب بالحسن ويفتن بالجمال . ثم يصور مشاعره وأحاسيسه في هذه القصائد الرقيقة ذات الطابع الموسيقي الجميل .

وانظر إلى قول السبربأى المتوفى سنة ١٢١٠هـ

قد كنت فيما مر من أيامي مولعا بالحب والغرام
أهوى مليح القد والقوام ومن لمأه العذب كالمدام
وخده الوردى مثل الجمر

وأعشق الظبي الأغن الأغيد من قده مثل الغصون أميد
ووجهه له الملوك سجد إذا رأته الأسد خوفا ترعد
من لحظه وما حوى من سحر

لا سيما من كان في دلالة كيوسف الصديق في جماله
أوغصن بان ماس في اعتداله أو بدر تمّ لاح في كماله
في أربع بالشهر بعد العشر

وأشتهى مليحة الطباع جميلة الأخلاق والأوضاع
ونزهة الأبصار والأسماع من كل في أوصافها يراعى
وحسنها قد حار فيه فكري

كحيلة العينين كالحوراء إذا تثنت حار فيها الرأى
حديثها أشهى من الصهباء إلى النفوس أو زلال الماء
عند الهجير في اشتداد الحر

... الخ

قالسبربأى فى هذه المزدوجة الطويلة يذكر لنا ما كان عليه فى أيام صباه
من التهافت على ربوات الحسن والجمال ، وما حدث له من هجر ووصول .
ويتحدث عن الأوقات السعيدة التى قضاها مع المحبوب بين الرياض فى ظل
الأشجار ، وبالتقرب من جداول الماء حيث النسيم العليل ، والهواء البليل ،
والورد والياسمين ، ويعترف بأنه ارتكب المعاصى وغرق فى بحار الشهوات .
قال :

وكم إلى العصيان قد سارعت ولا ارتكاب الإثم قد بادرت
وخالتي بالذنب قد بارزت وسيدى لأمره خالفت
وقد نسيت وحشتى فى قبرى

* * *

وقال الخشاب :

طرفى عليك بميل السهد مكتحل شوقا إليك وفيك الدمع منهمل
أبيت ليلي سمير النجم أرقبه لاذقت بئى وجنح الليل منسدل
تالله تالله قد أوهى الهوى جلدى وعيل صبرى وازدادت بى العلل
لا كان يوم النوى، لاحان موعده يوم تسير به روحى وترتحل
واحر قلباه ممن أشتكيه ومن حر الفراق ومن عينيك مافعلوا
ومن لواعج أشواق أطالها يضر من فى مهجتي نارا فتشتعل
ملكيت قلبى ولبى قد سلبت فلا برأ أراه ولا حول ولا حيل
فارفق بصب مشوق ذاب فىك أسى وكاد يغشاه من وشك النوى الخبل
وامنن بلشمى خدا صين عن نظر لم تدن منه ولا من طيفه القبل
فأنت مجلى سرورى يا جلا نظرى وأنت دائى دوائى بغيتى الأمل
قد سد باب اصطبارى وارتحلت به فلست أسلوبك حتى ينقضى الأجل
(م ١٥ — الأدب المصرى)

وهذه القصيدة تنبض بعاطفة الحب الصادق . ويقسم الخشاب بأن الحب قد أضعفه وأسقمه وذهب بصبره . ويعبر عن آلامه وأحزانه لاقتراب موعد رحيل هذا المحبوب . ويقول إن روحه هي التي سترحل عنه في هذا اليوم المشئوم ، وأن نيران الحب ستزداد اشتعالا بين جوانحه ، لأن المحبوب قد ملك عقله ولبه ، ولا يرجي له شفاء مما به من الآلام والأسقام . ولم تبق عنده قوة ولا إرادة . ويطلب من المحبوب أن يجود عليه بقبلة فهو مظهر سروره وشفاء عينه .

وقد ذكر الجبرتي في ترجمة الخشاب أنه في زمن الاحتلال الفرنسي عشق شاباً من شبان الفرنسيين ، كان جميل الصورة ، لطيفاً ، دمث الأخلاق ، مما ببعض العلوم العربية ، مغرماً بالأدب العربي ، يجيد التحدث باللسان العربي ، حافظاً لكثير من الشعر . فوجد كل منهما في صاحبه تجانسا وتوافقا ، فمال كل منهما إلى الآخر ، ووقع بينهما حب شديد حتى كان لا يقدر أحدهما على فراق صاحبه . واسم هذا الشاب « ريج » ومن قول الخشاب في الغزل بهذا الشاب .

يهتز كالغصن ماس معتدلا

أطلع بدرا عليه قد سدلا

غيب

يزرى بسمر الرماح إن خطرا

ساحر جفن لمهجتى سحرا

علم عيني البكاء والسهرا

فكيف أبغى بحبه بدلا

وليس لي عنه جار أو عدلا

مهرب

* * *

وجرى شعراء هذا العصر على سنة القدماء في الجمع بين الغزل ووصف
الخمر والدعوة إلى شربها ، وذكر الغناء والطرب . مثال ذلك قول الخشاب :

أدر لي في الربا القدحا وكن للعذل مطرعا
ونبه صاح ساقبها فضوء الصبح قد وضعا
وثغر الزهر مبتسم وشادي الورق قد صدحا
وخذها من يدي رشا مليح قد حوى ملحا
غزال إن يلح للبدر أو غصه ن النقا افتضعا
وقبل فاه مر تشفا مدا ما تجلب الفرعا

... الخ

.. وقوله :

أدر السلاف على صدى الألمان ودع العذول بجمله يلحاني
واستجبل بكر الراح في ظل الرُّبَى بين الرياض تزف والعيدان
شمس لها من فوق خدّ مديرها شفق الصباح إذا بدا الفجران
نور ولكن من سنا لألائها في الخلد نار فؤادي الوهان

... الخ

وليس هنا ما يدعو إلى الظن بأن هذا الشعر كله الذي قيل في الغزل والخمر
والغناء والاهو ، والأنس والطرب ، هو من باب التقليد ، وبخاصة إذا علمنا
أن عناصر هذا الشعر كانت موجودة في حياتهم الواقعية . فالخمرات متوفرة
وكذلك الرياض والجمال الإنساني . أما من حيث أسلوب هذا الشعر فيمتاز
بالسهولة والوضوح ، والطابع الموسيقي الجميل .

الإخوانيات

كان الأدباء والشعراء في هذا العصر يجتمعون في ندوات ليلية في منزل أحدهم أو في منازل بعض الأعيان والأمراء . ويتسامرون وينشدون للقطعات ، ويروون النوادر والنكات . وقد زخرت كتب التراجم بأخبار هذه المجالس . فذكر الجبرتي مثلاً في ترجمة قاسم بن عطاء الله المصري المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ما نصه : واجتمع يوماً في مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ محمد بن الصلاحى ، والشيخ عامر الزرقانى . وكان الوقت مطيراً ، وقد جادت السماء فأعطت من قطر السحاب دراً وعبيراً . فقال ابن الصلاحى مرتجلاً :

لقدومكم ضحك الغما م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه لنوال كفك قد حكى

فقال المترجم في الحال :

أفديك بالعينين يا نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه لعزير جاهك قد شكا

وكان المترجم في مجلس من الأدباء ، فكتب إلى ابن الصلاحى يستدعيه لذلك المجلس ما نصه :

مولاي يا نجل الصلاحى فديت مينا بالنواظره
امن وضح جمعنا بجميل ذاتك والمآثر
وإذا حضرت تفضلا فاللطف عادات الأكار
نثر الغمام على الرُّبى من فيضه يُتم الجواهر
وزيد نحظى عند نظقك بالفرائد والأزاهر

فكتب ابن الصلاحى مرتجلاً قبل حضوره :

أتانى وذيل الأنجم الزهر يعثر وكف الثريا للفراقد يستتر
وقد نثر الدر المنظم فازدرى بما كان من درّ السحائب يقطر
وكيف ودرّ القطر درّ مبدد ونظمكو عقد من الروض مشعر
فترك شوقاً كان من قبل في الحشا كميناً لأن الشيء بالشيء يذكر
..... الخ

وكتب عبد الله الإدكاوي إلى مرتضى الزبيدي :

صُبِّحتَ بالخير يا من لا شبيه له في العلم والحلم والإفضال والكتب
يا منتهى أمل اللاجى ومنتجع الرأ جنى وأكرم مسؤل ومنتكذب
ها خلدك الصادق الود المحب غدا له اشتياق إلى لقيالك يا أربى
فإن مننت به فهو المُننى وإذا عاق القضاء فأمر غير محتلب
هذا وقد جاءنى صباحاً بلا مهل ربُّ النهاية^(١) يبغيها مع الطلب
أما وأما فيارب البراعة يا معنى البلاغة ياروض الندى الخصب
عجل بإرسالها فضلاً وتكرمة وإن صحبت بها شيئاً من الذهب
فذاك جُلٌّ مرام الخليل منك فلا برحت تسخو لمن يرجو بلا سبب

فأجابه مرتضى الزبيدي بقوله :

ربُّ النهاية ياروض العلا الخصب لا زلت في سنن الإفضال والأدب
أتى كتابك كالدر النظيم حلا على محور الحسان البيض بالحبيب
فقراش كسرى بجبر منك أعده في الحالتين ومعنى ذاك غير خبي
حيالك لا زلت في عيش وفي دعة ذا العز والعلم والإتقان والأدب
عاق القضاء من الإيفاء ما وعدت من الدراهم في عذر مع السبب
رب البلاغة قل رب النهاية إن يرى اصطبارى فإنى فيه ذا طلب
لا بد من أخذه لكن قيمته غال على وهذا عذر ذى أرب

(١) يريد كتاب نهاية الأرب للقلقشندي .

إِن شَاءَ رَبِّي فَأِنِّي مَا تيسَّر لِي نَدْفَعُ لَهُ ثَمَنًا يَرْضَى بِمَا تَعَبُ .
أَمَّا وَأَمَّا فَهَذَا سرٌّ نَكْتَتُهُ فَلَا يَرِحُ تَرِينَا الدَّرَّ بِالذَّهَبِ .
بَاعِي قَصِيرٍ وَنَظْمِي لِأَيُّرَى ثَمَنًا فَاسْتَرِ حَبَاكَ إِلَهَ العَرْشِ بِالرَّحَبِ .

فن هذا وغيره ندرك أن الشعر استخدم بكثرة في هذا العصر ليقوم
مقام النثر في الإخوانيات . فاستخدم في الدعوة إلى المجالس والسهرات ،
كما استخدم في المطالبة بالحقوق والإجازات العلمية وتقريظ الكتب . فن
أمثلة تقريظ الكتب قول الظهوري المتوفى سنة ١٢١١ هـ :

لله دَرَكٌ مِنْ بليغٍ ماهر جمع المعاني في بديع كتابه
سحر العقول بلفظه وبنطقه وأبانت في معناه عن أنسابه
كليم كَنَظْمِ العَقْدِ يَحْسُنُ تَحْتَهُ معناه حسن الماء تحت حبابه
أعددت للبلغاء تَأْلِيفًا غدا في فنه يسمو على أربابه
وأراك نلت من الحجا حظًا غدا لا يستطيع وصوله من بابه
أوفت بك المهم العلية منزلا مستصعبًا صعبًا على خطابه
والله يرعى سرح كل فضيلة حتى يروجه على أربابه
ألبست عصرك من بيانك حُلة فمشى اختيالًا في بها أتوابه
..... الخ

وامتاز شعر الإخوانيات كما ترى بالسهولة والعدوية ، والبعد عن
التكلف . وكانوا في هذا النوع من الشعر يحتذون أسلوب الرسائل النثرية .
مثال ذلك قول محمد البكري المتوفى سنة ٩٩٤ هـ :

يَقْبَلُ موطئ النعل الكريم ويخدم سُدَّةَ القدر العظيم
ويسأل ربه عوداً قريباً لرؤية ذلك الوجه الوسيم
..... الخ

التوسل

التوسل من أغراض الشعر التي عرفت قبل العصر العثماني . وفي هذا العصر نظم الشعراء القصائد في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب الشفاعة منه . وكانوا يمزجون التوسل بالمديح النبوي . مثال ذلك قول الشبراوي من قصيدة طويلة :

رسولَ الله ضاق بيَ الفضاء	وجل الخطب وانقطع الإخاء
رسول الله إني مستجير	بجاهك والزمان له اعتداء
وبى وجل شديد من ذنوبي	وما أدري أعفوه أم جزاء
وما كانت ذنوبي عن عناد	ولكن بالقضا غلب الشقاء
وظنى فيك يا طه جميل	ومنك الجود يُعهد والسخاء
وحاشى أن أرى ضيماً وذلاً	ولى نسب بمدحك واتناء
وأنت أجل من ركب للمطايا	وشيمتك السباحة والحياة
وكم لك يا رسول الله فضل	تضييق الأرض عنه والسماء
أقلنى من ذنوب أثقلتني	فأنت لعلتى نعم الدواء
وخذ بيدي فإني عبد سوء	على كسب الذنوب له اجترأ
وكن لي شافعاً في يوم حشر	إذا ما اشتد بالناس البلاء

فالشبراوي يذكر ذنوبه التي ارتكبها ، ويشكون من الزمان والناس ، ويقول إن الدنيا ضاقت في وجهه ، وأن الشقاء قد غلب عليه . ثم يمدح النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إنه أعظم الناس طراً . ويعرب عن أمله في أن يظفر بشفاعته ، ويلتمس من النبي أن يقيه من ذنوبه الكثيرة التي أثقلت كاهله واعترف بأنه عبد سوء ، وأنه كان جريئاً في ارتكاب المعاصي . وللشبراوي عدة قصائد في هذا الموضوع ، وكلها تدور حول المعاني المتقدمة .

وقال محمد البكري من قصيدة طويلة في مدح النبي عليه السلام ،
والتوسل به :

ألا يا خير مبعوث له مولاه قد قرب
ومن بالعين أبصره فعنه قط لا يحجب
ويا من لا يني شخص بمدحته وإن أظن
أقاني عشرة عظمت فإني ضاق بي المذهب
وكن لي ثم أولادي ومن لي في الوري ينسب
وخلصني وخصني بسر منك لا يسلب
أغث يا سيدي لهني وإلا من له أذهب
بك استنصرت فانصرت فمن تنصره لا يغلب
بك استشفعت فاشفع لي فمن ذبي لك المهرب

وتمتاز هذه القصيدة بالسهولة والوضوح والموسيقية الجميلة ، وصدق
العاطفه .

وقد كثر في هذا العصر التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .
وكانت ساحات الموالد مجمعا للشعراء يفدون عليها من كل صوب ، وينشدون
قصائدهم في مدح صاحب المولد والاستغاثة به ، والتوسل إلى الله به .
ويمكننا أن نقول إن الشعراء جميعا قد اشتهروا في المعاني والآراء والأفكار .
فهم يذكرون ما يعانون من الضيق ، ومن نكد الدهر ، وقلة النصير ،
وانعدام المعين . ويلتمسون من صاحب الضريح أن يأخذ بيدهم ، وأن
يشملهم بعطفه وبره . مثال ذلك قول الشبراوي متوسلا بالحسين :

يا ابن الرسول بأملك الزهرا البتو ل وجدك المأمول عند الناس
وشقيقك الحسن الشهيد المرتضى الطاهر الأخلاق والأنفاس

وبحقّ حرمة جدك المبعوث من أزكى العناصر رحمة للناس
عظفاً علىّ فإن لي بك نسبة الحب أسسها أشدّ أساس
وعليك بعد الله ثم نبيه عولت في الإقبال والإيناس
فلقد خصصت وأنت أشرف سيد بكريم أخلاق وطيب غراس
جاشي يخيب مؤمل يرجوك في الـ إصباح أو يدعوك في الإغلاس
يارب غوثاً بالذي عودته من غاسق يسطو ومن خناس
أزكى الوري خلُقاً وأنداهم يداً وأعزهم شرفاً بلا إلباس
أدعوك يا خير الأنام مؤملاً منك الرضا والأمن بعد الياس

وتتمتاز قصائد التوسل بصدق العاطفة ، وتدفق المشاعر ، وتوفر الإحساس . وهذه هي عناصر الإجابة في الشعر . فسلامة الآراء أو فسادها لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما العامل الأول والأخير هو الإحساس الذي يعبر عنه هذا الشعر والمواطف التي يترجم لها . ولا شك في أن التكلف لا وجود له في هذا الميدان ، لأن الشعراء كانوا يؤمنون بما يقولون . وكانوا يعتقدون أن هذه القصائد التي ينظمونها في التوسل تعود عليهم بالخير العميم ، والنفع الجزيل . وكانوا يذهبون إلى الأضرحة وينشدون قصائدهم أمامها في ذلة وخشوع وخضوع ، معتقدين أن أصحاب الأضرحة يسمعونهم ، راجين أن تتحقق آمالهم ببركة هؤلاء الأولياء ، وتستجاب دعواتهم .

وفي كثير من هذه القصائد تلمح الشاعر يذكر بإسهاب ما يلاقيه من الجحود والإنكار ، والنسيان والإهمال . انظر إلى الإدكاوي حين يقول من قصيدة طويلة في مدح السيدة نفيسة والتوسل بها :

فبحق جدك يا حسيدي به لي فكوني منجده
أشكو إليك زمان سو ء صرت فيه على حده

لا مسعف لا منصف لا ماجد يولى يده
كل على أمواله أقفال شح مرصده
بل كل دينار عليه حصون حرص موصده^(١)
لا يسمحون بها سوى في ظلم أو في مفسده
لا يصنعون يدا تكو ن لدى الإله مخلده
ما وفق الرحمن من هم باخلا أو سده^(٢)
بل من رأى منهم طريقا للمكارم سده^(٣)

... الخ

فالإدكاوى صور لنا في هذه القصيدة موقف الناس منه ، وما كابدته .
يسبب ذلك من ضيق ونكد ، وغم وبؤس . وقد كرر هذه الصورة في قصائد
أخرى . فالشعر الذى نظم في هذا الغرض يعطينا في كثير منه فكرة واضحة
عن حياة الشاعر الخاصة .

(١) موصدة : مقفلة (٢) سده : أرشده (٣) سده : أغلقه .

الباب الرابع

بعض مشاهير الشعراء

١

عبد الله الشبراوي (١)

١٠٩٢ - ١٢١١ هـ

هو عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوي الشافعي ،
الإمام الفقيه المحدث المتكلم الماهر ، الشاعر الأديب . نشأ في بيت علم ودرس
على شيوخ عصره ، ومال إلى نظم الشعر منذ صباه . وقد ورث ثروة طائلة
عن والده فبنى لنفسه قصراً فخماً بالقرب من مسجد الرويعي . ومن
آثاره الأدبية :

١ - الإتحاف بحب الأشراف . مطبوع

٢ - شرح الصدر في غزوة بدر ، ألفه بإشارة على باشا الحكيم ،
وذكر في آخره نبذة من تاريخ مصر وأسماء ولاتها إلى عصره . مطبوع

٣ - مناقح الألفاظ في مدائح الأشراف ، وهو ديوان شعره . مطبوع

وقد تكلمنا على الشبراوي في مواضع كثيرة من هذا الكتاب ودرسنا
بعض قصائده . والأغراض التي تناولها الشبراوي في شعره هي :

(١) ترجم له الجرتي ١ / ٢٠٨ طبع بولاق .

- ١ - الغزل : ويمتاز بالرفقة والسهولة وصدق العاطفة . وقد ذكرنا فيما مضى أن الشبراوى لم يعشق شخصا معيناً ، وإنما كان يعشق الجمال حينما وجدته ؛ في الإنسان والطبيعة . ومزج الغزل بوصف الطبيعة .
- ٢ - المدح : كان الشبراوى متصلاً اتصالاً وثيقاً بالولادة ، يحضر مجالسهم ويخصونه بهداياهم ، فلهج بمدحهم ، كما مدح بعض الأشراف .
- ٣ - المديح النبوى . وقد ذهب الشاعر لأداء فريضة الحج سنة ١١٣١ هـ ونظم بعض القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدها أمام ضريحه
- ٤ - التوسل ببعض أصحاب الأضرحة من آل البيت .
- ٥ - الشعر الغنائى : وله موشحات وأبيات اشتهرت بين المغنين في عصره
- ٦ - الوصف : وله قصائد في وصف نهر النيل والخليج للمصرى .

* * *

وفي سنة ١١٢٧ هـ أسندت إليه مشيخة الأزهر . قال الجبرتى « وقد بلع منزلة رفيعة عند رجال الدولة والأمرء ، ونفذت كلمته ، وقبالت شفاعته ، وصار لأهل العلم في عهده رفعة ومقام ، ومهابة عند الخاص والعام » وكان محسناً إلى الشعراء والأدباء ، فلذلك أحبوه ومدحوه . فمدحه عبد الله الإدكاوى بقصيدة جاء فيها :

حاوى الفخار جملة مجموعته ومفرده
إن ذكروا وصف الكمال كان فيه أوحده
أو ذكروا حسن الوفا فمثله لن نعده
أو دقة الفهم فقل أدرك منها مقصده

... الخ

وكان الشاعر عامراً الأنبوطى إذا جاء إلى القاهرة نزل في ضيافته فيحبوه بكرمه وعطفه ، وإحسانه وبره .

ومات في العاشر من ذي الحجة سنة ١١٧١ هـ ورثاه الشعراء ، فمن ذلك
قول الإدكاوى :

عين جودى بمدمع مسفوح واندى أوحده الزمان ونوحى
.. الخ

٢

عبد^(١) الله الإدكاوى

١١٠٤ - ١١٨٤ هـ

هو عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوى للمصرى الشافعى
الشهير بالموذن .

ولد بقرية إدكو بقرب رشيد سنة ١١٠٤ هـ وبها حفظ القرآن . ثم انتقل
إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ودرس على شيوخ عصره ، وظهر ميله
إلى الأدب .

وانضم إلى حاشية الأمير عثمان بك ذى الفقار ، وصار من أخص أتباعه
ولما ثار الجند وأبعدوه إلى خارج البلاد ، آواه السيد عبد الخالق بن وفا .
قال الإدكاوى فى ديوانه « وقلت مادحا بجمع الأفضال وأوحد أهل
الكمال سيدى عبد الخالق بن وفا ، أدام الله له الأصطفا ، وله موقع ينبغى
التنبيه عليه ، وتحسن الإشارة إليه ، فيه أكبر دلالة على ولاية للممدوح ،
وأنه بلاشك من عين العناية ريان ممنوح ، وهو أنى كنت من اللاجئيين لحضرة
عثمان بك ذى الفقار ، والملازمين له غالب الليل والنهار ، فقامت عليه الأجناد ،
وأخرجوه من البلاد ، فحصل حينئذ الضرر لكل من لاذ به ، وتعلق بسببه

(١) الجبرنى ١/٣٥٢

فصادفت حضرة الممدوح في بيت رجل من الأعيان ومعه إنسان يوصى عليه رب ذلك المكان ، فأوصى عليه وأكده وقال : هذا رجل يقوم عندي مقام الولد . فالتفت إليه وقبلت يديه وقلت له : وص بي يامولاي ذلك المخدم لأنك كون من رعايته غير محروم . فكان جواب ذلك الإمام الملحوظ أن قال لي : أنت بحمد الله محفوظ ، فوقعت عندي كلمته هذه موقع الإيحاء ، واطمأنت من سائر الأنحاء ، وانقضت تلك الفتنة ، ولم يحصل لي منها بلطف الله شيء من تلك المحنة . حينئذ مدحته بهذه القصيدة ، وذكرت بها اللفظة المفيدة ، ومما جاء فيها قوله :

هو عبد الخالق المولى الذى من نجاه دام في حفظ وأمن
قطب ذا العصر الذى تجلى به كرب تعبي أبا العزم وتضنى
نجل سادات همو أهل الوفا صفة ثابتة في كل ذهن
هم ملوك الأرض سادات الورى لهمو التصريف في حر وقين
... الخ

وذكر الجبرتي في ترجمة الإدكاوي مانصه « . . . وظهر ميله إلى الأدب فانضوى إلى فخر الأدباء في عصره السيد على أفندي برهان زاده نقيب السادة الأشراف ، الذى أسبغ عليه كرمه ، ورتب له ما يكفيه في معيشته ، وحج بصحبته بيت الله الحرام ، وزار قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، وذلك سنة ١١٤٧ هـ وعاد إلى مصر ، وأقبل على تحصيل الأدب ، ونظم ونثر ، ومهر وبهر . ورحل إلى رشيد وفوه والإسكندرية مرارا . واجتمع بأعيان كل منها ، وطارحهم ومدحهم »

وبعد وفاة السيد النقيب تزوج وصار صاحب عيال ، وتنقلت به الأحوال وشعر بالألم لفقد النقيب الذى كان له معيناً في حياته .
ولما ضاقت في وجهه السبل لجأ إلى الشيخ الشبراوى ولازمه وقام بخدمته ومدحه بغير قصائده . وكان الشبراوى يعترف بفضل الإدكاوى ويحترمه .

ولما توفي الشبراوى سنة ١١٧١ هـ انتقل إلى شيخ وقته الشمس الحفنى
ولازمه في حله وترحاله ومدحه بشعره . وقد رتب له الحفنى ما يغنيه
وبعد وفاة الحفنى اضمحل حاله، وعانى البؤس والفقر، واعتبرته الأمراض
ولزم داره مدة أيام حتى وافاه الحمام سنة ١١٨٤ هـ وصلى عليه بالأزهر ،
ودفن بالمجاورين .

وكان خطاطا ماهرا ، وقد اشتغل في أواخر حياته بنسخ الكتب للأمرء
والوزراء والأعيان . وكلفه مرتضى الزبيدى بنسخ بعض الكتب
واتصل مدة من الزمن بالأمير كتحدا رضوان الجلى ومدحه شعرا ونثرا
وقد تأثر ببيئة الأذربكية الماجنة الخليفة فنظم شعرا كثيرا فى الخلاعة
والمجون . ومن قوله وقد أخرج من فمه دما وتحركت عليه الصفراء

جنيت على نفسى جناية جاهل لظنى أن الجهل فيه سرورها
طغت عندى الحمرا حين صرفتها تمردت الصفرا وزاد شرورها
فأخرجتها شيئا فشيئا ملاطفا إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
فجاءتها البيضا . معاتبة على تعديهما جهلا وزاد نفورها
... الخ

وقال يصف ما وصل إليه من سوء الحال :

وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
وأما السممن سمناه ودادا فقال وداد مثلكو خداج
وأما البيت عنه لا تسنى فبومته لها دوما هياج
بأكلى أو حمارى أو قطاطى فأهرب خائفا وبى اعتلاج

وقد اجتمع بأعلام الأدباء والشعراء الذين وفدوا على مصر ، ومدح
الولاية والحكام والوزراء والأمراء الذين عاصروهم ونال جوائزهم، ولعله كان
مسرورا متلافا، فقد مات فقيرا ، ومن آثاره الأدبية التى ذكرها الجبرتى :

- ١ — الدرة الفريدة والمنح الربانية في تفسير آيات الحكم العراقية .
 - ٢ — مختصر شرح بانة سعاد .
 - ٣ — الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية . جمع فيه قصائد الشعراء الذين مدحوا الأمير رضوان . ثم أورد في خاتمها ماله من المدائح فيه نظماً ونثراً . منه نسخة خطية بدار الكتب .
 - ٤ — هداية المتوهمين في كذب المنجمين .
 - ٥ — ديوان شعره ، المسمى « بضاعة الأريب في شعر الغريب » وهو مجلد ضخيم ، منه نسخة خطية بمكتبة سوهاج . كما أن الجامعة العربية نقلت عنها شريطاً .
- والإدكاوى من أغزر شعراء عصره نتاجاً . وهو شاعر مجيد إذا طرح التكلف جانباً وترك نفسه على سجيتها .

٣

ابن الصلاحى^(١)

١١٤٠ — ١١٨٠

هو العالم الأديب الماهر ، الناظم النائر ، محمد بن رضوان السيوطى ، الشهير بابن الصلاحى . ولد بأسيوط على رأس الأربعين كما ذكر الجبرتى ، ونشأ هناك . وأمه شريفة من بيت شهير بأسيوط . ولما ترعرع جاء إلى القاهرة وحصل العلوم . وحضر دروس الشيخ محمد الحفنى ولازمه وانتسب إليه ، فلاحظته أنواره — كما يقول الجبرتى — ولبسته أسرارها . ومال إلى فن الأدب فأخذ منه بالحظ الأوفر . وكان خطه في غاية الجودة .

(١). الجرنى ١/٢٦٥

والصحة . وكتب نسخة من القاموس المحيط ، وصفها الجبرتي بأنها في منتهى
الحسن والإتقان والضبط .

قال الجبرتي « وله شعر عذب يغوص فيه على غرائب المعاني ، وربما
يبتكر ما لم يسبق إليه . وقد أجازته الشيخ الحفني بما نصه :
نحمدك الله يا عليم يا فتاح ، يا ذا للين بالعلم والصلاح . ونصلي ونسلم
على أقوى سند ، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد .

أما بعد ، فإن المولى العلامة ، الرحلة الفهامة ، الحاذق الأديب ، واللوذعي
الأريب ، مولانا الشيخ محمد الصلاحى السيوطى ، قد حاز من التحلى بفرائد
المسائل العلمية أوفر نصيب ، بفهم ثاقب ، وإدراك مصيب . فكان أهلاً
لانتظام فى سلك الأعلام بإجازته كما هو سنن أئمة الإسلام . فأجزته بما
تضمنته هذه الوريقات من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الأثبات
وبسائر ما تجوز له روايته ، أو تثبت لديه درايته . موصياً له بتقوى الله التى
هى أقوى سبيل النجاة . وألا ينسانى من صالح دعواته فى أويقات توجيهاته .
نفعه الله ونفع به ، ونظمه فى عقد أهل قربه . وأفضل الصلاة والسلام على
أكمل رسل السلام ، وعلى آله أئمة الهدى ، وصحبه نجوم الاقتدا .

« كتبه محمد بن سالم الحفناوى الشافعى ، ثامن جمادى الثانية سنة ١١٧٨ »

وكان ابن الصلاحى يجتمع فى ندوات ليلية مع أصدقائه من الشعراء
والأدباء ، وبخاصة قاسم بن عطاء الله المصرى ، ويتطارحون الشعر ،
ويتناشدون القصائد ، ويرتجلون المقطوعات ، ومن غرر قصائده التى
مدح بها الشيخ الحفنى تلك التى مطلعها :

مل بى فقد وقد الهجير إنى بظلك . مستجير

وعدتها سبعون بيتاً . وقد أوردناها فى نهاية الكتاب . وله فى
الإخوانيات شعر غير قليل . إلا أن ديوانه لم يصل إلينا .
(م ١٦ الأدب المصرى)

قاسم بن عطاء الله المصرى

..... - ١٢٠٤

قال الجبرتى « مات الفاضل النحرير ، الذى وقف الأدب عند بابيه ، ولاذت أربابه بأعتابه ، النبیه النبیل ، واللوزعى الجلیل ، قاسم بن عطاء الله المصرى الأديب » وكان قاسم من شعراء الأمير رضوان كتنخدا الجلفى .

قال الجبرتى « ولقاسم أخبار كثيرة مع شعراء عصره . وله مداعبات معهم يطول ذكرها » وقد داعبه محمد شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ بقصيدة جاء فيها :

سبحان من قسم النحو	س لقاسم وأذلّ هامه
وكساه ثوب جنابة	ينزى بها يوم القيامة
هو رده من هجم البيو	ت وردء من خطف العمامه
وينحيس من طبع النجا	س بكفه وطفى ختامه
يحتال في نشل الحريد	ر ولو تحصن في دعامة
ويسل كحل من	من خوفه ينفى منامه
لو حل في حرم الوزيد	ر مصاحباً ورأى غلامه
لمضى به لأخى الهوى	في غفلة يقضى مرامه
بالشال عمم رأسه	ولحيلة تأتي أدامه

..... الخ

فأجابه قاسم بقصيدة منها :

جل الذى قسم الشقا	لشبانة وله أدامه
بعمامة لو خالها القسلا	توهمها برامه

موروثة عن جدّه من قبل أن تبني القمامه
إن كان ذا وجه للمطيه مع فأين أصحاب الندامه
لو كان يصلح للصلاه لحق للقرن الإمامه

ولا يخفى أن قصيدة شبانة أقسى هجاء . فقد اتهم قاسماً بأموور شنيعة
كالسرقة والاتجار في الأعراض .

قال الجبرتي « وللمترجم قصائد ومقاطيع ومدائح وموشحات وأزجال
وتواريخ لا تحصى ولا تسبر ، ولا تعد ولا تستقصى . وقد تقدم بعض منها
في تراجم الممدوحين . ومنها المزدوجة التي مدح بها الأمير رضوان كتحدا
عزبان الجلفي . والموشحات المشهورة بين أرباب الفن والأغاني ، وهو شيء
كثيراً جداً » ولكن الذي وصلنا من آثاره الأدبية قليل جداً .

وكانت البلاد تعاني مجاعة شديدة سنة ١١٩٨

فاحشاً . فلما أهل عام ١١٩٩ قال قاسم بن عطاء :

يا أهل مصر استبشروا فالله فرج كـ
وأتى الرخاء مؤرخاً حام بفضل الله سم

قال الجبرتي « فكان الفأل بالمنطق ، وأخذت الأشياء في الانحلال قليلاً »
توفي يوم الجمعة خامس شوال سنة ١٢٠٤ هـ .

٥

السبربائي

٠٠٠٠ - ١٢١٠ هـ

هو شمس الدين بن عبد الله بن فتح الفرغلي المحمدي الشافعي السبربائي ؛
نسبة إلى سبرباي ؛ قرية بالغربية قرب طنطا ، وبها ولد .

ويرجع نسبه إلى الفرغلي المحمدي ، من ولد محمد بن الحنفية المدفون
بأبي تبيج من بلاد الصعيد .

تفقه على علماء عصره ، ودرس على شيوخ وقته . فأدرك من كل فن
الحظ الأوفر . ومال إلى فن الميقات والتقاويم ، وألف في ذلك وصنف ،
واشتغل بالأدب والتاريخ والشعر ففاق الأقران ، ومدح الأعيان .

قال الجبرتي « وذكرت كثيراً من أشعاره في بعض تراجم الممدوحين .
ومنها المزدوجة المسماة بنفحة الطيب في محاسن الحبيب ، التي نظمها باسم
الأمير حسن بك رضوان . وقد ذكرتها في ترجمة الأمير المذكور » .

« وصاحبناه وساجلناه كثيراً عندما كان يأتينا مصر وبطندتا في
الموالد المعتادة . فكان طوداً راسخاً ، وبجراً زاخراً ، مع دماثة الأخلاق ،
وطيب الأعراق ، ولين العريكة ، وحسن العشرة ، ولطف الشائل والطباع .
وكان يلي نياية القضاء ببلده . وبالجملة فقد كان عديم النظير في أقرانه ، لم أر
من يدانيه في أوصافه الجميلة . وله مصنفات كثيرة » .

« وسليقته في الشعر عذبة رائقة ، وكلامه بديع مقبول في سائر
أنواعه من المدح والرثاء ، والتشبيب والغزل ، والحماسة والجد والهزل . وله
ديوان جمع فيه مدائح للنبي صلى الله عليه وسلم سماه عقود الفرائد . وقد
قرظه الشيخ عبد الله الإدكاوي سنة ١١٧٩ بقوله :

هكذا من أراد نظم الفرائد أو نحو حوك القصائد
هكذا هكذا عقود المعاني لا عقود المخدرات الفرائد
تلك صواغها البنسان وهندي صاغها فكر شمس فضل الأماجد
..... الخ

وله في رثاء شيخه القطب الحفني قصائد طنانة . وله جملة أراجيز ، منها

أرجوزة في تاريخ وقائع علي بك - يعنى على بك الكبير - ومحمد بك -
وهو محمد بك أبو الذهب .

وقال الجبرتي في ترجمة حسن بك رضوان المتوفى سنة ١١٩٢ هـ .

« وكان أميراً جليلاً مهذباً ، كريم الأخلاق ، لين الجانب ، يحب أهل
الصلاح والعلم . وعاشر بالمحلة صاحبنا الفاضل اللبيب الأديب الشيخ
شمس الدين السبربائي الفرغلي وأحبه واغتنب به كثيراً وأكرمه ، وحجزه
عنده مدة إقامته بالمحلة . ومنعه من الذهاب إلى بلده إلا لزيارة عياله فقط
في بعض الأحيان ، ثم يعود إليه سريعاً . ويستوحش لغيابه عنه . فكان
لا يأتس إلا به . وللشيخ شمس الدين فيه مدائح ومقامات وقصائد . من
ذلك ما ضمنه في مزدوجته « نفحة الطيب في محاسن الحبيب » .

ولم يصل إلينا ديوانه ، ولا شك في أنه كان مجلداً ضخماً . توفى في
شهر ربيع الأول سنة ١٢١٠ هـ ببلده ودفن بها .

٦

الظهوري

٠٠٠٠ - ١٢١١ هـ

قال الجبرتي « هو النبيه الأريب ، والفاضل النجيب ، الناظم الناثر
المفوه ، إسماعيل بن خليل بن علي بن عبد الله الشهير بالظهوري المصري
الحنفي . كان إنساناً قانعاً بحاله ، يتكسب بالكتابة وحسن الخط ، وقد كان
جوده وأتقنه على يد أحمد أفندي شكرى . وكتب بخطه الحسن كثيراً من
الكتب والمصاحف » .

« وكان يشتغل بتجارة البن ، وله حاصل لهذه التجارة بوكالة البقل بقرب

خان الخليلي . وله معرفة جيدة بعلم الموسيقى والألحان وضرب العود . وهو شاعر مجيد ، له مدائح وقصائد وموشحات « فمن موشحاته تلك التي حذا فيها حدو ابن خطيب داريا الأندلسي ومطلعها :-

ليت شعري يا أخلاء الهوى هل أرى بدرى بحاني مؤنسي

وكان الظهوري مغرمًا بقضاء أوقات طيبة بين ربوع الأزبكية وبين حدائق القاهرة وبساتينها على عادة الشعراء والأدباء في ذلك العصر . فرقة يذهب إلى جزيرة الروضة ، ومرة إلى بولاق . أو يتجول على شاطئ الخليج أو على شواطئ بركة الأزبكية . ثم رحل إلى أطواب من قرى الصعيد واستقر بها مدة من الزمن . فنظم جملة قصائد أعرب فيها عن شدة شوقه وحنينه إلى القاهرة ومغانيها . ووازن بين حالته الأولى في القاهرة وحالته بقرية أطواب . فمن إحدى هذه القصائد :

سلام على مصر سلام شج حنًا	تبلغها أيدي النسيم لها عنًا
وأزكى تحيات على الروضة التي	عليها لسان الجو بالمرن قد أثنى
وحيا إلهي نيلها وظلالها	وخلجانها والقرط إذا شنت أذنا
ومقياسها مني إليه تحية	معبرة الأرجاء عاطرة عرنا
فكم نلت فيها من سرور وبغية	إذ العيش طلق والهوى ضاحك سنًا
وليلاتنا فيها وطيب حديثنا	وجيب الدجى ينشق عن بدرها دُجنا
..... الخ	

ومن قصيدة أخرى :

سلام على مصر ديار أحبتي سلام مُعنى هام عشقاً بحسرتي
ومنها :

خليلي قوما واسألا الروضة التي وللرصد حيوه مع اللهو ساعة
بها اخضل نبت في عرار وزهرة
فذلك أقصى ما يبرّد غلاتي

ومقياسها يا صاح لا تنس فضله بدا مثل شيخ لا لبس لعامة
ومنها ينمى سوء حظه :
وأزلى حظى بأطواب قرية أقت بها ما بين بوم وحدأة
ويبدو من بعض شعره أنه كان يميل إلى اللهو والمجون . وقد شرح لنا
مذهبه في الحياة في قصيدة مطلعها :

هل العيش إلا في اكتساب ما آثم أو العمر إلا في اقتناء محارم
أو الغم إلا في ارتكاب كبيرة أو السكر إلا في ارتشاف مباسم
... الخ

فهو يرى أن الحياة الحقة هي في الانغماس في الشهوات ، والأخذ بحظ
عظيم من اللذات .

قال الجبرتي « وللمترجم مقامة وقصيدة يداعب الشيخ عنتر الرشيدى ،
أعرضنا عنها لما فيها من الهجو والذم » ولم يصل إلينا من آثاره الأدبية
سوى القليل .

٧

الخشب

٠٠٠ - ٥١٣٠ هـ

هو السيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشب . كان أبوه نجارا ثم اشتغل
بتجارة الخشب .

بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن . ثم تلقى على شيوخ عصره الفقه
وأصول الدين وعلوم اللغة . وعين شاهدا بالمحكمة الكبرى . وفي أثناء ذلك
عكف على قراءة كتب الأدب والتصوف والتاريخ . وحفظ كثيرا من الشعر
والنثر والمعارف الصوفية . قال الجبرتي « فصار نادرة عصره ، ونظم الشعر الجيد »

وكان لحسن أخلاقه وكرم شمائله وخفة روحه موضع اهتمام الأمراء والرؤساء والأعيان فتنافسوا في صحبته ، وتهافتوا على مجالسته . وكان يظفر بأعجابهم بحلو حديثه الذي ملك به قلوب الناس .

ولما دخل الفرنسيون مصر ، ورتبوا ديواناً للنظر في قضايا المسلمين ، تعين الخشاب كاتباً بهذا الديوان ، يسجل تاريخ الحوادث اليومية . وأجروا عليه مرتباً شهرياً . وقد جمع بين هذه الوظيفة ووظيفته الأولى ، وهي الشهادة في المحكمة .

ونشأت بينه وبين الشيخ حسن العطار صداقة متينة ، ومودة أكيدة ، وكان لا يفارق أحدهما الآخر في غالب الأحيان . وكثيراً ما أمضيا سهرتهما مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، متحدثين في الفنون الأدبية والتاريخ .

والشيخ حسن العطار هو الذي تولى ترتيب ديوان الخشاب بعد وفاته . وقد اشتهر هذا الديوان بين المتأدبين بمصر في ذلك الوقت ، وأقبلوا على مطالعته واقتنائه ، وطبع بالجواب سنة ١٢٩٨ هـ

وقد جمع الخشاب ثروة طائلة . وشيد لسكناه قصرآ فخماً بجهة بين القصرين وعاش في رغد من العيش حتى أصيب في أواخر حياته ببعض الأمراض . ولما مات صلى عليه بالأزهر في مشهد حافل . ودفن بمقابر الحسينية .

الباب الخامس

النثر

الفصل الأول

النثر الفني

استخدم بعض كتاب هذا العصر النثر الفني في تأليف الكتب. ومن أشهر هؤلاء الكتاب : شهاب الدين الخفاجي الذي ألف كتابه «ريحانة الألبا» على نمط كتاب الخريدة للعماد الأصفهاني . وكان الشهاب مستوعبا للأدب العربي ، متمكناً من اللغة . فلذلك جاء أسلوبه قويا ، وانقاد له السجع والجناس والطباق والمقابلة انقيادا تاما . فلا ترى في أسلوبه ضعفا ولا تكلفا ولا غموضا ، ولا إسفاقا . انظر إليه حين يقول في ترجمة داود الأنطاكي :

« ضرير^(١) بالفضل بصير ، كأنما ينظر خلف ستارة الغيب بعين فكر خبير . لم تر العين ، بل لم تسمع الآذان ، ولم تحدث الركبان بأعجب منه مسائله الركبان . إذا جس نبضا لتشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر كل غرض . فيفتن الأسماع والأبصار . ويطرب بجس النبض مالا يطربه جس الأوتار .

يكاد من رقة أفكاره يجول بين الدم واللحم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم
فسبحان من أطفأ نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تعمي

(١) ص ٢٧١ طبع بولاق سنة ٢٧٣ هـ

الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وله في كل عام سهم مصيب ، ومنطق محلى بتهذيب التهذيب . وكنت قرأت عليه الطب وغيره في سن الصغر فسمعت منه ما يغار له نسيم السحر ، ويغرب من لطفه نغمات الوتر . ينثر فيه نثار العلوم على عرائس المنثور والمنظوم . وكان يقول : لو رأني ابن سينا لوقف بياني ، أو ابن دانيال لا كتحل بتراب أعتابي . إلا أنه على مذهب الحكماء ، ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل رشح قطر من خفي إلحاده . ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق فطافت به المنية من كل فج عميق . »

هذا هو أسلوب الشهاب الخفاجي . وهو يمتاز إلى جانب ما قدمنا من أنواع المحسنات اللفظية بالتضمنين من القرآن الكريم والأمثال والحكم والشعر .

* * *

ومن كتاب النثر الفنى في ذلك العصر^(١) : يوسف الخفناوى ، وله من فصل في مدح الأمير كتبخدا رضوان الجلفى :

« وكيف وأمامهم ملك شددت الجوزاء لخدمته مناطقها ، ومدت العلياء على هامته سرادقها ، وسقى الآمال والأرواح من سلافة جوده وآدابه ما صير أربابها خدما لأعبابه ، وأوقف الألسنة والأذهان على نشر نواله الكامل ، الأمير رضوان ، لازال سعده قائما على طول المدى ، فإنه عين المسكارم وقرتها ، وضياء جبهة المعالي وغرتها . التالي لسان حاله لمن يباهى ويناضل : تأخر فأين الثريا من يد المتناول ؟ »

« المولى الذى جعل الأيام عبيدا لأتباعه ، والمواهب ، والأرزاق خدما

(١) العوائج الخنائية في المدائح الرصوانية .

لأشياءه . وساس بسديد رأيه الإمارة فأحسن سياستها ، وأدار على الرعية كأس حله ممزوجاً ببأسه فأحكم رياستها . وصارت القاهرة بدولته لأعدائها قاهرة »

وممن نهجوا هذا النهج : يوسف بن مرعي الحنبلي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ قال في أحد^(١) مؤلفاته :

« إن الله سبحانه وتعالى قد أوجد هذا العالم إيجاباً جميلاً ، وفضل بنى آدم على كثير ممن فضل تفضيلاً ، وخص الأنبياء بمزيد الفضل والكرامات حتى غدوا بذلك أنوار الكائنات ، وأسرار الموجودات ، وجعل العلماء لهم وارثين ولآثارهم مقتفين في بيان شرائع المكلفين ، لاسيما المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، فهم في الفروع مختلفون ، وفي الأصول متفقون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فاختلاف الأئمة رحمة لهذه الأمة ، والجميع على هدى ، فهم من الشريعة الغراء يستمدون ، وللملة الزهراء يعتمدون ، وهم أفضل أتباع المرسلين ، وخير من آمن وصدق النبيين ، ولاسيما أئمة المذاهب الأربعة المجتهدين ، ففضلهم مشهور قديماً وحديثاً ، وعلمهم منشور تفسيراً وحديثاً . . . الخ »

واستخدم النثر الفني في مقدمات الكتب ، مثال ذلك قول عبدالرءوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ

« وبعد ، فأني^(٢) لما شرحت فيما مضى الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، كوى قلب الحاسد لما استوى ، فجهد أن يأنى له بنظير فرجع إليه بصره خاسئاً وهو حسير ، فلما آنس من نفسه القصور والتقصير عمد إلى الطعن فيه بالتطويل وكثرة القول والقليل

(١) تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة والمجاهدين . مخطوط رقم ١١٢٠ تاريخ

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ص ١ طبع بولاق سنة ١٢٨٦ هـ

« فلقطع السنة الحسدة المتعنتين ، وخوف انتحال السارقين أصرنى بعض المحبين أن أختصر اللفظ اختصارا ، وأقتصر فى المعانى على ما يظهر جوارا ، فعمدت أختصر ، وطفقت أقتصر ، ثم عن لى أنه كيف يليق إهمال هاتيك النكت البديعة اللطيفة ، والتحقيقات المنيفة الشريفة نخوف السارقين والمنتهين ، وقصور الأغبياء والمتعنتين ، فإن لم ينتفع به الحاسدون والقاصرون فسينتفع به المنصفون الكاملون ، وإن انتحل منه عتاة خائنون ، فمن خوان الكرام ينتهبون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون »

إن هذه النماذج التى اخترناها بعيدة كل البعد عن الإسفاف والإغراق فى التكلف الذى يفسد المعانى ، ويجعل العبارات أشبه بالألغاز . وما ورد فيها من أنواع المحسنات اللفظية هو مما يجىء عفواً خاطر على أقلام الكتاب فى مختلف العصور . وليس فى النماذج المتقدمة ما يدل على توضيحية المعانى جريا وراء الصناعة اللفظية . وهذا هو عنصر الإجابة .

* * *

ومن النثر الفنى الذى عرف من قبل العصر العثمانى واستمر إلى العصر الذى ندرسه ، نوع متكلف يستغرق الكاتب فى إنشائه وقتاً طويلاً . ويحتاج فيه إلى جهد عقلى كبير . ولكن هذا النوع كان قليلاً جداً ، ولو جمع لما تجاوز صفحات تعد على أصابع اليد وكان الغرض منه امتحان مقدرة الكاتب . مثال ذلك قول عبد الله الإدكاوى :

عبد الله عند الله أوجهٌ أوجهٌ . دلت معانية معانيه على على رتبته .
زينته حلية خلته . ووفانى ووفانى شر عيب عيب ، بعين حاسد حاشد
فهنا نجد تشابهاً فى رسم الكلمات مثال ذلك « عبد الله » و « عند الله »
و « أوجه » و « أوجه » والأولى بمعنى الغاية والذروة والثانية من الوجاهة

ولم يتعاط هذا النوع من النثر فيما وصل إلينا من النصوص سوى
عبد الله الإدكوى .

* * *

وكان المؤلفون في هذا العصر يختارون لكتبهم عناوين يتوفر فيها السجع
وهذا أمر عرف من قبل العصر العثماني ، ولكنه في هذا العصر ساد ،
وانتشر حتى أصبح كأنه من المحتم على المؤلف أن يختار لمنوان كتابه عبارة
مسجوعة ، مثال ذلك « الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود » للمناوى
و « بلوغ الأرب لمعرفة أمثال العرب » له ، و « الإتحاف بحب الأشراف »
للشبراوى ، وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، ومن النادر أن نجد كتابا خلا
عنوانه من السجع

ومن الأغراض التي استخدم فيها النثر الفنى في هذا العصر :

١

المقامات

أقبل الكتاب في هذا العصر على تحرير المقامات ، واستخدموها في
الأغراض التي يستخدم فيها الشعر ، فنجد مقامات في المدح ، وأخرى في العتاب
وغيرها في الفخر والهجاء والمجون والرثاء والوصف : مثال ذلك قول الشهاب
الخفاجى من مقامته الرومية التي دمجها فى وصف أحوال أهل الآستانة
وذكر علمائها :

« أنبأنا النعمان بن ماء السماء ، عن شقيق ، وقد نظمنى وإياه سلك المحجة
بوادى العقيق ، قال : خرجت مختبطا ورق الكرم ، وقد صوح ربيع الآمال
والهمم حتى عز الحطيم ، ورعى الهشيم ، فطوحتنى الطوامح بأرجوحة الأمانى
وهزتنى الأشعبية إلى ماجد يبارز الزمن الجانى ، سمح السجية ، بسام العشيات

رحب النادى إذا ضايق لبس العيش والتقت حلقات الملمات ، جنناه ليد الأمل
دانى إذا اقتطف ثمر اللهو وريحان التهاني . نزهة النفس وشمامة الأنس ، تعصر
من شمائله شمول الفرح على رغم أنف الإبريق والقدح ، فما روض الجبال
الرائع ، وما ورد الخدود في أسكمان البراقع ، وما جآذر الأعراب ، وشمس
الحسن في سحب الجلابيب .

ولقد دعوت ندا الكرام فلم يجب فلا شكرن ندا أجاب وما دعى
فلم أزل أدأب في الإسآد^(١) والإعناق ، وأقلد خلافة الخضر ومساحة الآفاق
ولا أبرح في ملاعب القضاء كرة لصولجان القدر والقضاء .

وللشهاب مجموعة مقامات وردت في كتابه « ريحانة الألبا » فليرجع
إليها من شاء . وكلها على هذا النحو والأسلوب ، وهذه المقامات لا تعتمد
كلها على الخيال ، بل هي تصوير لواقع الحياة التي رآها وشاهدها ولمسها بيده
وأحاط بها وعرفها . وقد أجاد التصوير ، وأتقن الوصف ، ووفق في السبك
قال في وصف الأستانة « — فإذا هي جنة ملئت بالحور والولدان ، وحفت
بالشهبوات إذ حفت بالمكاره الجنان ، من كل شادن سرق التفاتة الغزال ،
وتسلت لترى لطفه الصبا والشمال ، لولا خوف الوشاة والعدا ، تساقطت
القبل على ورد خده سقوط النداء . جرى فيه ماء النعيم والهيف ، وحرار فيه
الرأى فلو رآه سيل تلمعة لوقف ، فاق ذكاء سنأ وسناء ، إفلو حا كته حازت
الشرف صيفاً وشتاء

« إذا جاده صيب الحياء والخجل أنبت ورداً يجتنى بأنامل أهداب المقل .
في كتيبة حسن إن غزا القلوب قتلها » هزوا القدود وأرهفوا الأجنانا » وإن
هجمت على الصب عيونها « فاطلب لنفسك إن قدرت أمانا » يوسف حسن
ودلال ، ليس له أخ يحسده على الجمال

(١) الإسآد والإعناق : ضربان من السير

فأقدّ فيه القميص من دبر بل قد فيه الفؤاد من قبل
إن قطع النسوة الأكف فقد قطع قلبي بطرفه الكحل
ومن وراء تلك الظباء العين ملائكة من الكرام السكّابين ، غاليتم
المداد ، وعبير نشرهم يفوح على جمر الذكاء الوقاد . الخ »
فتأمل حلاوة التعبير ، وبراعة التضمين ، وقوة الأداء
ومن كتاب المقامات في ذلك العصر : محمد بن قانصوة ، وله مجموعة مقامات
بالمتحف البريطاني ، ويوسف الحفناوي ، وعبد الله الإدكاوي ، وأحمد
السجاعي ، وحسن العطار ، وغير هؤلاء كثيرون .

٢

الرسائل

(١) الرسائل الرسمية

- ما يكتب إلى السلطان : امتاز هذا النوع من الرسائل بميزات هي :
- ١ - وصف السلطان بصفات تكاد تجعله في مرتبة الإله ؛ فهو الخنكار الأعظم ، والحقان الأفخم ، ظل الله على الأرض ، شاهنشاه العالم
 - ٢ - الإشارة إلى حروب السلطان ضد الكفار ، والدعاء له بالنصر الدائم
 - ٣ - التعبير عن السلطان بمثل قولهم : الحضرة العلية الفخيمة ، أو الحضرة السنوية الخاقانية ، أو الذات العلية الشاهانية
 - ٤ - الإشارة إلى عدل السلطان وفضله على الرعية
 - ٥ - تقديم فروض العبودية للسدة العلية الخاقانية
- ومن كتاب الرسائل في ذلك العصر :

١ - مجد البكري للمتوفى سنة ٩٩٤هـ وله مجموعة رسائل اسمها « دستور الغرائب ومعدن الرغائب » وهي ليست كل ما كتب، ولكنها مختارات بخط شخص اسمه « على الملاح » منها شريط بمكتبة الجامعة العربية نقلا عن نسخة خطية بمكتبة سوهاج .

وتتماز رسائله باشتغالها على المحسنات اللفظية من جناس وسجع ، وطباق ومقابلة ، وتضمنين واقتباس . كما تتميز باحتوائها أحيانا على تعبيرات واصطلاحات صوفية . مثال ذلك قوله من رسالة إلى السلطان العثماني :

أهدى إلى السدة العالية ، والعتبة للمتعالية ، ومقام السلطنة الرفيع سلاما يتعطر فردوس الجنان بشميمه ، ويتضوع رضوان والخور والولدان بنسيمه ، ممزوجا بأنفاس الملائكة المتقربين ، ساريا بنفحات الأقطار المواصلين . تمده الرحوتية واللاهوتية بأسرارها ، وتصاحبه الحقيقة المحمدية الأجمدية النبوية بأنوارها .

وأسأل الله الواحد الأحد ، الذي ليس له قبل ولا بعد، أن يؤيد بسلطان عظيمته وكبريائه ، وعزة ألوهيته وبهائه عبده الذي أيده وتوجه بتاج الملك على كثير من عبيده ، وأفاض عليه من مزيده . حبيب أولياء الله عز وجل ، والراقي بإذن الله إلى المقام الأجل . واحد أقطار ما تحت الريح من سلطنة وجلالة . أوجد ملوك تلك الجهات ، بل هو البدر وهم حوله هالات . المؤيد بنصر الله فلا يرهب أحد سواه المحروس بحراسة الله في جميع ما منحه وأعطاه . سلطان سلاطين تلك الديار ، الفاتك بأعداء الله بكل سنان وحسام بتار . مخرب ممالك الكفر والفساد ، منل جيوش الطغيان والعناد ، قانع عباد الصليب ، المتدلل بين يدي الملك العظيم القريب الرقيب .

٢ - ومن كتاب الرسائل كذلك : مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى

بالقاهرة سنة ١٠٣٣هـ وله من نموذج رسالة إلى السلطان :

« أحق (١) من ملك سرير الخلافة بالاستحقاق ، وأولى من ولى لواء الولاية فى الآفاق . وهو الذى وجه عنان العناية لحماية الإسلام بشهادة الإجماع ، وتلك شهادة لا يتطرق إليها النزاع ، وجدد بنى ان الهدى بعد ما درست آثاره ، وطمست معالمه ، ومهد بساط العدل بعد أن لم يوجد إلا مظلوم وظالمه .

الخنكار الأعظم ، والحقاقان الأثم ، ذو المفخر التى شهد بفضلها الخاص والعام ، والمآثر التى ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام ، والأخلاق التى رام النسيم أن يحاكي لطفها فأصبح عليلا ، والمعالي التى تحيل الملوك أن يتشبهوا بها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا . الجامع لسيرة أنامت الرعايا فى مهاد الأمان ، وسريرة تكفلت أيادها بكف عوادي الزمان . وعدل سوى بين شريف الخليقة ومشروفها ، وإحسان سير الهبات تجرى لدوى الحاجات إلى حروفها . المفتخر على سلاطين الدنيا بفخامة مملكة ترد الأبصار حسرى ، وسرير سلطنة إذا استوى عليه أحيا ذكر السلف الصالح وأمات ذكر كسرى . إذا سار بين المواكب فما هو إلا القمر حف بالكواكب ، بصوارم سيوف تعطف حروفها أعناق المعتدين ، وأهلة ترسل نجوم سهامها على شياطين البغاة والمتمردين ورايات تخفق قلوب الأعداء لخفقانها ، وتخفض رتبهم لرفع شأنها . لا يرتاب مؤمله فى أنه البحر والعساكر أمواجه ، ومراحمه الدر التى يظفر بها طلاب العرف وأفواجه »

فإذا تأملت فى هذه الرسالة وجدتها تشتمل على : (١) وصف السلطان بأنه أجدر من تولى الملك (٢) وأنه حامي حمى الإسلام ، ومجدد بنى ان الهدى (٣) الإفراط فى وصفه بالعدل والكرم (٤) الإشادة بقوة جيوشه وعظمة مملكته (٥) الإشادة بسمو أخلاق السلطان وتفوق شخصيته ونقاء عنصره .

(١) بديع الإنشاء والمراسلات ، طبع الجواثب سنة ١٢٩٩ هـ

(م ١٧ — الأدب المصرى)

أما أسلوبها فاحتوى على كثير من المحسنات اللفظية ، من سجع إلى جناس ، إلى طباق ، إلى مقابلة ومع كل ذلك فلن نجد فيها ضعفا أو إسفافا أو إخلالا بالمعنى في سبيل اللفظ .

وتظهر العاطفة الدينية قوية جدا في كل ما يكتب إلى السلطان .

* * *

ما يكتب إلى الوزراء وولادة مصر : امتازت هذه الرسائل بوصف الوزير بكل منقبة وفضيلة ، مع الإسهاب في ذلك بحيث تستغرق هذه الأوصاف حوالى عشرة أسطر . مثال ذلك نموذج لرسالة كتبها مرعى بن يوسف الحنبلى :

الوزير المعظم ، والمشير المفخّم . ومدبر أمور جمهور الأمم ، الجامع بين مرتبتى العلم والعلم . والحائز لفضيلتى السيف والقلم . قرّة عين المملكة والوزارة ، تاج السلطنة والإمارة . طراز المملكة الملكية ، سيف الدولة السلطانية ، ولسان الصولة الخاقانية ، وصفة الحضرة العثمانية . رافع أعلام العدل والإنصاف ، خافض ظلام الجور والاعتساف . مؤسس قواعد الإقبال برأيه الصائب ، مشيد أركان الصولة والإجلال بفكره الثاقب . صاحب العزة والإجلال ، صاحب أذيل السعد والاقبال . حامى حمى الإسلام بالديار المصرية ، ومشيد نخوم العدل بالأقطار اليوسفية .

وقد ظلت هذه الرسائل تكتب بالكيفية المتقدمة حتى العصر الحديث . وهذه مقدمة رسالة بعث بها السلطان عبد الحميد الثانى إلى الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢م

الدستور^(١) الأكرم والمعظم ، الخديو الأفخم المحترم . نظام العالم ، وناظم مناظم الأمم ، مدبر أمور الجمهور بالفسكر الثاقب ، متمم مهام الأنام

بالرأى الصائب ، ممد بنيان الدولة والإقبال ، مشيد أركان السعادة والإجلال .
مرتب مراتب الخلافة الكبرى ، مكمل ناموس السلطنة العظمى . المحفوف
ببصنوف عواطف الملك الأعلى ، خديو مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً ،
الحامل لنيشاننا الهمايوني المرصع المجيدي ، ولنيشاننا العثماني من الطبقة الأولى .
وزيرى سمير المعالى عباس حلمى باشا أدام الله إجلاله ، وضاعف بالتأييد
إقتداره وإقباله .

* * *

ما يكتب إلى قاضى العسكر : تمتاز هذه الرسائل بالإشادة بمكانة
قاضى العسكر الدينية ، وبما تحلى به من الفضائل التى أهلته لتولى هذا
المنصب . مثال ذلك نموذج من رسالة كتبها مرعى بن يوسف الحنبلى :
شيخ الإسلام ، ملك العلماء الأعلام . سيد الأئمة الفخام ، وفخر الموالى
العظام . ومرجع الخصاص والعام ، وملاذ الأفاضل الكرام ، ونعمة الله تعالى فى
هذا الزمان على الأنام ، قد تشرف الفضل بانتسابه إليه . قاضى العساكر
المنصورة الذى أوقف جنود العدل بين يديه . جلت معانيه البديعة أن
يحصرها بيان ، أو يسطرها قلم ببنان . المرتضى لأحكام الشريعة ، ومن هو
لسد أبواب المكاره أقوى ذريعة .

* * *

وكتب الخشاب على لسان أحد القضاة رسالة إلى الدولة العلية ،
يستعنى من قضاء المدينة ، وكان قد وجه إليه وظهرت الاضطرابات
والفتن فى الحجاز بهجوم الوهابيين ، جاء فيها :

نحمد الله اللهم على نعمك الهامى على عمر الدهور سبحانه ، المنسدل على
البرية بعدل هذه الدولة جلابها . حمدا يكون على حامل تلك النعم البهية طرازاً
ويهيء لمة الإسلام ببقائها نصراً وإعزازاً .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى بهرت آياته العقول وضوحا وإعجازا،
وبلغ غاية الكمال حقيقة فغدا نهجه لنجاة من تبعه مجازا . وبين للخليقة
أحكام دينه امتناعاً وجوازاً . وعلى آله وأصحابه وخلفائه الذين فضلوا على
سائر البرية اختصاصاً وامتيازاً ، فكانوا فى المحل غيوثاً وليوثاً ، إذا اهتزت
رماحهم فى الوغى اهتزازا .

أما بعد ، فإننا نبتهل إلى الله تعالى فى بقاء هذه الدولة التى لم تزل أعلام
نصرها المرفوعة فى الخافقين خافقة ، ونجوم مجدها بآفاق الملك متلألآت
الأنوار مشرقة ، وشهب أسنة رماحها للشياطين رجوما ، ولوامع أضواء
آرائها فى ظلام الخطوب نجوم . وبروق أسياها فى غياهب العثير تتألق
إيماضاً ، ونفوس أعدائها ترد بجداول نصالها أنهاراً من الردى وحياضاً .

ونهى إلى هذه الدولة العلية العثمانية السنية السنية أيد الله أحكامها ،
وأبد أحكامها . ورفع على هام السماء أقدامها . ونصب فوق المجرة أعلامها ،
ومنحها من الظفر والنصر مالا يدخل تحت الحد والحصر .

إنه قد ورد الفرمان الشريف ، الواجب له القبول والتشريف ، خطاباً
إلى خادم سدة تلك الحضرة المظفرة المنصورة ، التى لم تزل بأعين العناية
على مدى الأيام ملحوظة ومنظورة . العبد الفقير أحمد المبتلى بقضاء مصر
المحروسة ، المتضمن إلباسه خلع الإقبال والقبول بتقليده قضاء مدينة الرسول .
ولا جرم إنها حلة يفتخر بها على الفخر ، ومحمدة يبقى ذكرها بقاء الدهر
وكيف لا ، وقد وجّه إلى مهبط التنزيل ، وتشرف بخدمة مدينة من شأنها
أكرام النزيل . غير أنه لخلو راحته وفقد استراحته لما توارده عليه من الشؤون
الموجبة لاضطرابه واضطراره ، وتعطل أمور مئونته فى إقامته وأسفاره ،
يعجز عن النهوض بأعباء هذا المنصب الجليل لفقد التحصيل وتعذر التحصيل ،
لأسيا والأقطار الحجازية مختل نظامها ، مستول عليها من البغاة طغامها .

وقد خلعوا من أعناقهم ربقة الإسلام والمسلمين ، وكادوا أن يطمسوا بما شرعوه .
ومن شرائعهم الباطلة معالم الدين ، وبأبي الله إلا أن يتم نوره ، ويذود عن
حرمة هذه الطائفة مقهورة مدحورة . فلقد جاوزوا الحد ، وغاملوا أهل
تلك النواحي بالمخالفة الأشد ، ولكن الله وعد المؤمنين التأييد ، ويوشك
أن يهلك تلك العصاة بأسيافكم ويبيد .

والملاحظ في هذه الرسالة الإسهاب ، وتكرار الفقرات والجمل المتحدة
المعنى ، والحرص على السجع والجناس . وقد بدأت بالتحميد والصلاة على
النبي في عبارات كثيرة ، لأنها صادرة عن قاضي العسكر . فوظيفة القاضي
الدينية هي التي جعلت الرسالة تبدأ بمقدمة يشيع فيها الروح الديني

ب - الرسائل الإخوانية

كان الشعراء والأدباء في هذا العصر يتبادلون الرسائل بكثرة فيما بينهم .
وكثيرا ما تجرى المكاتبات بين أهل البلد الواحد مع قرب الدار وتجاوز
السكن ، وذلك لشغفهم بالكتابة الفنية

حدث أن أبا المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ كان يتريض في
ناحية بولاق ، وتاقت نفسه إلى مسامرة الشاعر المشهور نور الدين العسيلي ،
فوجه إليه رسالة طويلة وصف فيها بولاق وطيب هوائها ، ورقة نسيمها ،
وجمال حدائقها . فما^(١) جاء فيها :

سيدنا البر الذي يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورد والصدر
بما يصدر من صدره . وينيف إحسانه نهرا راجيه وآمله . وتبتدر الأنام
التلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف زخار علومه تزاحم رقاب أعدائه على
سيفه وخصومه ، ويخضر خضرة الدو ، وقد أسبل عليها من صوب مدده

(١) الريحانة ص ٣١٩

بزد الجوى ، لينام الأنام من ظله بوريفه ، وتأمين من صروف الدهر
وحيفه .

علم سيدنا لازالت أمواج فضله تنثر لآلىء الإحسان وتنثل ، ولافتى
نهر الله إذا كان غيره نهر معقل ؛ أن مدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومدان
فلك السرور . الخ

كان أبو المواهب مغرماً بهذا النوع من الأساليب التي تزخر بالسجع
والجناس والطباق والمقابلة . ونلاحظ أن الرسالة اشتملت على ذكر البحر
والبر ، والورد والصدور ، والأمواج ، والظل الوارف ، والسيف بمعنى
الشاطئ ، والزرع والخضرة وغير ذلك ، وهذا كله من أثر البيئة البولاقية
وما كان فيها من الحدائق والبساتين الممتدة على شاطئ نهر النيل

* * *

وكتب عبد الله الإدكاوى إلى بعض أصدقائه :

« غب سلام يشوق عرفا ، ويروق طرفا ، وتحيات تيمد عطفنا
وتزيد لطفنا . وثناء يمد كفا ويعد عرفا ، وأشواق تطول وصفنا
وتقول ألفا .

فالمعروض بين تلك الأيادى الهامع جود جودها وكفا ، العزيزة
المنال عن الأنداد والأكفا . من المحب الذى ازداد شوقه ضعفا ،
وقل صبره ضعفا . هو أننا طلبنا لبارق جوابكم لحظنا وأدرنا طرفا ،
واستمعنا إشراق شمس فرائدكم الذى عز أن يخفى ، واستمطرنا ضوب
عرفانكم الأصنى ، وألفاظكم البديعة الرائقة المرصوفة رصفا ، وآثار
يراعتكم المصفوفة نقوشها صفا صفا . وثمار بدائعكم المذلة غصونها
للجانين قطفا . فطال أمد الانتظار ولم نمن جواد معانيكم فى

ميدان الطرس طرفا ، ودرر آثار بنانكم الزاكية وصفا حرفا .
فهنالك أشفقت من أن أحفى ، فكتبت هذه الألفاظ وقد زحف
جيش الشوق بمعركة الفؤاد زحفا . وفرت أفراس اصطبارى كسفا
كسفا . وأجبل عزمى تلت : ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي
نسفا . راجيا إن أجاب بما به الخاطر يشفى ، فأغدو منشدا حين أوتى
ما أحاذر وأكفى :

« يا نعمة من وارد جلب الـ إيناس بالعهد الذى وفى »

فأنت ترى أن الإدكاوى التزم فى رسالته كلها السجع الذى تنتهى
حروفه الأخيرة بالفاء . وذلك ليظهر براعته وقوته وتفوقه . ويبرهن على
أنه ملك زمام اللغة فانقادت له طائعة .

ولم يكن للرسائل الإخوانية من غرض سوى إظهار قوة منشئها البيانية،
ومقدرته فى الكتابة الفنية .

ومن رسالة للخشاب^(١) ونجها إلى مرتضى الزبيدى .

الاستاذ أدام الله تأييده ، وحلى بوجوده جبين الدهر وجيده ،
ذو الأنفاس الزكية ، والأخلاق المرضية ، والطلعة السنية ، والمشاهد
القدسية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فقد ورد كتاب السيد
المرتضى ، والحسيب المجتبى ، رافع ألوية العلوم ، ومحرر دقائق المنطوق
والمفهوم ، فإذا هو روض ألفتة العصون ، وعروس حسنها غن عين الحواسد
مصون ورأيت من سحره الحلال ، وسلساله الزلال ما بهر العقول ،
وأحجم عن مثله أولو المعقول .

(١) ديوان الخشاب ص ٣٨٩ طبع الجوائب

إلا أن السيد - لازالت سحائب جوده هاطلة ، وأعناق مناظريه من
حلي آدابه عاطلة - أغلظ في الخطاب ، وجاوز حد العتاب . ومع كونه ليس
له في فضله من مبارى لم يقل لما لعثارى . وتوهم أنى أبسط لسان الإساءة
إليه ، وأعاتبه وأنم عليه . إن بعض الظن إثم .

والأنسب بمن أحياء الإحياء^(١) وعم نفعه الأحياء ، ودانت له الرؤوس ،
وحل مشكلات العباب^(٢) والقاموس أن لا يكحل عين الود بالقذى ، ويتبع
صدقاته بالمن والأذى . وهبه وهبى ألف بدرة ، أيليق بمثله أن يعمل فيها
فكره ؟ فلقد كنت أجل شأنه أن يحرك بمثل ذلك لسانه . وغاية ما أوجب
هذا الامتنان ، وفتح باب المذاكرة في هذا الشأن ، أن غرضنا منه المواصله ،
لا حصول الصلة . ومقصودنا من شيمه المجاوزة لا قبض الجائزة . فلقد
ذهب بي - عفا الله عنه - كل مذهب ، وعصفه بريح الصد مذهب ، حيث
تخيّل أنى ممن يتوهم أن الشعر بالشعر ربا ، وسلك في مسلك من يرى ذلك
من أراذل الأدبا . والله در القائل :

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر
وهبى بعثت إليه أستمطر ندى يديه فبنو الهم أكفا ، وأولاد
رسول الله بالندى أحرى . ولقد هممت أن لا أحيى جوابا ، وأن لا أسطر
في شأن هذه الحادثة كتابا . وتمثلت بقول صاحب لامية المعجم ، فهو
من جملة الحكم :

فإنما رجل الدنيا وواحدھا من لا يعول في الدنيا على رجل
ثم عنى أن أتصل إلى الأستاذ علة يقبل ، وأعلل نفسى في بقاء وده
بعسى ولعل ، والسلام .

(١) أحياء الإحياء : الراد أنه شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) يشير إلى شرح القاموس المحيط لافيروز بادى الذى وضعه مرتضى الزبيدى . وكذلك
شرح العباب في اللغة .

فهذه الرسالة وإن كانت قد اشتملت على المحسنات اللفظية إلا أنه لم يظهر فيها ما يدل على أن الكاتب ضحى بالمعنى في سبيل اللفظ . ولن نجد فيها الإغراق في التكلف الذي يصل بالأسلوب إلى درجة الإسفاف والضعف، والإبهام والغموض . فأسلوبها يمتاز بالسهولة والوضوح . وقد أنشئت لغرض معين ، وهدف محدد وضعه الكاتب نصب عينيه ، وأراد أن يصل إليه من أقرب الطرق وأقصر المسالك . فقد حدثت جفوة بينه وبين مرتضى الزبيدي . فأراد الخشاب أن يزيل تلك الجفوة ، وأن يعيد الصفاء بينهما فأنشأ الرسالة المتقدمة لهذا الغرض .

ويمكننا أن نضيف إلى أغراض النثر الفنى المتقدمة : تقريظ الكتب، وكانت تظهر فيها المحسنات اللفظية . مثال ذلك ما كتبه عبد الله الإدكاوى تقريظاً لكتاب « دوحه الكتاب فى فنون الآداب » لمن اسمه نجيب ، وهو .

أسمت سرح فكرى فى خلال هذه الدوحه المثمرة ، وأدمت لمح نظرى فى ظلال هذه الروضة المزهرة . فرأيتها دوحه طوت فى منشورها من فنون الكتابة بغية كل محتاج ، ونشرت فى طيها ذكر قوم كانوا لآيامهم كالدرر فى التاج . فعين الله على جامعها فلقد أجاد فى هذا الجمع ، ومتع الناظر ببدايع ما أودعها مثل ما شنف السمع . وليس ذلك بغريب ولا عجيب إذا استفاد البلغاء من نجيب . . .

وإلى هنا ينتهى الكلام على النثر الفنى

فصل الثاني

النثر المرسل

النثر المرسل هو الذي لا يلتزم فيه صاحبه المحسنات اللفظية ، وإنما يضح
نصب عينيه الموضوع الذي يكتب فيه . ويحصر همه في سرد الأدلة والبراهين
التي تؤيد وجهة نظره . ومن أغراض النثر المرسل في هذا العصر :

نقد المجتمع

كان نقد المجتمع وإظهار ما فيه من عيوب من أغراض النثر المرسل في
ذلك العصر . مثال ذلك ما كتبه الشعرا في كتابه « تنبيه المغتربين » وهو :

« . . . فأين حال هؤلاء من مشايخ هذا الزمان الذين يسافرون من مصر
أو الحجاز أو الشام إلى الروم والعراق ليسألوا أن يرتب لهم السلطان جوالى
أو مسموحا أو مرتبا ؟ مع أن أحدهم يجد في بلده ما يكفيه . وكان الأولى بهم
لو عرض عليهم ذلك أن يردوه ، ولا يزاحموا جند السلطان في مال
المصالح كما درج عليه سلفهم الصالح . بل لم نر أحدا من مریدی المشايخ الذين
أدركناهم يسافر من بلده في طلب الدنيا فضلا عن المشايخ ، لأن أول
قدم يضعه المرید في الطريق أن يخرج عما بيده ويرميه في بحر الإياس .
كما هو معلوم . »

« وقد سافر مرة من مشايخ مصر شخص إلى الروم ، فاجتمع بالوزير
إياس باشا ، فقال له : ما صنعتك ؟ فقال : شيخ من أهل الطريق . »

فقال له إياس : فما حاجتك التي جئت فيها ؟ قال : أن ترتبوا لي شيئاً من بيت المال ، فقال له الوزير : هل تعلم أن أحدنا في مصر مثلك في الطريق ؟ فقال : لا . فقال له إياس : أف لك من شيخ !! إذا كان هذا حالك ، وأنت تزعم أنه ليس أحد في مصر أعلى منك مقاماً في الطريق ، فكيف ببقية المشايخ ؟ لقد أزريت بالفقراء وبهدلت الطريق . فإن آحاد المريدين لو فعل مثل ذلك وسافر من بلده إلى غيرها في طلب الدنيا لخرج من طريق الإرادة . فكيف تفعل أنت مثل ذلك في حال نهايتك ؟ وزجره وأمر بإخراجه من عنده . فرجع خاسراً لما طلب .

فتأمل أسلوب هذه القطعة تجد أنه لا يختلف عن أساليبنا التي نستخدمها نحن في عصرنا الحاضر . لا تكلف ولا ضعف ، بل هو أسلوب سهل الفهم ، واضح الألفاظ والعبارات . وكتب الشعرائي كلها من هذا النوع ، وكذلك كتب عبد الرؤوف المناوي .

وقد خصص الشعرائي معظم كتبه لنقد أحوال المجتمع في عصره بصفة عامة ، ونقد أحوال المتصوفة بصفة خاصة . فهو يرى أن معظمهم دجالون يمتالون على أكل أموال الناس . ويحذر المجتمع منهم ، ومن حيلهم ودجلهم ، ولا يدخر في ذلك وسماً . ويورد صوراً وقصصاً عن فساد أخلاقهم وتهاقهم على حطام الدنيا ، ووقوفهم بأبواب الحكام مستجدين . لهذا الحطام . ويوازن بينهم وبين أخلاق السلف الصالح من المتصوفة الذين شاهدتهم وتلقى عنهم . ويتألم لخلو المجتمع من أمثال هؤلاء الصالحين .

لغة التأليف

ومن أغراض النثر المرسل: التأليف . فقد اتخذ المؤلفون هذا الأسلوب السهل في تأليف كتبهم ، ولم يستخدموا المحسنات اللفظية إلا في القليل النادر . واهتموا بمناقشة الآراء والتعليق عليها ، وإقامة الأدلة على صحة ما يقولون . مثال ذلك ماورد في كتاب « الجوهرة المضيئة في تجويز إضافة الإيمان الجازم إلى المشيئة » مؤلفه أبي الحسن البكري المتوفى سنة ٥٩٥٢ وهو :

« وذلك^(١) ما ظهر لي في قول الله جل ذكره - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - فأقول : ليعلم أن بعضهم بنى الاستدلال لهذا المدعى على قوله تعالى - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - »

« والذي يظهر لي أن بناءه على قوله - لقد صدق الله رسوله - هو الأولى ، إن لم يكن المتعين ، فان تعليق المستقبل بالمشيئة ليس محل نزاع ، وإنما الكلام في الماضي والحال ، فقوله - لتدخلن إلى آخره - مبين لقوله سبحانه - لقد صدق الله - فيؤخذ منه أن قرآن المشيئة بالأمر القطعي الذي لا يقبل التردد أمر سائغ ، وذلك أن الله تعالى آتى بالصيغة الماضية حيث يقول - لقد صدق الله رسوله - مؤكدة باللام الموطئة للقسم ، وبقد ، ومؤكدا مفادها بالإتيان بالماضي في محل المضارع ، دلالة على

(١) مخطوط رقم ٩٢ مجامع ، عقائد تيهور ، ورقة رقم ٢ وما بعدها .

تحقيق الوقوع ، ورتب عليه قوله - لتدخلن إلى آخره - وهذا من جليل
اعتناء الله تعالى بإدخال البشرى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى
المؤمنين بتحقيق رؤياه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو قال - ليصدقن الله
رسوله إلى آخر الآية - فإن ذلك يكون إخباراً عما سيقع ، وهو دون
الخبر عن تقدم الوقوع ،

فهذا الأسلوب لا يختلف عن أساليبنا المعاصرة .

الفصل الثالث

العصر الشعبي

ظهر في هذا العصر كتاب استخدموا لأول مرة اللغة العامية الدارجة في كتبهم . وأهم هذه الكتب سيرة الظاهر بيبرس لعدة مؤلفين متتابعين ، كان كل منهم يزيد عليها فصلاً أو عدة فصول .

تبدأ وقائع هذه القصة في بغداد في عهد الخليفة المستكفي بالله العباسي وسجلت معارك خيالية نشبت بين هذا الخليفة وبين التتار . وانتهت هذه للمعارك بانتصار المسلمين ، وذلك بفضل صلاح الدين الأيوبي الذي كافأه الخليفة بأن منحه ولاية مصر .

ثم انتقلت وقائعها إلى مدينة القاهرة بقيام الدولة الأيوبية . ولم يشغل الحكم الأيوبي في القصة إلا حيزاً صغيراً . فقد تجاهل القاص صلاح الدين وخلفاءه ، وما قاموا به من جهاد وكفاح . وصور الملك الصالح نجم الدين أيوب قطباً من أقطاب الأولياء ، زاهداً زهد كاه ، حتى إنه لا يتناول من الطعام سوى الخبز اليابس والدقة ، أي أنه لا يصلح لأن يكون ملكاً . أما معز الدين أيوب فقد جاء في صورة كريهة جداً ، ليس لها سند من التاريخ الصحيح . فهو لا يتردد في التعاون مع الفرنجة إذا اقتضت مصلحته ذلك . وهو ظالم مستبد . ومن أجل هذا تعرض لسخط الشعب الذي كان يقف له بالمرصاد ، ويوجه إليه الشتائم والسباب ، حتى اضطر أن يعمل سرداباً بين قصره وديوان الحكم ليسلكه في غدوه ورواحه ، فراراً من الناس وابتعاداً عنهم .

أما الأحوال الاجتماعية قبيل حكم بيبرس فقد بلغت الغاية في الاضطراب

والفساد . اختل الأمن وتعرضت الأرواح للإزهاق ، والممتلكات والأموال
للسلب والسرقة . وعجز الحكام عن كبح جماح اللصوص وقطاع الطرق ، بل
إنهم كانوا يخشون بأس رجال العصابات ويعضون الطرف عن جرائمهم . وانتشر
أهل الدعارة وتجار الأعراض في كل مكان . وكثرت الموبقات وانتهكت
الحرمات جهاراً نهاراً . وكانت شخصية عثمان بن الحيلة رمزا لاختلال الأمن
والاستهانة بالحكام في ذلك العصر . وكان ييبرس هو الشخص الوحيد الذي
بعثته العناية الإلهية ليخلص مصر مما ألم بها من المصائب والشور .

والتاريخ يحدثننا عن ثورات عنيفة نشبت ضد العنصر المملوكي في مصر
فقد أنفت العناصر العربية أن تخضع لهؤلاء العبيد ، وأعلنت العصيان .
واستقل أحد الأشراف بحكم منطقة واسعة من الصعيد ، وأطلق على نفسه
لقب أمير المؤمنين . كما قامت حركات مماثلة في بعض مناطق الوجه البحري .
وقد استطاع المماليك أن يقضوا على هذه الحركات بعد جهود شاقة . إلا أن
الإحساس بالنقص من كونهم أرقاء مجهولي الأصل ، غرباء عن البلاد ، هذا
الإحساس ظل يلازمهم طوال حياتهم .

فليس ببعيد أن يكون واضح هذه القصة هدف في أول أمره إلى الدعاية
للعنصر المملوكي . وإذا كان للعرب أبطال مثل عنتره وأبي زيد الهلالي وسيف
ابن ذي يزن ، وإذا كانت هناك قصص تروى عن هؤلاء الأبطال ، فلماذا لا يكون
للعنصر المملوكي أبطاله ؟ ولماذا لا تؤلف عن هؤلاء الأبطال قصص على نحو
ما ألف عن أبطال العرب ؟ هذا على ما يبدو منشأ الفكرة التي سيطرت على
ذهن المؤلف في أول الأمر ، ووجدت تشجيعاً من المماليك الذين كانوا
يتوقون إلى إحياء مجدهم السابق الذي أزيل على يد العثمانيين . فهي خير
من يذكرهم بهذا المجد ، وخير من يبعث فيهم الهمم على الكفاح
والنضال .

إن شخصية بيبرس تكاد تضارع أعظم الشخصيات العربية التي عرفت بالعدل والاستقامة ، والعزم والحزم ، والغضب للحق ، والشدة في مواطن الشدة ، واللين في مواضع اللين . والغيرة على الإسلام والمسلمين ، والكفاح ضد الكفار والمشركين . بل إن القصة صورت بيبرس رجلا لا يخطيء ، ولا يجيد عن سواء السبيل .

وإن جانب الإشادة بالعنصر المملوكي تجدد الرغبة في التشهير بالحكم العثماني . ففي مواضع كثيرة تطالعك حيل ملتزمي الأراضي الزراعية ، وما طبعوا عليه من بطش وظلم وقسوة في تسخير الفلاحين في الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا ، لا يتجاوز رغيفين وبصلتين في اليوم . وترى فساد القضاء ، والرشوة المنتشرة بين القضاة الذين كانوا كما ذكر في القصة يخللون الحرام ، ويحرمون الحلال . ففيها إذن حض على الثورة في وجه الحكم العثماني .

وقد أخذ العنصر المملوكي يسترد قوته يوما بعد يوم . ولما شعر العثمانيون بالخطر اجتهدوا في الإيقاع بين المماليك . فانقسموا إلى فقارية وقاسمية ، وظلوا يتنازعون فيما بينهم على السلطان ، وأخيرا ظهر منهم على بك الكبير . وقد صار نفوذ العثمانيين في مصر اسميا ، وكان الحكم الحقيقي للعنصر المملوكي منذ سنة ١١١٩ هـ فهذه القصة التي كتبت باللغة العامية الدارجة ليفهمها المماليك قد نجحت في أداء رسالتها إلى حد بعيد . ولو تجرد المماليك من المطامع الذاتية ، وخضعوا لزعيم واحد لنجحوا في الاستقلال بمصر .

وقد حرص مؤلفو القصة على أن يربطوا بين مصر والشام . ألم يكن بين البلدين ارتباط وثيق قبل الغزو العثماني ؟ ولذلك نرى بيبرس ينتفع بكثيرين من أبطال الشام . مثل الفارس المغوار إبراهيم الحوراني صاحب قلعة حوران بالشام . وكان كما جاء في القصة مقبلا مع أتباعه الحوارنة في

مساكن خاصة بهم . وقد ظل إبراهيم طوال حياته مخلصا لمولاه .
أما البطل الثانى فهو سعد بن دبل البيسانى ، وهو ابن خالة إبراهيم الحورانى
وعملهما متشابه ، فهما يحرسان القصر السلطانى ليلا ، ويلازمان بيبرس
فى حله وترحاله ملازمة الظل . والبطل الثالث أيدمر البهلوان . وقد اشترك
فى جميع الحروب والمعارك التى خاض غمارها الجيش المصرى . وشاهد من
الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه .

وفى القصة مجال واسع للجاسوسية ، وبراعة فى التخفى والتنكر . فمن
أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده ، وكانوا يعملون فى خدمة
بيبرس بنشاط منقطع النظير . فتراهم يتنكرون فى هيئة رهبان ،
أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم ، أو من بلاد العجم . وأحيانا
فى صورة فتيات جميلات ، أو جوارى حبشيات . ويطلون أجسامهم بألوان
تناسب الحالة التى يتنكرون فيها . ولهم مهارة فائقة فى تسلق جدران القصور
والأسوار ، والحصون والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا ، واستخدام
البنج ليفقد العدو وعيه ، وحينئذ يحملونه ويهربون به .

وكان شيحة كما تصوره القصة حافظا للإنجيل ، إذا رتل بصوته الشجى
أثر فى سامعيه إلى حد كبير . ويجيد التكلم بلغة الفرنجة ، كما كان خبيرا
ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة بطريق مسيحي
لم يستطع أحد أن يكشف حقيقة أمره .

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحي ، وهو البطريق جوان ،
الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة . وكان جوان
حافظا للقرآن ، ولكثير من الأحاديث النبوية ، دارسا لأمهات الكتب
اللغوية والنحوية ، وكتب الفقه والتفسير . فاستطاع أن يدخل القاهرة
متنكرا فى زي عالم مسلم اسمه الشيخ صلاح الدين . وأن يظفر بوظيفة
(م ١٨ - الأدب المصرى)

قاضى الديوان الملكى للصالح نجم الدين أيوب ، وهى من الوظائف التى يشغلها أكبر علماء المسلمين . وشرع جوان ، أو الشيخ صلاح الدين ، يدس الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعبا . ويراسل الفرنجة سرا ، حاضا إياهم على غزو مصر واحتلالها . واتخذ له مسكنا بحارة الروم .

والبيئة المصرية ظاهرة فى القصة ظهورا لاخفاء معه . فلم تترك ناحية من نواحي الحياة المصرية دون أن توفىها حقها من البحث والتحقيق والتحليل . كما ورد ذكر لكثير من أحياء القاهرة . وحواريها وشوارعها ، كحى بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق ، والجمايز ، والبساتين ، وقلعة الكباش ، وقناطر السباع ، وشبرا ، والرميلة وغيرها ومن المدن : بنها العسل ، وقلبيوب ، والإسكندرية ، ودمياط وغيرها .

وإلى جانب ما تقدم نرى حيزا كبيرا يصور البيئة الشامية ، وبخاصة بيئة القداوية . والقداوية طائفة تعتنق مبادئ شيعية وتسكن فى بعض جهات الشام . وقد حاول صلاح الدين أن يقضى على نفوذها فلم يوفق . وظلت تتمتع بقوتها حتى خضعت أخيرا لبيبرس ، ولم يكن لها فى أيامه شأن يذكر . هذا ما سجله التاريخ ، ولكن القصة صورت القداوية فى صورة قوم جبارة عتاة ، أولى بأس وقوة . ولهم سلطنة اسمها سلطنة القلاع والحصون . وهم يسكنون هذه القلاع ، وكل قلعة أو حصن حوله مدينة أو عدة مدن تتبعه . ويتمتع سلطانهم بحكم نافذ عليهم ، لا مرد له ولا معقب لأمره . وهم لا يخضعون لأحد غيره ، ولا يحكم بينهم شخص سواه . وحتى هؤلاء الأبطال الذين عاونوا بيبرس كإبراهيم الحوراني وسعد بن دبل لم يكونوا خاضعين لبيبرس إلا بأمر من سلطانهم شيعية . وإذا حدث منهم ما يستوجب العقوبة تولى سلطانهم التحقيق معهم والحكم عليهم بما يراه .

ويكثر في القصة استخدام البنج بوضعه في الطعام أو الشراب ، أو مع البخور ، أو إلقائه في المواقد . وأحيانا نرى السم بدله . كما يكثر فيها الاستعانة بالسحر .

وبالقصة ما شئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية ، والتحليل النفسى الدقيق ، والمآزق التى تسمى عقدة القصة ، وفيها من قوة الخيال ما يبعث الدهشة ويثير الإعجاب . وبها صراع عنيف بين الخير والشر ، وشعر عالى لا قيمة له ، وهو غالبا فى المديح النبوى ، أو التوسل والاستغاثة . كان يتغنى به من حين إلى حين ترفيها عن السامعين وتنشيطاهم . وقد شغلت كرامات الأولياء جانبا كبيرا منها .

* * *

وبالقصة كلمات تركية مثل باشا ، وبك ، وطوبجى ، وخانجى . وكلمات إفرنجية مثل كرستيان ، ورين ودوكتا . وجلف أى خليج .

ومن القصص التى دوت ، فى هذا العصر : سيرة الأميرة ذات الهممة . ويبدو أن مؤلفها اطلع على تاريخ الحروب التى جرت بين المسلمين والدولة الرومانية الشرقية . ثم وضع القصة لتصوير هذه الوقائع ، لا أكثر ولا أقل . وقد صور حياة أبطال العرب وفرسانهم . وتجرى حوادثها بين جزيرة العرب والعراق والشام وآسيا الصغرى . ومن أبطالها : هارون الرشيد ، والمأمون ، وبعض أباطرة الروم . واستخدم فيها البنج والسحر فى نطاق ضيق . ولن تجد فيها على طولها سوى الحرب والغارات ، فتارة يكون النصر فى جانب المسلمين ، وتارة فى جانب الروم . ولن تسمع فيها غير صليل السيوف ، ووقع سنابك الخيل . ولن نرى غير الرءوس المتطايرة ، والأشلاء المتناثرة .

الباب السادس

الفصل الأول

بعض مشاهير الكتاب

١

الشهاب الخفاجي

٠٠٠ - ١٠٦٩ هـ

هو أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجي .
أصله من سر يا قوس .

نشأ في بيت أدب وعلم وكان والده على جانب من الثراء . فاستطاع
الشهاب أن يتفرغ للدرس والتحصيل . وكان شغفه بالعلم والأدب مع مارزقه
من الموهبة الطبيعية من العوامل التي هيأت له مكانا عليا بين أعلام الكتاب
في هذا العصر . وقد ترجم لنفسه في كتابه الريحانة ، فيما قاله :

« . . . فلما درجت من عشي قرأت على خالي ، يعني أبا بكر الشنواني ،
سيبويه زمانه علوم العربية . ثم ترقيت فقرأت المعاني والمنطق وبقية العلوم .
ونظرت كتب المذهبين : مذهب أبي حنيفة والشافعي . »

« ومن أجل من أخذت عنه شيخ الإسلام الشمس الرملي . حضرت
دروسه الفرعية ، وقرأت عليه شيئا من مسلم ، فأجازني بذلك وبجميع
مؤلفاته ومروياته . »

« ومنهم شافعي زمانه القطب العارف بالله تعالى الشيخ نور الدين الزيادي ، زاد الله حسناته . حضرت دروسه زمانا طويلا . » « ومنهم العلامة نفي سائر الفنون على بن غانم المقدسي الحنفي ، حضرت دروسه ، وقرأت عليه الحديث ، وكتب لي إجازة بخطه . ومنهم العلامة الفهامة خاتمة حفاظ المحدثين إبراهيم العلقمي . قرأت عليه الشفاء بتمامه ، وأجازني به وبغيره . ومن أخذت عنه الأدب والشعر شيخنا العلامة أحمد العلقمي ، والعلامة محمد الصالح الشامي ، والعنباياتي . ومن أخذت عنه العروض الشيخ محمد المغربي المعروف بكروك . ومن أخذت عنه الطب الشيخ دواد البصير . »

« ثم ارتحلت مع والدي للحرمين الشريفين . وقرأت ثمة على الشيخ علي بن جاد الله ، وعلى حفيده العصام وغيره . »

« ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين . واستفدت منهم ، وتخرجت عليهم ، وهي إذ ذاك مشحونة بالفضلاء الأذكياء كابن عبد الغني ، ومصطفى بن عربي ، والحبر داود ، وهو ممن أخذت عنه الرياضيات ، وقرأت عليه إقليدس وغيره . وأجلهم إذ ذاك أستاذي سعد الملة والدين ابن حسن . ولما توفي قام مقامه صنع الله ، ثم ولداه . ثم انقضوا في مدة يسيرة فلم يبق بها عين ولا أثر . وصار الدين ملعبة وسخرية . وآل الأمر إلى اجترأ السلاطين والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم . ولما عدت إليها ثانيا بعد ما توليت قضاء العساكر بمصر رأيت تنافس الأمر ، وغلبة الجهل . فذكرت ذلك للوزير ظلنا بأن النصيح يفيد ، فإذا هو كما قيل :

هو الوزير ولا أزر يشد به مثل العروض له بحر بلاماء

فكان ذلك سببا لعزلي وأمرى بالخروج من تلك المدينة ، وإظهار العداوة ممن هو في زى العلماء ، مع أنه لم يبق بها أحد يحسن قراءة الفاتحة » وترجم له صاحب خلاصة الأثر ، فمما قاله :

« أحمد بن عمر قاضى القضاة ، الملقب بشهاب الدين الخفاجى المصرى .
الحنفى . أصله من سرياقوس . صاحب التصانيف السائرة ، وأحد أفراد
الدنيا ، المجمع على تفوقه وبراعته »

« كان فى عصره بدر سماء العلم ، ونير أفق النثر والنظم . رأس المؤلفين ،
ورئيس المصنفين . سار ذكره سير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب
فى الفلك . وكل من رأيناه وسمعناه ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد فى
التقرير والتحرير وحسن الإنشاء . وليس فىهم من يلحق شأوه ، ولا يدعى ذلك
مع أنه فى الخلق من يدعى ما ليس فيه »

وتأليفه كثيرة ممتعة مقبولة . وانتشرت فى البلاد ، وورق فيها سعادة
عظيمة . وأشعاره ومنشأته مسامة لاجمال للخدش فيها . والحاصل أنه فاق
كل من تقدمه فى كل فضيلة ، وأتعب من يجيئ بعده . مع ما خوله الله تعالى
من السعة وكثرة الكتب ، ولطف الطبع ، والنكته النادرة . وله رسائل
كثيرة ، ومكاتبات وافرة لم يجمعها . ومقامات ذكر بعضها فى ريجانته »

« وكان لما وصل الروم فى رحلته الأولى ، ولى القضاء ببلاد الروملى
حتى وصل إلى أعلى مناصبها . وفى زمن السلطان مراد توصل حتى اشتهر
بالفضل الباهر ، فولاه السلطان قضاء سلانيك ، فحصل بها مالا كثيرا .
ثم أعطى قضاء مصر . وبعد ما عزل عنها رجع إلى بلاد الروم . فر بدمشق
وأقام بها أياما . ومدحه فضلاؤها بالقصائد ، واعتنى به أهلها وعلمائها
فأكرموا منزله . ودخل حلب ثم وصل إلى الروم . وكان إذ ذاك مفتيها
يحيى بن زكريا ، فأعرض عنه لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضاائه فى سلانيك
ومصر ، من الجرأة وبعض الطمع . فصنع مقامة وتعرض فيها للمولى
المذكور ، فكان ذلك سببا لنفيه إلى مصر وأعطى قضاء ثمة على وجه العيشة .
فاستقر بمصر يؤلف ويصنف ويقرئ وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل .

الباهر ، ، من جملتهم العلامة عبد القادر البغدادي ، والسيد أحمد الحموي
وغيرهما . وقصده الطلاب من سائر البلاد »

« وكانت وفاته — رحمه الله — في رمضان سنة ١٠٦٩ وقد أناف على
التسعين . وكان توفي قبله بثلاثة أشهر الفقيه الكبير محمد بن أحمد الشوبري
الملقب بالشافعي الصغير ، فقال فيهما السيد الأديب أحمد بن محمد الحموي
المصري ، وكان يقرأ عليهما .

مضى الإمامان في فقه وفي أدب الشوبري والخفاجي زينة العرب
وكنت أبكي لفقد الفقه منفردا فصرت أبكي لفقد الفقه والأدب

ومن آثاره التي وصلتنا :

- ١ — قصائد الخفاجي ، مخطوط ٧٦ مجاميع دار الكتب .
- ٢ — ريحانة الألبا ، وزهرة الحياة الدنيا . مطبوع .
- ٣ — خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا . مخطوط .
- ٤ — طراز المجالس . مطبوع .
- ٥ — البوارح والسوانح . مطبوع .
- ٦ — النفحة القدسية . مطبوع .
- ٧ — عناية القاضي وكفاية الراضى . مطبوع .
- ٨ — حاشية على شرح الجرجاني على المفتاح . مطبوع .
- ٩ — ديوان شعره . مخطوط بمكتبة الجامعة الأزهرية .
- ١٠ — شفاء الغايل فيما في كلام العرب من الدخيل . مطبوع .

وتدل مؤلفات الشهاب الخفاجي على تمكنه من الأدب العربي القديم، وحفظه لكثير من شعر القدماء . فإذا أورد في خلال تراجمه لمعاصريه شيئاً من شعرهم أتبعه في كثير من الأحيان بما يماثله من آثار السابقين ، وهو ناقد بارع ، وكاتب لا يشق له غبار . يناقش ويجادل كما ترى في كتابه « طراز المجالس » وغيره من كتبه .

٢

مرعى بن يوسف الحنبلي

..... - ١٠٣٣ هـ

مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي ، نسبة إلى طوركرم ، بلدة بالقرب من نابلس ، ثم المقدسي . أحد كبار علماء الحنابلة بمصر . وكان له الباع الطويل في العلوم الدينية والأدبية .

حضر إلى القاهرة ودرس على شيوخها . ثم تصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وأسندت إليه مشيخة جامع السلطان حسن حيناً من الزمن . وكان منهمكاً على العلوم انهماكاً كلياً ، فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس ، والتحقيق والتصنيف ، فسارت بتأليفه الركبان . ومع كثرة أضداده وأعدائه ما أمكن أن يطعن فيها أحد ، ولا أن ينظر بعين الإزراء فيها . وقد ترجم له صاحب خلاصة الآثار ، وذكر أنه له ديوان شعر . ومن مؤلفاته :

- ١ - ديوان شعره . ولم يصل إلينا
- ٢ - مسبوكة الذهب في فضل العرب ، مخطوط تيمور
- ٣ - غاية المنتهى في الفقه . مطبوع
- ٤ - الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية . مطبوع
- ٥ - تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك في رمضان . مخطوط تيمور .
- ٦ - توضيح البرهان في الفرق بين الإسلام والإيمان . مخطوط تيمور

- ٧ - قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . مخطوط
- ٨ - نزهة الناظرين فيمن ولي مصر من الخلفاء والسلاطين . مخطوط
- ٩ - جامع الدعاء وورد الظماء ، مخطوط
- ١٠ - بديع الإنشاء والمراسلات . مطبوع

وله غير ذلك ، ومن شعره :

لئن قلد الناس الأئمة إني لفي مذهب الجبر ابن حنبل راغب
أقلد فتسواه وأعشق قوله وللناس فيما يعشقون مذاهب

توفي بالقاهرة في شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٣ هـ

٣.

عبد البر الفيومي

..... - ١٠٧٢ هـ

هو^(١) عبد البر بن عبد القادر بن محمد الفيومي العوفي الحنفي ، أحد أدباء
الزمان المتفوقين ، وفضلائه البارعين . كان كثير الفضل ، جم الفائدة ، شاعرا
مطبوعا ، مقتدرا على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، حسن الإبداع
للمعاني ، مخالطا لكبار العلماء والأدباء ، معدودا من ساجدهم . درس في مصر
على شيوخ عصره . ثم درس في مكة وفي دمشق والقسطنطينية . ولازم
الشهاب الخفاجي مدة من الزمن . وولى بعض المناصب في خارج البلاد المصرية
وألف كتباً كثيرة أشهرها كتاب « منزه العيون والألباب في بعض المتأخرين
من أهل الآداب » جعله على طريقة الريحانة إلا أنه رتبته على حروف المعجم
وزاد عليه معاصريه . وقد اشتهر هذا الكتاب في بلاد الشام ، وكان من
المصادر التي نقل عنها المحي صاحب خلاصة الأثر . ولم يصلنا هذا الكتاب .

(١) خلاصة الأثر ٢/٥٠٠

٤

عبد القادر البغدادي

٠٠٠ - ١٠٩٣ هـ

هو عبد^(١) القادر بن عمر البغدادي نزيل القاهرة ، الأديب المصنف ،
الرحال الباهر الطريقة في الإحاطة بالمعارف والتضلع من الذخائر العلمية .
وكان فاضلاً بارعاً ، مطلعاً على أقسام كلام العرب النظم والنثر ، راوياً لوقائعها
وحروبها وأيامها . وكان يحفظ مقامات الحريري وكثيراً من دواوين العرب
على اختلاف طبقاتهم . وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار ،
والحكايات البديعة مع التثبت في النقل وزيادة الفضل ، والانتقاد الحسن ،
ومناسبة إيراد كل شيء منها في موضعه مع اللطافة وقوة الذاكرة ، وحسن
المنادمة ، وحفظ اللغة الفارسية والتركية ، وإتقانها كل الإتقان ومعرفة
الأشعار الحسنة منهما ، وأخبار الفرس .

خرج من بغداد وهو متقن لهذه اللغات الثلاث ، وورد دمشق وقرأ بها
على بعض علمائها ، ثم رحل إلى مصر سنة ٥٠٠ هـ وأخذ العلوم الشرعية وآلاتها
النقلية والعقلية عن جمع من مشايخ الأزهر ، أجلبهم الشهاب الخفاجي
والشبراملسي . وأكثر لزومه كان للخفاجي . قرأ عليه كثيراً من التفسير
والحديث والآداب ، وأجازه بذلك وبمؤلفاته .

وكان الخفاجي مع جلالته وعظمته يراجعه في المسائل الغريبة لمعرفته
مظانها ، وسعة اطلاعه وطول بابه . حكى أنه قال إن ما حفظه قطرة من
غدير الشهاب . وأنه استفاد علومه الأدبية منه .

ولما مات الشهاب تملك أكثر كتبه ، وجمع كتباً كثيرة . قيل إنه كان

(١) الخلاصة ٤٥١/٢

يملك ألف ديوان من دواوين العرب العاربة . وألف المؤلفات الفائقة أشهرها خزانة الأدب ، وشرح شواهد الكافية للرضي ، ووضع حاشية على شرح بانة سعاد لابن هشام .

سافر إلى درنة صرتين، ثم رجع واستقر بمصر إلى أن توفي بها سنة ١٠٩٣هـ

* * *

ومن كتاب هذا العصر : ابن حجر الهيتمي ، والشعراني ، وعبد الرؤف المناوي ، وعبد الله الإدكاوي ، والخشاب وغير هؤلاء كثيرون .

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلماء

١

داود الأنطاكي

٠٠٠ - ١٠٠٨ هـ

« هو الحكيم^(١) داود بن عمر البصير الأنطاكي نزيل القاهرة، الحكيم الطبيب المشهور ، رأس الأطباء في زمانه ، وشيخ العلوم الحكيمية ، وأعجوبة الدهر .

ولد بأنطاكية . وفي السابعة من عمره أصيب بمرض أعجزه عن الحركة . وكان والده شيخا لقرية حبيب النجار ، فاتخذ قرب مزار هذا الولي رباطا للواردين ، وبني فيه حجرات للفقراء والمجاورين . ورتب لها في كل صباح من الطعام ما يكفي النازلين بها . وخصص بعض الخدم للقيام بحمل الطعام وتوزيعه على الضيوف . وكان الخدم يحملون داود إلى الرباط فيقضى به طول اليوم ، وفي المساء يعيدونه إلى منزل والده »

« وكان إذ ذاك قد حفظ القرآن ، ودرس مبادئ اللغة العربية ، ولبت يدعو الله في سره وجهره أن يمن عليه بالشفاء . وذات يوم أقبل على الرباط رجل عجمي من أفاضل العجم ، اسمه محمد شريف ، وأخذ يدرس في الرباط . وكان داود يحضر هذه الدروس ، فأعجب العجمي بذكائه وحسن استعداده فعالج ساقيه حتى برىء واستطاع أن يمشى على قدميه .

وبعد ذلك درس على العجمي علوم المنطق والرياضة والعلوم الطبيعية .

ثم مات والده ، واستولت الحكومة على ما تركه . فخرج داود من دياره .
فأصدا مصر . وفي طريقه إلى مصر عرج على جبل عامل فأخذ عن مشايخه . ثم
دخل دمشق واجتمع بعلمائها . ثم جاء إلى مصر وأقام فيها مدة من الزمن .

وكان إذا سئل عن شيء من الفنون الحسكية والطبيعية والرياضية أملى
على السائل في ذلك ما يبلغ الكراسة والكراستين ، كما هو مشهور مثل
ذلك عن الشيخ الرئيس أبي علي بن الحسين .

وله من التأليف والرسائل والأشعار المزرية بروض الخهائل ما هو بأيدي
الناس مألوف . منها تذكرته في الطب وهي مشهورة . وله رسالة في الحمام
ألفها باسم الأستاذ البكري . وشرح قصيدة « النفس » المشهورة لابن سينا ،
« وهو شرح فصل فيه حقيقة النفس وجوهرها النفيس ، يرضى السائل وإن
كان الشيخ الرئيس »

وقد دافع عنه صاحب خلاصة الأثر ، ونفى عنه التشيع ، ولكن
تلميذه مدين القوصوني الذي درس عليه الطب قال عنه « إنه ^(١) كان شيعيا
مخالفا لعقيدة الأشعرية ، وهم الذين يثبتون لله صفات قديمة ، ويثبتون
الإمامة بالاتفاق والنص ، وموافقا لعقيدة الشيعة وهم الذين بايعوا علياً ،
وقالوا بإمامته نصاً ووصية . والحق أحق أن يتبع في بيان معتقد الإنسان .
وصاحب الترجمة من هذا القبيل ، فكم له من اعتقادات فاسدة ،
وأقاويل كاذبة »

وقال تلميذه الشهاب الخفاجي في الريحانة ^(٢) « . . . إلا أنه كان على
مذهب الحكماء ومشرب الندماء ، ولذا كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل
عنه رشح قطر من خفي إلحاده » .

(١) خلاصة الأثر ٢/١٤٤ (٢) ص ٢٧١

ومن مؤلفاته التي وصلت إلينا :

- ١ - نزهة الأذهان في طب الأبدان .
- ٢ - النزهة المبهجة في تشخيص الأذهان وتعديل الأمراض .
- ٣ - تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجائب « تذكرة داود »
- ٤ - تزيين أسواق العشاق .

مر تضي الزبيدي

١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي
الحنفي .

ولد سنة ١١٤٥ بزييد ونشأ بها . ثم رحل في طلب العلم وحج مرارا .
 واجتمع بعلماء مكة وأخذ عنهم كالشيخ عبدالله السندي ، والشيخ عمر بن
 أحمد بن عثيل المكي ، وعبدالله السقاف وغيرهم . كما قرأ على الشيخ
 عبد الرحمن العيدروس مختصر السعد ولازمه ملازمة كلية وألبسه العيدروس
 الخرقه وأجازه بمروياته ومسموعاته ، وأغراه بالرحلة إلى مصر بما وصفه
 له من علمائها وأمرائها وأدبائها .

فقدم إلى القاهرة في تاسع صفر سنة ١١٦٧ هـ وسكن بخان الصباغة .
 وأول من عاشره وأخذ عنه السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر .
 وحضر دروس شيوخ الأزهر في ذلك الوقت كالشيخ أحمد الملوى والجوهري
 والحنفي والبليدي والصعدي والمدابغي وغيرهم . وتلقى عنهم وأجازوه ،
 وشهدوا بعلمه وفضله ، وجودة حفظه .

ثم اتصل بالأمير إسماعيل كتحدا عزبان فأغدق عليه الأموال : فحسنت حاله ورغد عيشه ، واشتهر ذكره عند الخاص والعام . ولبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات . واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه . وأكرمه شيخ العرب همام ، وأولاد نصير وأولاد وافي ، وأحفوه بالهدايا النفيسة .

وكذلك ارتحل مرارا إلى الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة وغيرها . وأكرمه أهلها ورحبوا به وأحسنوا ضيافته . وصنف عدة كتب عن رحلاته في الوجهين البحري والقبلي تحتوي على لطائف ومحاورات ومدائح نظما ونثرا .

وكناه السيد أبو الأنوار بن وفا بأبي الفيض ، وذلك في السابع عشر من شعبان سنة ١١٨٢ هـ

ثم تزوج وسكن بعطفة العسال مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة . وشرح القاموس في نحو أربعة عشر مجلدا سماه « تاج العروس » ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم ، وأشياخ الوقت بغيط المعديفة سنة ١١٨١ هـ وأطلعهم عليه ، واغتنبوا به ، وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ، ورسوخه في علم اللغة ، وقرظوه نثرا ونظما .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر وعمل فيه خزانة للكتب ، اشترى نسخة من تاج العروس بمائة ألف درهم .

ثم انتقل إلى منزل بسويقة اللالا ، تجاه جامع محرم افندي ، بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي ، سنة ١١٨٩ هـ وكانت تلك الخطة عامرة إذ ذاك بالأكابر والأعيان ، فأحدقوا به وتحبب إليهم ، وأنسوا به وهادوه . وهو يظهر لهم الغنى والتعفف ، ويعظمهم ويفيدهم ، فأقبلوا عليه من كل جهة ، وأتوا لزيارته من كل ناحية . ورجبوا في معاشرته لكونه غريبا ، وعلى غير

هيئة العلماء للمصريين وشكاهم - ويعرف اللغتين الفارسية والتركية
ثم شرع في إملاء الحديث على طريقة القدماء من ذكر الأسانيد والرواة
والمخرجين من حفظه على طرق مختلفة ، وكل من قدم عليه يلى عليه الحديث
المسلسل بالأولية ، وهو حديث الرحمة برواته ومخرجيه ، ويكتب له سنداً
بذلك ، وبإجازة وسماع الحاضرين ، فأعجب الناس بمنهجه وواظبوا على
حضور دروسه

وذهب إليه علماء الأزهر وطلبوا منه إجازة فقال لهم : لا بد من قراءة
أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصايبية يومى الاثنين
والخمس ، ليكونوا بعيدين عن أعين الناس ، وشرعوا في قراءة صحيح
البخارى ، ولكن أهل الخطة مالبثوا أن سمعوا بهذه الاجتماعات ، فزادت
مكانة الزبيدي ارتفاعاً في نظرهم ، وعلت منزلته عندهم ، فحضرها هذه
الاجتماعات .

وانتقل من الرواية إلى الشرح والتعليق ، وأعجب الناس بشرحه وتوضيحه ،
وصار درسا عظيماً ، كما يقول الجبرتي ، فخشي شيوخ الأزهر على سمعتهم
العلمية من السقوط في أعين الجمهور ، فانقطعوا عن الحضور

فاستمر الزبيدي في إلقاء دروسه ، وصار يلى حديثاً من المسلسلات ، أو
فضائل الأعمال ، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه ، ويتبعه بأبيات من
الشعر ، فيتعجب الحاضرون من ذلك ، لأنهم لم يعهدوا مثل هذا من
المدرسين المصريين

وافتح درسا آخر في مسجد الحنفي ، وقرأ كتاب الشمائل النبوية
لترمذى في غير الأيام المعهودة بعد العصر ، فزادت شهرته ، وأقبل الناس
من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته ، ودعاه كثير من الأعيان إلى بيوتهم ،
وعملوا من أجله ولائم فاخرة - وكان يذهب إليهم مع خواص الطلبة ، والمقرىء

والمستعمل وكانب الأسماء فيقرأ لهم شيئاً من الحديث كثلاثيات البخارى أو الدارمى ، أو بعض المسلسلات بحضور الناس وصاحب المنزل وأصدقائه وأحبابه وأولاده ، وبناته ونسائه من خلف الستائر وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة ، ثم يختتمون ذلك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ، ويكتب^(١) السكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات ، واليوم والتاريخ ويكتب الزبيدى تحت ذلك صحيح ذلك ، وهذه كانت طريقة المحدثين القدماء

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار ، وسمعوا إلى منزله ، وترددوا لحضور مجالس دروسه وواصلوه بالهدايا الجزيلة ، فاشترى الجوارى ، وأقام الولائم ، وأكرم الواردين عليه والوافدين إليه من الآفاق البعيدة

ولما حضر الوالى محمد عزت باشا رفع شأنه عنده ، وأصعده إليه ، وخلع عليه فروة سمور ، ورتب له مقداراً من اللحم والسمن والأرز والخطب والخبز . وعلوفة جزيلة من وقف الحرمين وغيره من الأوقاف . وأنهى إلى الدولة شأنه فعينت له مبلغاً من النقود يصرف له يومياً ، وكان ذلك سنة ١١٩١ هـ فعظم أمره ، واشتهر صيته ، ودعته الحكومة العثمانية لزيارة الاستانة سنة ١١٩٤ فقبل الدعوة ، ثم اعتذر عن عدم السفر

وترادفت عليه الرسائل والهدايا من أكابر الدولة العثمانية وأعيانها . وطارت شهرته فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فكاتبه ملوك الترك وأمراء الحجاز واليمن والهند والشام والعراق . وملوك شمال أفريقيا وأعيان السودان . وكثرت عليه الوفود من كل ناحية ، وازدادت الهدايا الواردة

(١) هذه الطريقة لاقبمة لما فى درس الأحاديث ولا فى معرفة حسنهما من ضعفها . وإن كان القدماء دونوا أسماء السامعين فلرغبتهم فى توثيق سماعتهم لهذه الأحاديث . أما الطريقة التى لجأ إليها الزبيدى فلاقائدة منها على الإطلاق لوجود السكاتب المقطوع بصحتها .
(١٩ — الأدب المصرى)

عليه . وجاءته هدية من أغنام فزان ، وهي عجيبة الخلقة ، عظيمة الجثة ، يشبه رأسها ، رأس العجل فأرسلها إلى أولاد الساطان عبد المجيد فأعجبوا بها . وجاءته طيور مختلفة الألوان والأشكال ، وكذلك الجوارى والعبيد ، فكان يرسل من طرائف الناحية إلى الناحية المستغرب ذلك عندها ، ويأتيه في مقابلها أضعافها . وأتاه من طرائف الهند وصنعاء وبلاد سرت وغيرها أشياء نفيسة كالعطور والمربيات والعود والعنبر مقادير عظيمة . وصارت له عند أهل المغرب شهرة واسعة ، ومنزلة رفيعة ، واعتقاد زائد . وربما اعتقدوا أنه قطب زمانه ، حتى كان أحدهم إذا ورد حاجا ولم يزر الزبيدي ، ولم يصله بشيء لا يعتبر حجة كاملا . فإذا جاءه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده . وحفظ ذلك أو كتبه . ويستخبر من هذا عن ذلك بلطف ورقة .

فإذا وفد عليه قادم من هذه الجهات سأله عن اسمه وبلده . فيقول له : فلان من بلدة كذا . فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقاً ، أو عرف جاره أو قريبه . فيقول له : فلان طيب ؟ فيقول : نعم سيدي . ثم يسأله عن أخيه فلان ، وولده فلان ، وزوجته وابنته . ويشير له باسم حارته وداره وماجاورها . فيقوم ذلك المغربي ويقعد ، ويقبل الأرض تارة ، ويسجد تارة ، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح . فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على باب من الصباح إلى الغروب . وكل من دخل منهم قدم بين يديه مبلغاً من المال ، أو مقدارا من الشمع أو التمر على قدر حاله . وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها ويلتمسون منه الأجوبة . فمن ظفر منهم بقطعة ورقة ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة ، وحفظها كالتميمة ، ويرى أنه قد قبل حجه . وإلا فقد باء بالخيبة والندامة ، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم ميغاده .

وشرح في شرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي وبيض منه أجزاء
أرسلها إلى الأستانة والشام والمغرب ليشتهر بها كما اشتهر شرح القاموس ،
ويقبل الناس على طلبه واستنساخه .

وماتت زوجته سنة ١١٩٦ هـ فحزن عليها حزناً شديداً ، ودفنها بالقرب
من ضريح السيدة رقية وشيد لها ضريحاً ، ولازم قبرها أياماً كثيرة .
واجتمع عنده الناس والقراء والمثقفون . وقدم لهم الطعام من الثريد
والكسكسي والقهوة والشربات . واشترى قطعة أرض بجوار قبر زوجته
وبناها بيتاً وفرشه وسكن فيه أمها . وكان يبني به أحياناً وقصده الشعراء
بالمراثي فقبلها منهم وأجازهم . ورثاها هو بقصائد . فما جاء في
إحداها قوله :

نعم الفتاة بها فجعت غدية وكذلك فعل حوادث الأيام
شدت مطايا البين ثم ترحلت وتمايلت أكوارها بسلام
رحلت لرحلتها غداة تحملت أحلامنا من قاعد وقيام
ما خلفت من بعدها في أهلها غير البكا والحزن والأيتام

... الخ

ثم تزوج بعدها بأخرى ، وهي التي مات عنها وأحرزت ما جمعه من
مال وغيره . ولما بلغ ما لا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت ، وعظم القدر
والجاء عند الخاص والعام ، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار ، وأقبلت
عليه الدنيا بمخادفيرها من كل ناحية ، لزم داره ، واحتجب عن أصحابه الذين
كان يلم بهم قبل ذلك إلا في القليل النادر لغرض من الأغراض ، وترك
الدرس والإقراء ، واعتكف بداخل الحرم ، وأغلق الباب ، ورد الهدايا
إلى تأتيه من أكابر المصريين والأمراء .

ولما حضر الوالى التركى حسن باشا لم يذهب الزبيدى لزيارته ، فزاره الوالى فى بيته ، وخلق عليه فروة سمور تليق به ، وأهداه حصاناً من كرام الخيل ، عليه سرج فاخر وعباءة ، قيمته ألف دينار . وكانت شفاعته عنده لا ترد . وإن بعث إليه رسالة تلقاها بالقبول والإجلال ، وقبلها قبل أن يقرأها ، ووضعها على رأسه ، ونفذ ما فيها فى الحال .

وأرسل مرة إلى أحمد باشا الجزائر والى عكا رسالة ذكر فيها أنه المهدي المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم . فصدقه الجزائر ، وحفظ تلك الرسالة ضمن الأحجية والتائم التي يحملها . وكان يسر بذلك إلى بعض من يرد عليه ممن يدعى المعارف فى علوم الروحانيات ، ويعتقد صحته بلا شك . وكل من قدم عليه من جهة مصر سأله عن الزبيدى ، فإن أخبره وعرفه أنه اجتمع به وأخذ عنه ، وذكره بالمدح والثناء أحبه وأكرمه ، وأجزل صلته . وإن وقع منه خلاف ذلك أعرض عنه وأقصاه ، ومنع عنه بره ولو كان من أهل الفضائل ، واشتهر ذلك عنه . ولم يزل على حسن اعتقاده فى الزبيدى حتى مات كل منهما .

واتفق أن السلطان محمد صاحب بلاد المغرب أرسل إليه عدة هدايا قبل عزله وزهده فى الهدايا . وكان الزبيدى يقبل هذه الهدايا بالحمد والثناء والثناء . فأرسل إليه سنة ١٢٠١ هدية عظيمة ، فردها وامتنع عن قبولها . وضاعت الهدية ولم ترجع إلى السلطان فلما علم بذلك أرسل إليه خطاباً يعاتبه ويوبخه على ما فعل . ويقول له إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . وليتك حيث تورعت عنها . كنت فرقتها على الفقراء والمحتاجين ، فيكون لنا ولك أجر ذلك ، ويلومه أيضاً على شرح كتاب الإحياء ويقول له : كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك . وللمترجم من المصنفات .

(١) شرح القاموس المحيط للفيروزبادى (٢) شرح إحياء علوم الدين

للغزالي (٣) النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية (٤) الجواهر
المنيفة في أصول مذهب أبي حنيفة مما وافق فيه الأئمة الستة (٥) العقد
الثمين في طرق الإلباس والتلقين (٦) حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق
(٧) شرح الصدر في شرح أسماء أهل بدر (٨) التفتيش في معنى لفظ درويش
(٩) رفع نقاب الخفا عن اتعمى إلى وفا وأبي الوفا (٧) بلغة الأريب في
مصطلح آثار الحبيب (١١) إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام
(١٢) زهر الأكام المنشق عن جيوب الإلهام ، بشرح قصيدة سيدي
عبد السلام (١٣) رشفة المدام المختوم البكري من صفوة زلال صيغة
القطب البكري (١٤) رشف سلاف الرحيق في نسب حضرة الصديق
(١٥) القول المثبوت في تحقيق التابوت (١٦) تنسيق قلائد المنن في تحقيق
كلام الشاذلي أبي الحسن (١٧) لقط الآلئ من الجوهر الخالي (١٨) النوافح
المكية على الفوائح الكشكية (١٩) هدية الإخوان في شجرة الدخان
(٢٠) منح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلهية
(٢١) المنح العلية في الطريقة النقشبندية (٢٢) ترويح القلوب بذكر
ملوك بني أيوب .

وله شعر كثير ، بعضه في ترجمته التي أوردتها الجبرتي ، وبعضه
في اللوائح الأنوارية . وقد أصيب بالطاعون ومات سنة ١٢٠٥ هـ .

الصبيان

المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ

هو محمد بن علي الصبيان الشافعي . ولد بمصر ، وحفظ القرآن والمتون
واجتهد في طلب العلم . وحضر أشياخ عصره وجهاً بذة مصره وشيوخه
وبرع في النحو وألف حاشية على الأشموني وصفها الجبرتي بقوله « سارت
بها الركبان ، وشهد بدقتها أهل الفضائل والعرفان » قال الجبرتي « وله

في النثر كعب علي ، وفي الشعر كأس ملي « ثم أورد جملة قصائد من شعره . ثم قال « وكان في مبدأ أمره ، وعنفوان عمره معانقاً للخمول والإملاق ، متكلاً على مولاه الرزاق . يستجدي مع العفة ، ويستدر من غير كلفة » .

وعين مؤقتاً بالمدرسة الصلاحية بضريح الإمام الشافعي عندما جده عبد الرحمن كتحدا وسكن هناك مدة ثم تركه وعين مؤقتاً في مسجد محمد أبي الذهب لما تم بنيانه . وبني له مسكناً في أعلى المسجد وأقام فيه مع زوجته وأولاده . ولما اضمحل وقف هذا المسجد تركه واشترى منزلاً صغيراً بحارة الشنواني وأقام فيه . واتصل بشيخ السادات محل أبي الأنوار ومدحه بقصائد جيدة يجدها القارئ في « اللوائح الأنوارية » .

وحين حضر قاضي العسكر عبد الله المعروف بططر زادة ، وكان متضلماً من العلوم والمعارف ، وسمع بالصبيان ، اجتمع به وأعجب به كل الإعجاب ، وأغدق عليه الأموال . فأثرى ولبس الملابس الغالية ، وركب الخيل الكريمة . ثم تعرف بإسماعيل كتحدا الوالي حسن باشا وتردد عليه قبل ولايته ، فلما أتته الولاية بمصر زاد في إكرامه وأولاه به ، ورتب له ما يكفيه في كل يوم من النفقات واللحم والسمن والأرز والخبز وغير ذلك . وأعطاه مقداراً كبيراً من الملابس الفاخرة . وأقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة . وعمل فرحاً وزوج ابنه عليا .

جاءت إليه هدايا كثيرة ، وزاره الناس وأنعم عليه الوالي بمبلغ من المال وألبس ابنه فروة يوم زفافه . وكذلك أرسل إليه فرقة الموسيقى وبعض الجنود في ليلة الزفاف

وقد أصيب المترجم بعد ذلك بالسعال وبمرض في الرئة، ومات فجأة ليلة الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سنة ١٢٠٦ هـ وصلى عليه بالأزهر في مشهد حافل ودفن بالبستان

الفصل الثالث

المؤرخون وأصحاب السير

١

ابن إياس الحنفى

٨٥٢ - ٩٣٠ هـ

هو محمد بن أحمد بن إياس الحنفى . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ في بيت مجد ونشأ في عائلة كريمة ، فقد كان جده أحد كبار موظفى الدولة المصرية في عهد السلطان الظاهر برقوق (٨٠١ - ٨٠٨) وترك ثروة مكنت ابنه ، والد المترجم ، من العيش الرخى . وكان والده كثير العشرة للأمرء وأرباب الدولة وقد أغنته ثروته عن الاشتغال بالأعمال الحكومية . وورث المترجم هذه الثروة ، واستغنى بها عن التوظف ، وبذلك تفرغ لحياة العلم ، وأقبل على قراءة الكتب الأدبية والتاريخية . ونظم الشعر وألف تاريخه المشهور .

وقد درس على جلال الدين السيوطى ، وعبد الباسط بن خليل الحنفى . وكان أخوه الجمالى يوسف موظفاً كبيراً فى القلعة . فاستطاع المترجم أن يقف على ما وقع من الحوادث السياسية فى عصره عن طريق أخيه . فسجلها فى تاريخه ملتزماً بالدقة والأمانة .

ويعتبر كتابه « بدائع الزهور » من أهم الكتب المؤلفة فى تاريخ عصره لأن مؤلفه شاهد حوادث خطيرة ، ووقائع عظيمة ، فدونها فى أمانة ودقة . ولم نجد أحداً من معاصريه اهتم بتاريخ هذه الفترة من حياة مصر . وقد وصف فى تاريخه دولة المماليك وتطورها التاريخى وكيفية إدارتها وأحوالها

الاقتصادية ، وحضارتها ومبانيها ، ومواكب سلاطينها وأعيادها . ومراسم استقبال سفراء الدول الأخرى ، وما يصحب ذلك من الاحتفالات ، كما تكلم عن الأمراض والأوبئة التي ابتليت بها البلاد المصرية ، مع أخبار مهمة تتعلق بالإحصاءات. ثم ذكر أعيان ذلك العصر من العلماء والشعراء والنسك وغيرهم . وامتازت الأجزاء الأخيرة من كتابه باستيعاب الأخبار.

وهو باحث بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، منصف إلى أبعد حد ، وصف أحوال الدولة في أواخر حكم الغوري ، وما طرأ عليها من الفساد والضييق المالي بسبب تحول التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وحرمان مصر من الأموال الطائلة التي كانت تجبيها على تلك البضائع ، واضطرار الغوري إلى إثقال كاهل الشعب بالضرائب الكثيرة التي كان يجمعها وينفقها في بناء القصور الفخمة

وتحدث عن الجيش المصري وإهمال الغوري له ، ثم وصف خروج السلطان إلى مرج دابق لمحاربة العثمانيين ، وكيفية انهزام الجيش المصري وهلاك الغوري ثم وصف جهاد السلطان طومانباي ضد العثمانيين ، هذا الجهاد الذي انتهى إلى الهزيمة بسبب الخيانة وقلة العدد والعدد في الجيش المصري . ثم تحدث عن أسر طومانباي وشنقه على باب زويلة . ووصف أعمال العثمانيين في مصر ، واعتداءهم على الأنفس والأموال ، وتخريبهم لكثير من الأبنية ، ونقلهم الرخام والأبواب والأعمدة إلى استنبول . وكذلك نقلهم الكتب والنقائس وترحيلهم مهرة العمال والصناع إلى هناك . وما قاساه الناس بسبب ذلك من الآلام ، وما تعرضوا له من البلاء والهلاك .

ووصف السلطان سليم بالعكوف على الذات والانغماس في الشهوات ، تاركاً الحكم لوزرائه يفعلون ما يشاءون . ويقول إن ابن عثمان لم يكن يظهر إلا عند سنك دماء المماليك الجراكسة ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد

من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض . لا يثبت على قول واحد كعادة السلاطين ، وليس له سباط يعرف ، ولا نظام كعادة السلاطين في سباطهم الذي كانت تجلس عليه الخاصكية كل يوم . وأما عسكريه فكانوا جميعا نين العين ، نفسهم قدرة . يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق وعندهم عقاشة في أنفسهم زائدة ، وقلة دين . يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس . يفطرون في رمضان ، وهم للصلاة تاركون ، حتى صلاة الجمعة . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة . وليس لهم نظام يعرف ، لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم . وهم همج كالبهائم » ثم وصف فظائهم ، وخطفهم النساء للفسق بهن ، وتخريبهم الكثير من المباني ، وأخذهم أخشابها لاستخدامها في طهي طعامهم أو بيعها بأبخس الأثمان

وقد أخذ ابن إياس على السلطان سليم أنه لم يكن له سباط منظم كعادة الملوك . وفاته أن سليم لم يكن مقبلا إقامة دائمة في مصر ، بل قدم فأما فكانت إقامته مؤقتة ، وكان في شاغل عن الأسمطة والأطعمة بتنظيم إدارة البلاد . والكشف عن مواردها ، وضبط أمورها حتى لا تقلت من يده وتخرج من حكمه أما احتجاجه عن الناس فكان نخوفه على نفسه من مؤامرات المماليك . وأسلوب ابن إياس عليه طابع الإهمال فهو كثير الخطأ اللغوي والنحوي . وقد طبع تاريخه عدة مرات آخرها الطبعة التي أخرجتها لجنة المستشرقين الألمان باستنبول سنة ١٩٣٢ م

٢

أحمد بن زنبيل الرمال

من رجال القرن العاشر

هو أحمد بن أبي الحسن نور الدين المحلى الشافعى . كان موظفا بديوان الجيش إلى سنة ٩٦٠ هـ وتعاطى الرمل والنجامة ومن مؤلفاته :

- ١ - فتح مصر على يد السلطان سليم
- ٢ - سيرة السلطان سليم ، وبه ذيل إلى فتح جزيرة رودس . مخطوط بألمانيا
- ٣ - تحفة الملوك - مخطوط - اكسفورد

عاش أحمد بن زنبيل الرمال في الوقت الذي تم فيه سقوط مصر في أيدي
العثمانيين . وألف كتابه « وقعة السلطان سليم بن عثمان في فتوح مصر مع
السلطان الغورى وطومانباي »

وقد سرد الحوادث والوقائع دون أن يذكر لها تاريخاً معيناً وإنما أرسل
الكلام كأنه يقص قصة . واجتهد في ذكر التفاصيل التي من شأنها أن تعطينا
فكرة واضحة عما أظهرته قلة من المماليك من الكفاح والجهاد دفاعاً عن
مصر ، وذوداً عن استقلالها . ومن الأمور التي ذكرها ولم يشر إليها ابن
إياس أن السلطان سليم عرض على طومانباي أن ينوب عنه في حكم مصر ،
على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني . ولكن طومانباي
ومعه قلة من المماليك رفضوا ذلك رفضاً تاماً بكل إباء وشتم ، وصمموا على
الاحتفاظ باستقلال مصر أو الموت .

وأعطانا المؤلف فكرة عن الخيانات التي تفشت في صفوف المماليك .
فقد أرسل بعضهم ممن كانوا يحكمون الشام نيابة عن سلطان مصر رسائل إلى
سليم يطمعونه في الاستيلاء على الشام ومصر وإزالة ملك الجراكسة .
وكانت خيانتهم من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة الجيش المصرى في مرج
دابق ، تلك الهزيمة التي فتحت أبواب الشام ومصر أمام العثمانيين فدخلوا
دون مقاومة كبيرة . وذكر أنواع الخديعة التي لجأ إليها العثمانيون ، والتي
سهلت عليهم مهمة الغزو . وقال إن البنادق والمدافع الكثيرة التي استخدمها
الغزاة كانت من أسباب انتصارهم .

ومن أهم ما جاء في الكتاب محاولة بعض المماليك استرجاع استقلال البلاد

وطرد العثمانيين منها . فما كاد يذاع نبأ وفاة السلطان سليم حتى قام بعض المماليك في الشرقية وجمعوا جيشاً من الفلاحين والعرب وبقية الجراكسة . فأرسل إليهم الوالي جيشاً مجهزاً بالمدافع والبنادق، فالبثوا أن انهزموا وتبدد شملهم . وكذلك حاول الوالي أحمد باشا الملقب بالخائن أن يستقل بمصر في أوائل حكم السلطان سليمان ولكنه أخفق وقتل .

٣

علي بن نور الدين الحلبي

٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ

هو علي بن إبراهيم بن علي الملقب بنور الدين الحلبي القاهري الشافعي ، صاحب السيرة النبوية .

ولد بمصر سنة ٩٧٥ ودرس على شيوخ عصره . وألف كتباً كثيرة، منها « إنسان العيون في سيرة النبي المأمون » قال صاحب خلاصة (١) الأثر « وقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً ، وتلقبها الأفاضل بالقبول . وله مؤلفات كثيرة في الفقه والحديث ، واللغة والتاريخ ، والنحو والتصوف » .

« وكان أحد مشايخ المدرسة الصلاحية . وكان درسه جمع الفضلاء ، ومحط رحال النبلاء . وكان غاية في التحقيق ، حاد الفهم ، قوى الفكرة ، متحريراً في الفتاوى ، جامعاً بين العلم والعمل ، صاحب جد واجتهاد، عم نفعه الناس فأتوه لأخذ العلم عنه من البلاد »

« وهو أجل أعلام المشايخ ، وعلامة الزمان ؛ كان جبلاً من جبال العلم ، وبحراً لاساحل له ، واسع الحلم ، علامة جايل المقدار ، جامعاً لأشتات العلا

صارفاً فقد عمره في بث العلم النافع ونشره . وحظي فيه حظوة لم يحظها أحد مثله . وكان مهاباً عند خاصة الناس وعامتهم ، حسن الخلق والخلق ، ذا دعاية لطيفة في درسه مع جلالته . وكان الشيوخ يثنون عليه بما هو أهله من الفضل التام ، ومزيد الجلالة والاحترام ، مات سنة ١٠٤٤ ودفن بالمجاورين وكتابه المعروف بالسيرة الحلبية مطبوع ومشهور بين الناس . وكان بينه وبين أبي المواهب البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ مودة أكيدة ، وباسمه ألف هذه السيرة ، كما ذكر ذلك في المقدمة

٤

عبد الباقي الإسحاقى

المتوفى سنة ١٠٦٠ هـ

هو محمد بن عبد المعطى الشهير بالإسحاقى المنوفى ، الأديب الشاعر الفائق . كان قاضياً فاضلاً ، وعالماً مؤرخاً ، كثير النظم للشعر ، صحيح الفكرة ، جيد الأسلوب

قرأ ببلده منوف على شيوخ كثيرين ، وأخذ يتردد على القاهرة ويحضر في الجامع الأزهر للدراسة على علماء عصره . وله كتاب اسمه «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» مطبوع ، وكان من المصادر التي اعتمدها الجبرتي في تاريخه ، وينتهي إلى سنة ١٠٣١ سرد الإسحاقى في تاريخه هذا سيرة ولادة بنى عثمان الذين حكموا مصر منذ السلطان سليم إلى عصره ، مع ذكر أعمالهم ، والحوادث الشهيرة التي وقعت إبان حكمهم ؛ على سبيل الاختصار ، وأورد فيه شعراً قليلاً . أما ديوانه فلم يصل إلينا . وقد أورد له صاحب خلاصة الأثر قصيدة مطلعها :

أمل لي كاساً تماماً واستقني جاماً فجاماً
واجعل الدرّة كاساً وخذ التبر مداماً
تم الكاس فإن الكاس ما كان تماماً
واتخذها سلماً للهوىس مو أن يسامى
وتوهم أنها الحـ ل وإن كانت حراماً
ثم أزهى موضع في الروض فاختره مقاماً
وإذا شئت أن تسكر فاستدع الندامى
وليكن خمرك عادياً وساقيك غلاماً
يملاً الكاسات والأحزان برأ وسقاماً
يملاً القلب سروراً وانبساطاً وغراماً
عابثاً بالفصن أعطاً فبالزهر ابتساماً
فهو المطلوب للعجس لس رأساً وإماماً
استقني بالكوب والكاس فرادى وتؤاماً
ثم بالكاس إلى أن تترأى الهام هاماً
ثم بالجرة فالجرة حتى أترامى
استقني حينئذ بالزق حتى لا كلاماً
ثم بالذن فتلك ال غاية القصوى تماماً
ثم خذ عني ماشئ ت ولا تخش أثاماً
والتقط مني الجمان ال فرد نثراً ونظاماً

محمد بن محمد بن أبي السرور البكرى

المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ

ولد محمد بن محمد بن أبي السرور بالقاهرة . ونشأ في بيت أدب وعلم ،
ودرس على شيوخ عصره . وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر : كان من العلم

والتحقيق آية من آيات الله تعالى . ومن الولاية والتحقق غاية من الغايات . وكان فصيح العبارة ، طلق اللسان ، كثير الفوائد ، جهم النوادر . وكانت الولاية عليه ظاهرة ، مع الدين المتين والعقل الكامل ، والتظاهر بالنعمة في الملبس والمأكل والخدمة . وكان من أحسن الناس خلقا وخلقا ، مبيجلا عند الكبراء والوزراء ، ذا جاه عريض ، معتقدا عند عامة الناس وخاصتهم ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة ، يرجع إليه في مشكلات الأمور . رفيع الهمة ، كريم الأخلاق .

« ولد بمصر ونشأ بها . وحفظ القرآن وتأدب واشتغل بطلب العلوم وأتقنها ، وبرع في كثير من الفنون لاسيما علم التفسير والحديث . وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكري ، فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر في الليالي المشهورة كلية المولد والمعراج ، والنصف من شعبان . ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة في بيتهم المعمور . »

وذكره والد المحبي في رحلته إلى مصر فقال « عين أعيان هذه القادة ، وثمين درر هذه القلادة . فرع غصن الدوحة البكرية ، وفنن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة والسمو في النماء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . رونق الليالي والأيام ، وتاج رأس العلماء الأعلام » ومن كتبه في التاريخ :

(١) عيون الأخبار ونزهة الأبصار (٢) النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (٣) الوشى المرقوم من النطق المفهوم (٤) المنح الربانية في تاريخ الدولة العثمانية (٥) اللطائف الربانية على المنح الرحمانية . وقد اعتمد الجبرتي على هذه الكتب وانتفع بها . وفي نهاية كتابه « عيون الأخبار » خصص بابا لأخبار الحشاشين ونوادرهم ، وأخبار الجعيدية .

مختارات من الشعر المصري

في ظل الحكم العثماني
في يوسف الحفناوي

قال الشيخ يوسف الحفناوي يمدح الأمير كتحدا رضوان :
لاحت بمصر من السنأ أقمار وبدا لصبح جبينها إسفار
وجلت يد الإسعاد من أرجائها ظلمها فلاح بوجهها أنوار
بأميرها رضوان أوحد عصره الس ملك تؤم له الماوك وتثنئى
عزماته شهب النجوم وكفه ملك المعالى والفخار فـاله
مولى به للمكرمات عناية بحز له سحب الندى تيار
ذالت تساره إلى باب العلاء والعود أيد غيها مدار
أعلى مقام الجسد فهو به غدا هم ويسعه لذلك نجار
وزها به روض الكمال فما به ذا ثروة لم يعرها إقتار
بأمالها رق المعالى دم لها إلا غصون زهرها معطار
وقال يمدحه :

ملا الفؤاد هوى ووجدنا رشأ لعيني السهد أهدي
وترنج الأعطاف قد نشر الجمال عليه بُردا
يختال فى حال اللا ل فيزدري بالبان قدا
ريم سلاف حديته أشهى من الصهباء وردا
لذت القوام لقدمه ال أغصان تسجد إن تبدي
يرنو فيأعب بالنهى ويسومها بالفتك جهدا
ملك غدت لجمال طلا عته ملاح العصر جندا
بجفوه النعس المرا ض لقتل مغرمه تصدى
وسيوف لظليه اتخذ ن جوانح العشاق غمدا
يعزونها سلباً ونه با لأهى هزلا وجدا

فكأنها سرقت شبا عزمات رضوان للقدى
ملك تبؤم الأمل ون لحيه وفدا فوفدا
فيعيدها من جوده ونواله بالعيش رغدا
من كأنواء السجا تب تعجز الألباب سردا
فاحت بنشر عبيرها أيد من الأمطار أندى
ومهاية ذلك لها ال آساد حين بها تحدى
كعصى الكليم تلقفت من سحرهم ما قد أعدا
بأس تحاماه الملوك ك له الجبال تخر هدا
ولطيف طبع كالنس اثم لم يدع في الناس حقدا
بهما غدا متوليا أمر النهى حلا وعقدا
وعلى سعد قد كسا ه من السنن عزا ومجدا
وأراه من غيب العوا قب ما لغايته استعدا
يا طالما قد حدث في تحصيل مطلبه مجدا
يا مالكا رق المعال لى دم لها سندنا معدا
لتصونها ممن يس وم جنايها في الدهر كدا
وإليك در بلاغة نظمته أيدي المدح عقدا
حسن النسيج إلى جنا بك يوسف الحفنى أهدي
لم يكتسب إلا الأج ور به ثناء ثم حمدا
إذ شكر من أسدى موا هب جوده فرض يؤدي
رغم لأنف حواسد قد جاوزوا في الاوم حدا
قالوا لحقد قلوبهم هذا بمدحته تعدى
فتغاض عنه ولا تبا لغ في التأمل فيه نقدا
إن الكريم إذا رأى خلا تغاضى عنه قصدا
لا زال جاهك منهلا عذبا وللعافين وردا

وقال يمدحه من قصيدة طويلة :

مولاي بل مولى الأنام وملجئي
غوث العفاة وغيث كل مؤمل
عند العطاء يريك بذل يمينه
بظل إذا لمعت بوارق سيفه
تغنيه شدة بأسه وسطاه عن
مولي إذا شاهدته وسمعته
أنست به الأيام ما قد أسلفت
بل أين للأمم السوالف سيد
لو يبذل الدنيا استقل عطاءه
أو أين للجلنى قرم مشبه
هيئات لم تلد النساء مثاله
يا ما نحى غرر المكارم بعد أن
شكراً لنعمك التي ما شاهدت
لا زلت لي ولكل من أم الحمى
متمتعاً بعزيز جاهك حائزاً
وإليك أبياتنا بمدحك قد غدت
تمشى على استحياؤها إن لم تكن
يرجو بها الحفنى يوسف غفرما
فانظر بفكرك لطف رقتها ودع

وقال يمدحه :

بدر المسرات في أفق السماء له
وبلبل المدح في أفنان طاهره
فقم بنا نجتلى الصهباء صافية
من طالع السعد إشراق وإسعاد
يتلو البشائر والأوقات أعياد
يسعى بها بابلي اللحظ مباد
(م ٢٠ - الأدب المصري)

تعطيك مهما رنا وعدا لحواظه
تخال منه جلالا لاح مقتبسا
رضوان من عرفت بالفوز عزمته
عين الجلال جمال الملك من خضعت
كهف منيع ملاذ عدّة سند
تعنو لسُدّته كي تستفيد هدى
مثل السحائب أخلاقا غدت يده
تسح بالجوود دأباً للورى فلهم
وتنتضى فى الوغى ماض ضواربه
فما للفاخر والمجد الأثيل سوى
هيئات لا يبلغ للمثنى خصائصه
حسب المديح علوا حيث أسنده
ياخير من خفقت بالمجد رايته
خذها عقيلة فكرود سامعها
لازلت تسمو سمو الشمس فى صعد

وقال يمدحه من قصيدة :

يا بدر أفق طالع فى أفق حسن ينجلي
ماملت فيك ولا صغيت ت لقولة من عدلى
أنا من طريقهم ومن عدوانهم فى معزل
أضحت شمائل فائى مثل العصون الميل
كسف البدور ضياؤه بجمال حسن أكمل
وعيونه تزرى المها بهاء طرف أكجل
ماسحر بابل عندها إلا كحبة خردل
أرخبى العذار بنحده فكأنه البدر الجلى

أوسطر حسن قد بدا في هالة الأفق العلى
ومداده من شكله ماء الجمال الأجل
وعليه عقرب صدغه كالحارس المتوكل
يايوسف الحسن الذى يسبي عيون الكحل
واصل محبا ذاب من حر الغرام المشعل
فاذا مطلت فإنى أسلو بمدح الأكل
رضوان كوكب مصرنا بجر النوال الأشمل
لوجوده الدهر اكتسى ثوب النضارة والحلى
يامن له شأن على لم يشن بتبذل
فرسان كل بلاغة خضعت له بتذلل
وله الأيادي البيض فى تفصيلها والجمل
لست الموفى بالمديح مدى علاك الأفضل
لو كنت فى نظم القريد ض كأخطل أودعبل
لكن دعتنى للنظا م صناعة المتمثل
لازلت أحلى مشرب أبدا وأعذب مورد
وظلمت تسموفى الأنا م بمجدك المتائل
ومحط جاه الوافد ين المجتدى والمجتلى

وقال يمدحه :

مولاي لأبرحت أياديك العلا
وسماء عزك ساطعاً ببروجها
وحسام جاهك فى عمداتك واردا
وبحارجودك تقذف الدرر التى
يهمى على الورد غيث هباتها
شمس القبول على مدى آياتها
لباتها والناس فى غفلاتها
عزت لمن يرجو جميل صلاتها
حرم المنى والسعى من ميقاتها
وتبل غلة من أتى ساحاتها
أهدى إلى فرائدا تروى الظما

ردحان مجدك راشفأراح الهنا والأنس صرفاً من أكف سقاتها
لا تخش من دنياك في طول المدى بأساً فسمعك مظهر غراتها
وإليك من صافي الوداد تحية تهديك من غرر الدعا غراتها
وتبت شكر صلوات راحتك التي غمرته بالمأمول من قطراتها

٢ - الشباب الخفاجي

قال :

قدحت رعود البرق زندا أضرم من أشجاناً ووجدنا
في فحة الظلماء إذ مدت على الخضراء برداً
حتى ثئاب نوره وتمطت الأغصان قدا
وأنى الشقيق بمجمر للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة سردت له النسبات سرداً
وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نرداً
فسقى معاهد بالحمى قد أنبتت حباً وورداً
تذر الليالي في ثرى من عنبر للمسك أهدي
عجبا لدر ناصع أودعن في مسك مندى
في ظل عيش ناعم بنسيم أسحار تردى
والدهر عبد طائع أهدي لنا شرفاً وسعداً
ما زال أصدق ناصح كم قال لي هزلاً ووجدنا
سلم امرؤ عن طوره في كل حال ما تعدى
فانخطب ببحر زاخر فاصبر له جزراً ومداد
لا يختشى لسع الزنا بير الذي يستام شهداً
في ذمة الأيام لل أحرار دين قد يؤدي
إن ماطلت فلربما أنجزن بعد المطل وعداً

فإذا رمى طاطيء له رأسا تراه عنك عدى
أفبعد إخواني الآلى درجوا أخاف اليوم فقدا
عيني إذا استسقت بهم تسقى بدمع العين خدا
لو كانت القطرات تج مد نظمت في الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا من شاسع الأقطار وفدا
كم في عكاظ نديهم جلبوا لهم شكرا وحمدا
لا يشعرون بنخرهم إلا جميل الذكر نقدا
أبقى لهم حسن الحديد بث برغم أنف الدهر تخدا
ورثوا المكارم كابرا عن كابر فرضا وردا
من كل طود شاخ متسربل برداه مجدا
أمست عيوننا كلها ترنو إلى الأعداء حقدا
تلقى الورى بنديهم نيكس العيون إذا تبدي
لبس الجلال على الجما ل فصد عنه الطرف صدا
فهمو بسطان التقى تخذوا قلوب الناس جندا
أمسوا بنعمد ضريحهم وبقيت مثل السيف فردا
مالي أقيم ببسلة فيها بناء الدين هندا
وبها الشهاب إذا سما يخشى من الشيطان طردا

وقال :

بت أرعى النجوم والإلف راقد . هل سمير الشهاب غير الفراقد
فاسألوا النجم عن خفوق فؤادي . واذكروا وجده بتلك المعاهد
أيها الأمرى بزهدى سمعا . إننى اليوم فى الزهادة زاهد
كل زرع زرعه فى شبابى . فله منجل المنانى حاصد
أنا فى الأرض ضارب دون كسب . مثل ضرب لواحد فى واحد
وعجيب لمحنة أنا فيها . كم لها من أسافل الناس حاسد

نبعة اشتق من علاها أناس سلم عندهم نقود متاعى
لى غوص فى كل بحر لدر جهلونى وليس تجهل نار
غير أن الشهاب لیس خلیلا لیت عینا إذا رنت لى رمدا
یا نسیما من الحمى هب أهلا این عهد الصبا وخذى وساد
وبجید الأيام عقد تصاب حیث غر الوجوه بین الأغانى
فستی الله عهدها بعهد اذكرتى بالروم عهدا بمصر
فى زمان به اللامة دین لیس فیہ شیء یروق لرأى
ورثته أحسابه كل فضل زحلی الأضداد فى كل فضل
عجبا منه مالكا لى رقا كم یراع بشكره یتغنى
كم خضم بجنب بحر نداه فبفضلی أحييت منه دروسا
وبجود لیدیك فضل ثنائى وبعدل ورثته عمريا
وقال :

یا فاضح العین الغریر بسقام طرفك والفتور
ونباهة الثغر التى فضحت شذا نشر العبیر

وشمائل الحسن الذي أضنى نسيات البكور
أرحم معني ناحلا لم يدر ما طعم السرور
وانظر مدامع مقلة أمست ترحم عن أموري
فالسر منها ظاهر مبد لمستتر الضمير
واكشف محيا فاتنا كالشمس في اليوم المطير
واسمع أحاديث الهوى فلقد سقطت على الخبير
فمحبتى علوية وعذول أشجاني حروري
ولكم خلوت لمنيتي وقضيت من نحي تذوري
بجديقة فرشت لنا ديباج سندسها الحريري
لما تسلت الصبا بين الجديقة والغدير
ومشت لتسرق الشذا في غفلة الروض النضير
قل للعذول على الظبا سرح دلامك في الحجير
ودع الفقيه وقل له في درسه أقوال زور
ياماشيا أبدا على بطن إلى فقه القدور
إن ترتحل عنى فما في العير أنت ولا النفير
يا أكمه الرأي الذي قاد الملامة للبصير
أشبت سمي وهولا يلتذ بالرأي الفطير
فدع العنا لا تعترض بين النسيمة والزهور

وقال :

إذا لم ألق في أمر شفيعا فتركي ما أريد أجل شافع
أخشى ضيق صدر من لثيم وصدر البيد والطرقات واسع؟

وقال :

رداء الصبر أجل ما تردى به حر ينافس في دطائه
إذا لم تنفع الإنسان شكوى فإن شفاءه كتمان دائه

وقال :

قلت للندمان لما مزقوا برد الدياتجى
قتلتنا الراح صرفا فاقتلوها بالمزاج

وقال :

سهام جفونه أعرضن عنى فأسرع فتكها ونما جواها
فيالك أسهما تصمى الرمايا إذا صرفت إلى شيء سواها

وقال :

قد كان لى خل على نهج النفاق قد سلك
ركبت ملابس وده فقطعته من حيث رك

وقال :

العرف قرض لمن تزكو مروءته يهوى الأداء له فى حال مقدرته
وذاك قيد له إن لم يؤد فلا يفك إلا بشكر أو مكافأته

وقال :

أيها السائل عن ابن فلان وديون عليه دهرى مليا
ليس يقضيك حبة من ديون ويكيل الأيمان كيلا وفيا
إن تخاشنه فى تقاضيه يوما صار بالحلف دينه مقضيا

وقال فى ثقيل :

لازمننا قدم ثقيل فهل له على الأرواح منا ديون
تكرهه الألحاظ منا لذا تلوذ بالأجفان منا اليعون

وقال :

كم من كريم قد بات في دعة أتاه سبيل الصباح بالنكد
ورب فرخ أراشه زمن فصار بالعز بيضة البلد

وقال :

إن يعد ذو بغى عليك فخله وارقب زمانا لانتقام الطاغى
واحذر من البغى الوخيم فلو بغى جبل على جبل لك الباغى

٣ - عبد الله الإدكوى

قال في المدح :

وصل الحبيب وصح منه الموثق واغتاز عاذلى الجهول الأحق
ووفى بموعده لهذا لم أقل وعد الزيارة طرفه المتملق
وأدار لى من مرشفيه سلافة من طيب رياها المجالس تعبق
وأباحنى وردا جنيا ناضرا من دونه بيض الصفائح تمشق
فضممته ضم امرئ يخشى على ما فى يديه من الفوائد تسرق
ورشفت شهد سلافة كادت لها أعضاى من فرط المسرة تنطق
وهصرت منه معظفا لدا فما الـ غصن الرشيق وما الردينى الأرشق
ولرب ليل مربنى بوصله حلوا أكاد به سرورا أشرق
لأنجم فيه سوى لآلى ثغره والبدر وجه منه زاه مشرق
وإذا ذكرت له الصباح يقول لى فى وجنى شمس وصبغى المفرق
وإذا شرعت مبالغا فى وصفه يحمر من خجل هناك ويعرق
ويقول دع وصفى وبالغ فى ثنا رب المعالى فهو حقا أليق
أعنى أمير المجد مأمول الجدا من أمه لاشك فهو موفق
ذاك الأمير على المقدار من بلواء عليها السيادة تخفق
ذو العزة القعساء والهلم التى بذيوها راجى المئى يتعلق

والجاء ما إن أمه ذوكربة
والحكم والباس اللذين لديهما
والخلق والخلق اللذين كلاهما
حاوى البراعة والشجاعة والندى
والهمة العليا التي قد أوجدت
يا بر يا بحر الفواضل والحيا
همم الرجال على مقادير العلا
لله ما أبديته من مظهر
هيات عرساً للحامد والثنا
عرساً به بوران بارت مثل ما
عرساً به أهديت بكر الخدر لا
عرساً به أظهرت شمساً حجبت
هو أوجد الأمر اسميك ذوالعلا
هذا قران السعد فاسعد يا أخا
واسمع مديحاً من عبيد إن يقل
وثناء درّ في معاليك التي
زاد العليّ علاك يا جل المنى
مدعم عرس المكرمات بصفوه
أنشأت فيه واصفاً ومؤرخاً

وقال يمدح الإمام الشافعي :

لذ بالإمام الشافعي
واخضع لدى أعتابه
متمسكاً بترابه
وادخل حماه فمن غدا
وانهض إليه وسارع
ما فاز غير الخاضع
ما قدر مسك ضائع
فيه فليس بضائع

واسعد بزورته وقل يا نسل طه الشافع
 ها قد أتيتك ضارعاً يا غوث عان ضارع
 فانظر إلى بعين مو لى مالك لى نافع
 أو ليس شرك في الورى يا قطب أعظم ذائع
 ولك الكرامات التى ثبتت بغير مدافع
 ولك التصرف فى نوا حى مصر غير مدافع
 ما أم بابك مرجع إلا انثنى بمنافع
 أو ربّ مظلمة لجا لندي حماك الواسع
 إلا انثنى والصر يع لوه كبرق لامع
 يا ابن الأئمة من قري ش يا رجاء الطامع
 يا صاحب العلم النفيد س لناظر ولسامع
 يا عمدة الإسلام يا رب المقال النافع
 مهديت دين سميك ال هادي بحكم قاطع
 وأقت مذهبك المنيد ر لنا كبر ساطع
 شيدته بدلائل لسن الخصوم قواطع
 عطفاً على ضيف بأر ضك ذى جناح خاضع
 قد خصه ذا الدهر من ه بحاسد ومشايع
 ومنافق ومشاقق ومماذق ومخادع
 ومبخل من حرصه مثل الدليل الخاضع
 يخشى على ديناره بل درهم من طامع
 يمشى وينظر فى الثرى فى هيئة المتواضع
 فلعله يحظى بفل س من نحاس واقع
 وهى الغنيمة عنده ويقول نلت منافعى
 لما رأيتهمو جيه ما مثل ذئب جائع
 وليتهم ظهري وجئ تك يا منيل مطامعى

أرجو رحباك وأنت أكرم ذى حبا للقانع
فأمدني فضلا بغيت نوالك المتتابع
بحياة جدك ذى المعالي والكلام الجامع
طه الرسول المجتبي مختار مولى سامع
صلى عليه وآله وصحابه والتابع
ما دام يعبد ربنا من ساجد أو راع
أو قائم أو قاعد أو هاجد أو هاجع
فيما يؤرخ ناطقاً متوسلاً يا شافعي

وقال يمدح الوزير محمد سعيد باشا :

يا عين أعيان الصدارة يا أبا ال
يا شائداً رتباً سميت بفخاره
عن أن تنال بحيلة أو مقصد
ظفرت بمجموع الفضائل مفرد
نهنيك بل نهى الوزارة إنها
باليث بأساً والحيا جوداً وضو
والقائل الفضل الذي يمتري
فيه اللبيب ولا إليه يهتدى

وقال عام ١١٧٢ وكان النيل قد أبطأ فيضانه ، ووقع الخوف في قلوب
الناس ، وارتفعت أسعار الحبوب ، وزادت بالفقير الكروب . ثم من الله
بالفرج ، فانكادت المحتكرة الفجرة ، وتحكمت به الحسرة ، وزادت مياه
النيل ، وعم الخير الجزيل :

قد خزي الحُزَّان وانخذل الشيطان
ولطف الله بنا وأسعف الرحمن
وأرسل النيل الذي حل به الأمان
وانبسطت نفوسنا وزاد الاطمئنان
وزال عن قلوبنا الـ عناء يا فلان

فالحمد لله الذي عادته الإحسان
فاشكر له فإنه له العلا والشان
وقل لمن رام الغلا للناس يا قرنان
جاء الرخاء فكل حكر قد عمه الهوان
فيا مساكين أبشروا قد أخصب الزمان
وقد أتى التاريخ في بيت هو الجمان
يا حبذا نيل به لنا يفي الزمان

وكتب إلى السيد مرتضى الزبيدي :

الأعج بي لما فيه الرواج فحسن الشعر يفسده الزواج
وخذ بي في حديث البيت واسمع مقالا فيه للفكر احتياج
سمعنا أن في الدنيا فلوساً ولكن دون مبلغها زجياج
وقال القائلون هناك قمح تزق بها الحماثم والدجاج
وأخبرنا المخبر أن شيئاً يسمى الفول تأكله النعاج
وأهل الشرق قالوا ثم أرز يروق إذا أتى منه فجاج
وأما قولهم يا صاح سمن فقول ماله عندي ابتهاج
أمور كلها عندي محال وأقوال بها عندي انزعاج
هب الدنيا قد امتلأت بهذا أليس لنا بشيء منه حاج ؟
فأكياس الفلوس مفلسات نموت ولا يكون لها انتفاج
وأما القمح دع ذكره رأساً فذكره يضر بها للزجاج
وأما الفول سل عنه حمارى فمنه دواؤه وبه العلاج
وأما الأرز نعرفه ولكن له عنا انحراف واعوجاج
وأما السمن سمناه ودادا فقال وداد مثلكو خداج
وأما البيت عنه لا تسلى فبومته لها دوماً هياج

تحدث نفسها إن غاب عنها ال
بأكلى أو حمارى أو قطاطى
أواعدها بأنى عن قريب
فتمعجب من مقالى. ذا وتدعو
فأنهاها وأسمعها حديثاً
فتكذب منطقي وتقول أرني
فأسمعها اسم صالح المفدى
هم للموالى والمعادى
غمام وابل بكر مديد
أحال على ذا الفضل الذى لو
وكاتبني وأمعن فى خطابي
ولم تقنعه واحدة فثنى
فيا مولاي عفوا من محب
وقل للندب صالح الأمير ال
يصحف لى. بلوخيتى بدهن

غدا ومن الجوى زاد الضجاج
فأهرب خائفاً وبى اعتلاج
سأشبعها ويحصل الانفراج
على دهر به عدم الزواج
عن الكرماء فيه لها ابتهاج
فتى فيه لما فيه معاج
تقول ذكرت من للفضل تاج
لديه الاعتدال والاعوجاج
ندى كفيه ليس له ارتياج
تجسم بعضه ملئت خجاج
بجيم كم لها نحوى عياج
وأخشى أن يثلثه الهياج
له من تحت رايتك اندراج
ذى لجلاله العليا سياج
فإن البيت ليس به سراج

وقال وقد أصيب ببعض الأمراض :

جنيت على نفسى جناية جاهل
طغت عندى الحمرا فحين صرفتها
فأخرجتها شيئاً فشيئاً ملاطفا
فجاءتهما البيضا معاتبة على
فقلت لها السوداء سيدنا أتى
ولكنه والحمد لله حفه الل
وها نحن أبنا واصطلحنا وضاء فى
فحق له أن يشكر الله دائماً

لظنى أن الجهل فيه سرورها
تمردت الصفرا وزاد شرورها
إلى أن خبت نيرانها وزفيرها
تعديهما جهلا وزاد نفورها
إلى نحو نار قد أتت يستثيرها
طيف بسرخف منه عسورها
مطاويه من شمس العناية نورها
على نعمة فى الناس قل شكورها

وقال :

الليل حين يجيء يحتاج الأسي
يطوى وينشر والشجون تزيدني
يزداد طولاً لا يقصر ثم لا
وإذا النهار أتى يمر كليحة
عندي ويذكو الشوق بين ضلوعي
وجدت ألد طيب هجوعي
يوحى إلى ابن ذكائه بطلوع
وكأنه مستعجل لرجوع

وقال .

حتى م تصنع بي الخديعة
دعها فديتك فهي من
لا تتبع فعل اللثام
أو لست تعرفها فظيعة
أخلاق منعكس الطبيعة
وأولني حسن الصنيعه

وقال :

قالوا يقال إذا ما كنت ذا شغف
هناك أربعة إن كنت تفعلها
اصبر على الجور منه لو أصابك في الـ
وأن ترى كل لبس يرتدى حسنا
وإن دعاك لما لا تشهيه ولو
وإن شممت من العادين رائحة
إن الطريق إليه في الوصول له
واقنع فديتك بالإقبال والذ
واعلم يقينا بأن نلت المرام متى
بمن تحب وتهوى أن تنال مني
تزيده منك قربا دائما وهنا
حم والدم أسقام وفرط عنا
من الحرير أو الكتان أو خشنا
دخول نار لظى الحمام قل حسنا
من عرفه طر إليها منعشا بدنا
مريبة فافتحها تلق ما حسنا
ظر البديع منه إلى الوجه المنير سنا
أباحك الحسن المرغوب منه مني

وله من قصيدة في رثاء الشيخ عبد الله الشبراوي :

عين جودي بمدمع مسفوح
واندبى أوحده الزمان ونوحى

عين قلت له الدموع ولو كا
عين عزت أوصافه الغر عدا
عين إن سحت الدموع وشحت
عين ضاقت مسالك الصبر عن
لهف نفسي عليه لهف محب
وعزير على والله يا صا
لكن الدهر ذو عناد فما ينه
ت مثل طوفان نوح
فطفقنا نومي إليه ونوحى
من دماء مهجتي استعيرى وسيحى
كان يلتقي الوري بصدر فسيح
أتمنى فداءه ولو بروحى
ح رثائى إياه بمد مديحى
فك يرى الأحباب بالتبريح

٤ - عبدالله الشبراوى

قال فى عرس بعض الأشراف سنة ١١٢٣ :

أبدأ تحن إليكمو الأرواح
يا سادة لولا همو ملاح فى
ما الفضل إلا ما رأيت بحكيم
نطق الكتاب بمجدكم وبفضلكم
وتواترت أخبار مجد عنكمو
يا أيها القوم الذين تشرفت
من ذا يفاخركم وأنتم عصابة
وجماكمو حرم النجاة وحكيم
وإليكمو كل الفضائل تنتمى
يكفيكمو يا آل طه مفخر
الله خصكمو بأشرف رتبة
أنا لا أحول وحقكم عن حبكم
وإذا ترنمت الأنام بذكركم
ولكم غدو فى العلا ورواح
أفق المسكارم للفلاح صباح
وعليكمو من نوره مصباح
وأنت أحاديث بذاك صحاح
يزهو بها الإمساء والإصباح
بهمو بقاع فى العلا وبطاح
قرشية وشذاكمو فياح
للقاصدين وللعفاة مباح
وعلى يديكم يفتح الفتاح
أن العلا عقد لكم ووشاح
العجز عن إدراكها إفصاح
كتم المواذل قو لهم أو باحوا
فلسان شكرى بالثنا صباح

لما نصبتم للسرور أسرة
وأقتمو عرسا يضيء كأنما
أرخته أبدا بعهد حماكمو
٨ ٨١ ١٠٩

تزهو بها الأرواح والأشباح
للدهر منه كوكب وضاح
لأبي الفلاح تجدد الأفراح
٤٣ ١٥٠ ٤١١ ٣٢١ = ١١٢٣

ما إن يلام نجبكم في جبكم
لازتمو أهل المسكارم والتقي
طبتم وطاب جنابكم فلاجل ذا
وقال تسليمة لبعض الأشراف في حادث نزل به :

أبدا وليس عليه فيه جناح
ولديكمو الإرشاد والإصلاح
طاب المديح وطابت المداح

يا ابن الأماجد لا تخش الردى أبدا
ولا يهولنك من أعداك ما فعلوا
أما ترى جدك المختار كان له
أنت ابن سبط رسول الله كيف ترى
والمجد مجدك يا ابن الأكرمين فمن
أبشر بعمر مديد لا يكدره
فكم لأسلافك الأجداد من مدد
وكم يد لك بالمعروف قد عرفت
وكم لكم يا بني الزهراء من شرف
مكارم قدر المولى الكريم بها
يا أحمد العصر طب نفسا فإنك من
الله شرفكم قدما وطهركم
من ذا يفاخركم أو من يشابهكم
الله أعطاكمو يا آل فاطمة
أنتم ملوك على كل الوري ولکم
هذا لساني قصير عن مديحكمو
وكيف أمدحكم والله يمدحكم
لكن غاية أمرى أنني رجل

وحق جدك ما هذا للمقام سدى
كم سيد أبغضته قومه حسدا
من قومه حسد يؤذونه وعدا
ضيا وربك قد أعطى لك المددا
ينكر علاك عنادا فليمت كمدا
سوء ودهر سعيد ليس فيه ردى
غدا يقصر عن شأواه كل مدى
وكم فخار كضوء الفرقدين بدا
عال به الله في القرآن قد شهدا
لكم فأنتم بها صرتم بجور ندى
قوم إذا وصفوا كانوا همو السعدا
وخصمكم يا بني الزهرا بكل هدى
ومدحكم في كتاب الله قد وردا
فضيلة في العلام يعطها أحدا
يا آل طه لواء المجد قد عقدا
لا أستطيع إليه أن أمد يدا
مدحا مدى الدهر يتلى ذكره أبدا
بحب آل النبي أرجو النجاة غدا

وقال معاتباً أحد أصدقائه :

أيها الخُل قد صحبناك دهراً
وألفنا من طبعك اللطف والظفر
وعلمناك أطهر الناس ذيلاً
ولقد طالما اختبرناك حلماً
لا لعجز وخفض قدر ولمكن
ما ظنناك أيها الخُل من قب
وعلى كل حال أنت والله
حاشى لله أن نحول عن العه
فعلام الإعراض عني وإني
لا تسيء بي ظناً فما أنا ممن
وإذا ما سمعت عني ذنباً
وعلى فرض أنني فيك أذنب
إنما الحر من تجاوز عن هف
هذه خلة الأخلاء قدما
إن تحقق رجاي فيك فأهلاً
وإن ازددت في الصدود وفي الهج
وودادى الذى عهدت وودادى
لا تغرنك الوشاة ففقيهم
وإذا ما أضعت شعري فأني

وقال عند زيارته للسيد أحمد البدوي :

يا قلب أبشر زالت الأكدار
هذا المقام وهذه الأنوار
نارت به الأعصار والأمصار
هذا مقام أبي اللثامين الذى
كهف العفاة الصارم البتار
هذا مقام القطب سلطان الورى

هذا أبو الفرجات هذا المنتقى
هذا أبو فرجات البدوي كم
بطل إذا ما جاءه ذو كربة
كم من أسير أثقلته قيوده
ضاقته عليه الأرض حتى ماله
ناداك يا بدوي أنقذني فقد
فأغثته وأعدته لدياره
كم معسرو أفاك يلتبس الغنى
وكم امرئ عسبقت له الحسنى
ياسيدي لجمالك نور ساطع
ولزائريك جمالة وجلالة
ما جئت حيك للزيارة مرة
واليوم جئتك أرتجيك لكربة

عظمت وكنفك بالعطا مدرار
يا عمدي وذخيرتي ووسيلتي
ياسيد الأقطاب يا من جده
صلى عليه الله رب العرش ما
والآل والأصحاب أعلام الهدى
ماجن ليل أو تلاه نهار
يا سيدا أسلافه أخيار
طه البشير المصطفى المختار
لاحت شمس أو بدت أقمار
ماجن ليل أو تلاه نهار

وقال متوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم :

عج بالعقيق وقف بذات الأجرع
وانزل منى فهناك قد بلغ المنى
وتمل بالبيت الحرام ومل إلى
ثم انمطف نحو الأبيرق والنقا
واقصد أخال أشواق منعطف اللوى
وأنخ مطيك بالعذيب ولعلم
قوم وفازوا بالمقام الأرفع
وادی الخزام ونشره المتضوع
ودع التواني في السرى وتشجع
فوق الغوير وتحت بانه ينبع

حث المطى أخوا الغرام هنيهة
ومر المطى يطبن نفسا بالسرى
ياحادي الأظعان خل زمامها
أواه لوتدرى المطايا قدردما
لسعت على أحداقها وثنت ذوى
ياأيها الخل المشوق ترفق—
وتجلدا عند اللقافكم امرىء
وإذا وصلت إلى معاهد طيبة
وتظاهرت أعلام هاتيك الربى
فادخل لذي الجاه الرفيع وكن على
واغتم سويعات هناك سعيدة
واستقبل القبر الشريف وناده
يامن له الجاه العريض ومن به
هذا مقام المستعين المستجير
الخائف الوجل الذي قدضيع الـ
واطلب نهاية ماتريد ولا تخف
واذكر هناك تشوقى وتشوفى
واسأل أهيل الحى عن قابى فذ
وأقم لى الأعذار فى التأخير عن
نزه أخوا الأشواق طرفك ساعة
فهناك تمتلىء القلوب مسرة
وأعد حديثك للعذيب وبارق
تلك الديار فأين يوجد مثلها
حيث النبوة والرسالة والهدى

واضبر على حر الوطيس البلقع
ويسرن بين مررد ومرجع
ترد المياه كما تشاء وترتعى
ظفرت به من بعد ذاك المهييع
أعناقها وطوت حنايا الأضلع
بك إن بدا لك نور ذاك الموضع
من شوقه لما رآه لم يع
والناس بين مسلم ومودع
وبدا لعينك نور تلك الأربع
حذر وسل بتأدب وتضرع
مابين منبره وذاك المضجع
يامن يؤمل للكروب إذا دعى
يبرا المريض من السقام المفزع
المنذب المتأوه المتوجع
أوقات فى تحصيل مالم ينفع
ملا وأكثر فى المنى وتوسع
وتلهفى وتولعى وتوجعى
فارقت طيبة لم أجد قلبى تمعى
هذا المقام المبهج المتضوع
فيما هنالك وابتهج وتمتع
وتزول من ذى العى شدة كل عى
وابك الديار وأجر سحب الأدمع
طيبا وأى علاها لم يرجع
ولوامع الفضل الأعز الأمتع

سر الوجود وقطب دائرة الشهو د وذو اللوا المعقود يوم المفزع
أزكى الورى وأجل من وطىء الثرى

قدرا وأكرم شافع ومشفع

وقال متشوقا إلى مصر ونيلها في بعض أسفاره ، ومادحا آل البيت :

أعد ذكر مصر إن قلبي مولع
وكرر على تسمى أحاديث نيلها
بلادها بها مد السباح جناحه
رويدا إذا حدثتني عن ربوعها
إذا صاح شجور على غصن بانه
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتي
لقد كان لي فيها معاهد لذة
أحن إلى تلك المعاهد كلما
أما والقذود للمائسات بسفحها
وما في رباها من قوام مهفف
لئن عاد لي ذاك السرور بأرضها
لأعتنقن اللهو في عرصاتها
رعى الله مرعاها وحيها رياضها
منازل فيها للقلوب منازره
يذكرني ريح الصبا لذة الصبا
على نيلها شوقاً أصب مدامعي
كساها مديد النيل ثوباً معصفرا
وصافح أغصان الرياض فأصبحت
وأودع في أجفان منزهاتها
إذا حذرنتي بلدة عن تشوق
وإن حدثوني عن فرات ودجلة

بمصر ومن لي أن ترى مقلتي مصرا
فقد ردت الأمواج سائله نهرا
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
فبتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
تذكرت فيها اللخظ والصعدة السمرا
وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
يجدد لي مر النسيم بها ذكرا
وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
علا وغلا عن أن يباع وأن يشرى
وقرت بمن أهواه مقلتي العبرى
وأسجد في محراب لذتها شكرا
وصب على أرجائها المزن والقطرا
فله ما أحلى والله ما أمرا
بروضتها الغنا وقد تنفع الذكرى
وأصبو إلى غدران روضتها الغرا
وألبسها من بعده حلة خضرا
تمد له كفاً وتهدى له زهراً
نسما إذا وافاه ذوعلة يبرا
إلى نيل مصر كان تحذيرها إغرا
وجدت حديث النيل أحلى إذا مرا

سأعرض عن ذكر البلاد وأهلها
وكم لي إلى مجرى الخليج التفاتة
جداول كالحيات يلتف بعضها
وكم قلت للقلب الولوع بذكرها
أما والهوى العذرى والعصبة التي
لئن كنت مشغوفاً بمصر فليس لي
أجل بنى الدنيا وأشرف أهلها
هو القوم إن قابلت نور وجوههم
وإن سمعت أذنالك حسن صنعهم
لهم أوجه نور النبوة زانها
هو النعمة العظمى لأمة جدتهم
إذا فاخرتهم عصبة قرشية
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم
وأروى بماء النيل مهجتي الحرا
يسيل بها دمعى على ذلك المجرى
ولست ترى بطننا ولست ترى ظهرنا
تصبر فقال القلب لم أستطع صبرا
أقام لها العشاق في فمهم عذرا
بها حاجة إلقاء بنى الزهرا
وأنداهمو كفاً وأعلاهمو قدرا
رأيت وجوهاً تخجل الشمس والبدر
وجئت حمام صدق الخبر الخبر
بلطف سرى فيهم فسبحان من أسرى
فيا فوز من كانوا له في غد ذخرا
فجدتهم المختار حسبهمو فخرا
سوى الاسم وانظرهم تجدهم به أخرى

هـ الصلاحى

قال يمدح شيخه شمس الدين الحنفى :

مل بي فقد وقد الهجير
وأرح مطيك ياسمير
هذا الحمى فارصد إذا
واطرق كناس الغيد حيه
وأمط ستأثره فذلك
واسأل من الطبيات عن
واحفظ فؤادك أن تصيب
من كل غانية يلو
تختال في مرح الشبا
إنى بظلك مستجير
فلقد أضر بها المسير
ما استأنس الظبي النفور
ث ينام راعيه الغيور
حين تنفتح الخدور
عهد ترضن به الصدور
عيونهن فهن حور
ح بوجهها القمر المنير
ب فيخجل الغصن النضير

تسعى فتقعدھا روا
سكری رأت كسر القلو
فعلت بسحر جفونها
خنت معاطف قدها
الله أكبر من نشا
يا صاح إن جزت الخيا
قل للبخيلة بالزیا
لم أنس إذ وافى البشير
إذ أقبلت ريح القبو
فضممتها وبهجتي
فتعوذت بالروض من
روض تعلق بالبحر
تبدو به زهر الزهو
ضحكت ثغور زهوره
وحننت نواعره وحننت
ذكرت قديم عهدھا
ياطيب أنفاس الربی
والجو مجرة علی
وافت به رود بأس
وسعت علی طرق الجدا
وطروس قامتھا علی
ياطيب ما تملى الشعو
ما ذاك إلا فرع لی
والورق ساجعة لها
دفا: وتميضها الخصور
ب فصار ناظرها الكسير
ما ليس تفعله الخصور
لكن لو اخطأ ذكور
ط جفونها وبها فتور
م وللظباء بها ظهور
رة ما لطيفك لا يزور
يلوح في فمه السرور
ل بها وأدبرت الدبور
من حر أشواق سمير
شر بأنفاسی يطير
رة من جوانبه ظهور
ر لأنه فلك يدور
فبكي لها النوء المطير
وهی من غيظ تقور
فانهل مدمعها النير
ع ففی تنفسها عبير
ها من ضبابتها بخور
راری لها طرف خبير
ول والنسيم لها سفير
ها من ضفائرھا سطور
ر وحس ما نقل الغدير
ل قد تبليج فيه نور
من كل ناحية سمير

عجاء تعرب عن ضما
والريخ تعتنق الغصو
وبدت شموس الراح تم
فقضيت منها ما قضيه
هذا كلامي الخلوأهد
وضممتها عند الودا
وبكت عيون السجد
نحنا معا فتحلت ال
وسرت وقد لاقيه
صبرى وما لاقيت إذ
رعيا لذيالك الحمى
ولمهد حصباؤه
قد لج بالقلب الغرو
ومرور أيام الصبا
أتى يروح العمر وال
كم أنجد السارى وكم
من لى بدهر لا يسا
أرجو انتصافا من زما
وحوادث قد آن فى
لكن بجاه إمام هذا ال
مولى ترفع قدره
ملا النواظر منه إج
وحماه ينفك الأسى
وندى أياديه شهيد

رنا وليس لها ضمير
ن بها فتعتبق الزهور
ملها الكواكب والبدور
ت وكان لى ولها أمور
ته إلى فى الثغور
ع وكل أنفاسى زفير
ب حين تساقط الدمع الغزير
أغصان منا والنحور
ت منها ما يطيش له الصبور
رضيت به كل يسير
والطرف مبتهج قرير
درر وتربته ذرور
ر وذلك الطرف الغرير
من دونها العيش المرير
أيام تنهب والشهور
تهم الهموم به ثغور
عد فاليسير به عسير
ن صار عادله يجور
كبدى لأسهمها خطوط
عصر لى فيها نصير
فله أنا ملنا تشير
لالا وليس له نظير
ر به ويستغنى الفقير
ر والقليل به كثير

من تذل لها الرقا ب ولا يقوم بها الشكور
يامن به تهدي السرا ة لأنه علم منير
طالت خدمتك القوا في والزمان بها قصير
وجرت لنحو حماك آ مالي وأنت بها جدير
وقصور مدحك ليس في فهمي لرفعها قصور
خذها على شرف الصيا رف إن ناقدتها بصير

وقال :

استقنا من يدك قهوة بن وأدرها ممزوجة برضابك
لا تحكم سوى كئوسك فينا أنت كفاء ونحن من خطابك

وقال :

بالأشرفية شادن
يهدي السراة جبينه ظبي الكناس له الفدا
في عطفه هيف الصبا فخبينه صبح الهدى
لولا الحياء وما أرا وباحظه سبل الردى
لتساقطت بخدوده قب من مراقبة العدا
قبلى مساقطة الندى

٦ - شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠

ترجم له الجبرتي فقال :

هو الفاضل النبیه ، اللوذعى الذكى ، المفوه الناظم الماثر ، الشاعر اللبيب
الشيخ محمد المعروف بشبانه . كان من نوادر الوقت . اشتغل بالمعقول ،
وحضر على أشياخ العصر فأنجب . ونظم الشعر وأجاد القوافى ، وداعب
أهل عصره من الشعراء ، واشتهر بينهم وأدعنوا لفضله . إلا أن سليقته في
الهجو أجود منه في المدح .

ومن قوله يهجو السيد طه البططى :

يا سيد الآراء حاشا نجد أنت فيه من أهمل الناس يسلم
إف طه في ثوب لثوم ومنه بكنار الخسران قبجا تعمم
فلهدا يقول من قد رآه ربنا اصرف عنا عذاب جهنم
يا أدبيا كالعير يحمل كتبنا من سبيل وقف ودشت مخرم
قد أبدت الموقوف شطبا ومحوا فلمذا يا شاطب الوقف ترجم
والذى قد سطا بنظم الأهاجى عرضه بالقبيح والذم يشتم
لكن العفو عن ذنوبك أولى ولعين إلف تقال وتكرم

وقال من قصيدة في مدح شيخ السادات محمد أبى الأنوار :

الأوحد المولى الذى بنوالة الغيث فى خجل يذم - غمامه
مجد الأئمة والأماجد كلهم من شك فى ذا حجه إسلامه
ومن اثنى أوزاغ عن ساداتنا يكفيه من داعى الهدى إرغامه
أينا على والخبير بمدحهم فى محكم التنزيل دل كلامه
هم صفوة الله التى فى نوعنا زهر بنفح الطيب ساد ثمامه
ونتيجة السادات درة عقدهم ومجد بدء له وختامه
شمس بها أفق السعادة أشرفت والكون طرا قد أزيل ظلامه
هو فارس التوحيد حامي حصنه من مشرك باغ يزيد خصامه
بأدلة التوحيد يقطع رأيه وعايه مغلوباً تعود سهامه
عذرى ومثلى فى مديحك قاصر طفل صغير ما عداه فظامه
قد أعجز البلاء كنهه مديحكم والشعر ماوفى وطار هامه
لكنى أرجو بمدحى دعوة ممن تشرف بالحديث لثامه
أأخاف دهرًا قد أساء عشيرتى ومحمد قد عمهم إنعامه ؟
يا كعبة السادات ناظم عقدها عبد إليكم والثناء غلامه
شيخ مسن كاد يقضى نحيبه لعناد دهر ساءه أوهامه

بمحمد يدعى ونجل شبانة
مولاي شهر الصوم سافر شاكرآ
ومنازل الأشراف منها رحلة
وهلال عيد الفطر قال محمد

وقال يمدحه :

العالم . الحبر الهمام أبو الهدى
شمس الشريعة والعلاء محمد
مولى إذا نزل الأفاضل عنده
شرف على لا يقاس علاؤه
مجد له فوق الثريا رفعة
فختام عقد المجد من ساداتنا
مولاي بشرى العيد بهجة ذاتكم
تحيا إلى أمثاله في نعمة

وقال يمدحه :

للبني الوفا في الكون أعلى رتبة
ورثوا السيادة عن علي جدكم
هذا هو النسب الذي يعلو على
كالشمس في أفق السماء ونورها
نرجو ونأمل في المعاد شفاعته
فهمو الخيار بنو الخيار وجدكم
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم
لوجودهم في مضر أوفى نعمة
من مثلهم والعلم ميراث لهم

وبقيع مكة كان فيه حمامه
يثنى عليكم للغفور قيامه
حملت عليه للمسير خيامه
منه استعرت البدر وهو تمامه

للحق والتقريب للخلاق
من ساد بالخطوى من الرزاق
ظفروا بأخذ العهد والميثاق
بعلاء مولى ساد في الآفاق
وأساسه متأصل الأعماق
قطب له الله المهيمن واتي
بدر الكمال بدا بغير محاق
ممزوجة بمكارم الأخلاق

بعد النبي وصحبه الأخيار
باب المدينة قاتل الكفار
كيوان والبدر المنير الساري
نفع الأنام وبهجة الأبصار
منهم وغوثا من عذاب النار
فخر العلاء وأصل كل فخار
سلمت عقيدته من الأوزار
عمت على البلدان والأمصار
كالجد حيدرة الرضى الكرار

٧ - الصبيان

قال يمدح شيخ السادات :

بعبير سرك تعبق الأقطار . وبينم ن طلعتك السعيدة طالماً
وبوجود راحتك الشريفة أخصبت . وإلى حمى حرم سما بك مجلس
وبذكر مالك من علا ومناقب . يادرة الدنيا وغرة وجهها
يا قطب دائرة الوجود وعارفا . يا روض أزهار العلوم وجهبدا
يا شمس أفلاك الكمال وسيدا . يهنيك ما أولاك ربك من علا
قد أفرغ المولى عليك مواهباً . وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة
سبحان من يعطى بلا حصر ومن . وله المحامد حيث أسعدنا بمن
السيد السند الهام المجتبي . الجوهر الفرد الذي لم تشتعل
العروة الوثقى لمعتصم به . تاج الأمائل عين أعيان الورى
كنز الحقيقة بيتها المعمور من . ملك له أهل المعالى دولة
وأغر تقصده العفاة فتنثنى . وبنور وجهك تشرق الأمصار
يصفو الزمان وترحل الأكدار . للعالمين منازل وديار
تسعى العفاة وتهرع الزوار . تحدوا الحدأة وتسجع الأطيوار
ومنار أهلها إذا ما احتاروا . بشذا تقاه تهبط الأسرار
سجدت لتحقيقاته الأحبار . دانت له الأبرار والفجار
دهشت لبعض صغارها الأفكار . لا عد يحصيا ولا معيار
تركت قلوب عداك فيها النار . يختص بالأسرار من يختار
شرفت به الأنجاد والأغوار . صدر الصدور المنتقى المختار
أبدا على أمثاله الأعصار . الآية الكبرى لمن يختار
غيث السماحة سيها للدرار . بجلاله تستنزل الأمطار
وإليه فيهم بالبنان يشار . والكل حماد له شكار

ومجد سيرا لطيب سرائر
وابن الكرام الشم من آل الوفا
كناه مولاہ أبا الأنوار إذ
ما جاء ليل الخطب إلا رده
تتروح الأرواح إن ذكر اسمه
وإذا تقاعدت الجماء وجدته
لا عيب فيه سوى قلاه لماله
لمكارم الأخلاق أحياء بعد ما
أنسى أناس العصر ذكرى حاتم
فيحار جود سواه قطر عنده
هو الأجابة رحمة وعلى العدى
لمحبته منه ندى وكرامة
ولاه مولاہ خلافة آله
وأعزها منه تقي ومعارف
بعلاه آمناء فمن يؤمن ينل
ورث المفخر سيديا عن سيد
أصل العلاف فرع الألى سبقوا إلى
التائبون العابدون الحامدو
أهل الحقائق والدقائق والرقا
القادة الأجداد من جداهم
قوم همو بركات مصر وروحها
وهو ملاذ أناسها ومعاذهم
بجهاهمو ارم الخطب عنك فأما
فهو الجماءة لمحم ولنتم

في الخافقين سمت له أذكار
أبناء من سجدت له الأشجار
من نوره تتولد الأنوار
من ذلك الوجه المضيء نهار
وإذا تجلى تنجلي الأبصار
نعم للمغيث وحبذا النصار
كرما فليس له لديه قرار
أخني عليها دهرنا الغدار
ينسى الغدير إذا ترى الأنهار
والقطر منه لدى سواه بحار
أسد الإله وسيفه البتار
ولمن يعاديه ردى وصغار
فمنما به شرف لها وفخار
ومكارم وسكينة ووقار
عدنا ونار لظى لها الكفار
قد طاب منه محتد ونجار
قصب السباق السادة الأطهار
ن السائحون السكل الأبرار
نق من بهم تتشرف الأعصار
المصطفى وعلى الكرار
وهو بأوج سمائها أقطار
وهو حماة القطر والأنصار
للخطب آل المصطفى الأخيار
وهو الحكمة إذا الأعدى جاروا

وهو الشموس ومن سواهم ظلمة
والمجد فيهم ملكهم وإذا ترى
والناس بالرتب العلية فخرهم
منح من الوهاب عز مقامها
ماذا يقول المادحون وفضلهم
الله في القرآن أذهب عنهم
وودادهم فرض وحبهمو به
بمدحهم يكسى القصيد محاسنا
إني بهم وبجدهم متوسل
لرحابهم فزعى إذا خطب دهى
وهو يمينى إن بطشت بصائل
وبحبهم أرجو النجاة غدا إذا
عج بالمطى على حى حرم لهم
عرج على سفح المقطم نحوهم
هو كعبة طافت به أهل النهى
هو جنة مما يخاف وجنة
هو روض أنس باسم الأزهار قد
هو للمواهب والمناصب موطن
هو مورد يشقى الغليل ومنهل
هو حانة قدسية الصهباء قد
الله أكبر ما أجل رحابهم
وموالدا لهمو زهت بمجالس
يا حسنن موالدا ومجالسا
يا حسنن موارد ومواكبا

وهو الملوك وغيرهم أنفار
فى غيرهم مجدا فذاك معار
ولها بأبناء الرسول نغار
ومواهب ما إن لها إنكار
نطقت به الآيات والأخبار
رجسا وطهرهم فهم أطهار
تمحى الذنوب وتغفر الأوزار
وبذكرهم تزين الأشعار
لله وهو الماجد الغفار
ولبابهم قرعى إذا أحتار
وهو يسارى إن عرا إعسار
طاشت لهول الموقف الأفكار
من حله ما مسه إضرار
تر مشهدا سطجت به الأنوار
وسعت إليها بالصفى الزوار
تجنى بها للوفد الأثمار
أروته من ديم الرضا أمطار
هو للأمان والأمانى دار
ما شاب صفو زلاله أكدار
حظيت برشف كئوسها الأبرار
وفدافدا لهمو بهن مزار
عذبت بها الأوراد والأذكار
تكسى بها حلل الرضا الخضار
ومواسما تجنى بها الأسرار

تجلى بواردها عرائس أنسهم
فهل عشايق الفلاح لحضرة
وعلى العيون اسعوا إليها فهي من
وقفوا لديهم خاضعين تشاهدوا
وتوسلوا بهمو بخير ابن وخيد
مجلى حقائقهم ومظهر سرهم
يا دانيا لرحابه أبشر فقد
أنخ المطى ببابه واعكف على
وادخل حماه ومرغن بتربه
واشهد هناك فوائجا قدسية
وارتح وطب واربح بأرض قدست
ربحت تجارة مادح علياه
طب واهن بالرتب التي أوتيتها
طب واهن بالشيم التي بمديحها
طب واهن بالمنح التي فيها حلت
طب واهن بالمجد الأثيل ورفعة
يا حسدا زعموا استواءهمو به
كفوا تقولكم فليس بواصل
لا تطمعوا أن تدركوا شأوا له
إن غر بعضا أنه من آله
يا صفوة الرحمن من أقرانه
هذا صديق مخلص لك وده
هذا حسيب منتم لك في الورى
إني بمجديك أستجير من الجفا

وعليه أقداح السرور تدار
فى القرب منها تنفق الأعمار
أجدى وأجدر ما إليه يسار
لا تستوى بالرؤية الأخبار
ر خليفة جادت به الأقدار
من قدموه لشأنهم واختاروا
قربت لك الأوطان والأوطار
أعتابه فبه يعز الجار
وجها فذلك إن عقلت فخار
ولوائجا رقصت لها الحضار
بذلت عليها الأنفس التجار
وسواه عندى المدح فيه جبار
عن بعضها أيدي الحسود قصار
يتشرف النظام والنثار
مدح ولد البسط والإكثار
قوت بها لأحبة أبصار
هل تستوى الظلمات والأنوار
لليث من نبج الكلاب ضرار
قد شط عنكم يا عداة مزار
ما كل ما حوت الرياض ثمار
يا من له نعم على غزار
قد طابق الإسرار منه جهار
عرفت بذاك أكابر وصغار
والمستجير بمثل ذاك يجار

عودتني الإقبال أجمعه فلا
وعوائد السادات سادات العوا
لئن اقتضى الإدبار تقصيري فجو
أو جاء كذاب إليك بفرية
إن مسني ضيم ولى بك علقمة
فأعطف وجد واخلم على من الرضا
يا ابن النبي وسيد السادات يا
خذها إليك فريدة في فنها
يصبو الأديب لها ويضطرب عندها
طالت ولكن بالبدايع طولها
جاءتك ، سابلة قناع حياؤها
لكنها ترجو القبول لعلمها
فأقبل وأقبل وارض وارع فذا المنى
لازلت محفوظ الجناب محصنا
يارب أقرر عينه بان له
وامحق جميع عداه حتى لا يرى
بنينا المختار أشرف مرسل
أو هز أغصان الربا من الصبا
والآل والأصحاب والأتباع ما
أو صبك الصبان قال مؤرخا

تخلف فأنت ابن الوفا المختار
تد هكذا قد قالت الأخبار
ذك مانع ينفي به الإدبار
فعليه حسبي الواحد القهار
فوحق جاهك إن ذلك عار
حللا بها تنكي العدا الأشرار
من طرزت بمديحه الأسفار
من حسنها الدر النضير يغار
فكأنها صرف المدام يدار
فلذاك لا ملل ولا إضجار
ولها بفرط قصورها إقرار
أن الكريم مسامح غفار
لا درهم عندي ولا دينار
من شر ما تجرى به الأقدار
يبقى لكى تبقى به الآثار
منهم على وجه الثرى ديار
وأجل من شدت له الأكوار
أو غردت في أيكها الأطيوار
مزن بكت فتبسمت أزهار
نجل الوفا فاحت به الأسرار

٨ - قاسم بن عطاء الله

قال من مزدوجة طويلة يمدح الأمير كتنخدا رضوان :

بكرت يوما والهوى مطيعي أرض الربى في زمن الربيع

إذا بها في زخرف بديع تزهو بثوب سندس وسيع
في حسن وصفها استمع ما أبدى

بكت بدمع الطل عين النرجس فأضحكت ثغرا لأقاح الألس
والورد يزهو باحمرار الملبس مفتتجا أطواقه في المجلس

قد أرج الروض بنشر الند

روض به ماء الحياة جارى خضر النبات منه بالجوارى
فيه خيال الورد باحمرار يرى له في الماء زند وارى

وعجب في الماء قدح الزند

حديقة بها السرور محقق جدولها مسلسل منطلق
في جوها نجم الزهور مشرق وبانها طورا يميل ويسرق

من وجنة الماء احمرار الورد

أما ترى الدر بدا للحدق كلل تيجان رءوس الورق
وقد حكها النهر بظل الزنبق خد السماء مورد بالشفق

كلاهما بالورد زاهى الخد

لما حكى الغدير للسماء لاح به السماك في ضياء
من فوقه صارت يد الهواء تنسج للصيد شباك الماء

بدقة لم تستطعها الأيدي

شباك در أو لجين تنسج لجرى الأبواب فيها فرج
بها شعاع الشمس حين يبهج بعسجد ترى اللجين يمزج

ليخطف الأبصار عند النقد

نجائب السحب بجند الودق أرسلها الغرب لحرب الشرق
(م ٢٢ — الآداب المصرية)

لنحوه تراسلت بالسبق وكما سلت سيوف البرق
يصهل في الفلك جواد الرعد

وحوصرت شمس الضحى بالأفق بعسكر سد جميع الطرق
وبالدهما غط قميص الشفق وانفلقت هام الدجى بالفلق
ومنه سد كسرهما ببند

وابتهج الشرق على الظلماء بالصبح صاحب اليد البيضاء
أخرجها من حلة الدجاء من غير سوء قد بدت للرأى

لمحو آية الدجى المسود

وقد بدا الصبح وللجو صعد وأصبحت قضب الرياض في ميد
ممتلئات البرد من در البرد وكل يابس غدا رطب الجسد
وفتحت عين الزهور الرمذ

باكر صبوح روضة الزهور فأبرك الأشياء في البكور
ورد على اللذات والسرور واترك هوى وساوس الصدور
فمنهل اللذات عذب المورد

ما أحسن الصبوح في الصباح والسكر في روض الربى يا صاح
على خدود الورد والتفاح والريح تدنى مبسم الأقاح
لثم هاتيك الخدود الورد

والورق مذغنت على العيدان بلين قد ماس غضن البان
والأس فوق وجنة النعمان من ذا رأى الجنة في النيران

عجبت للتأليف بين الضد

وانظر إلى تلهب الشقيق غيظا على نيلوفر غريق

يومي لبنت الكرم بالتعنيق ومل إلى الرمان بالتحقيق
تراه في صدر الربى كأنهد

أكرم ببنت الكرم والدوالي من الهموم غرسها دوالي
بها يطوف مخجل الغزال كالشمس تجلي في يد الهلال
بكأسها في أفق حان السعد

لله ما أبهى وما أسناها في كأسها كالشمس في مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها من شفقيه للعس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

شعاعها سطا على الندمان ساوى شجاع العقل بالجبان
ومالت الحمراء في الميدان بين صفوف صحبة القنان
كأنها من الدما في برد

مليكة لطيفة المزاج تختال في برد من الديباج
على جواد أشهب الزجاج بهجة احمرارها الوهاج
تحكى خدود قاتلي بالصد

لاتنكروا بعد الحجا جنوني تهتكى من ذلك المصون
وحدثوا إن تصفوا شجوتي به عن البحر وعن عيوني
بدمعها لم تطف نار وجدى

أبحته قلبي وجفني سكنا لما أراني منه وجهها حسنا
وطرفه الساحر لما أن رنا بسحره كليم قلبي فتننا
ولم يجد عن طوعه من بد

جاء الربيع والزمان اعتدلا وألبس الغصن من الزهر حلا
والطير ضمنت غناها مثلا إنشادها مولى لقد حاز العلا
للكتخدا رضوان رب المحمد

أمير مجد أوحد الزمان يفوق معنا كامل المعاني

لو شام برق سيفه اليماني عنتر في ألف من الشجعان.

قال اللقاني الحشريا بن ودي

تراه للأحباب فاق الوالدا وللعدا مج — ادلا مجالدا

أرجوه يحيا في السرور خالدا في الجود أغنى طارفا وتالدا

وكل منسوب له في الود

وقال يمدح شيخ السادات :

لآل الوفا كل الفضائل تنسب
ملوك البرايا منهمو الجود ترتجى
ألا إن حزب الله حزب مجد
أبوهم على ليث كل ملة
ولو كان يلقي للنبيين وارث
أقول لمن ضاهى وسيع رحابهم
بدور التقى في الكون آل بنى الوفا
كواكب شمس الدين أنت بأفقمهم
إذا فضلوا بالسبق عنك فما أتى
وعادة فرسان الرجال تقدم
كما آخر الأنباء جاء مجده
تدوم وتبقي في السرور معمرا
فأنت على التقوى تؤسس مسجدا
لنا الأمن فيه من متاعب دهرنا
له لبنات كالكواعب أسفرت
جميع العلا وقف عليه مخلد
ليهن به من كان للخير فاعلا
عناصره طابت بأكرم سادة

هم ليس إلا منهمو الفضل يكسب
ومن جودهم ترجو الملوك وترغب
ومن ذا لحزب الله في الخلق يغلب
ومن عارض الأشبال لاشك يعطب
فليس لهم إلا همو من يعصب
رحاب على لا يضاهيه مرحب
وأنت بإسعاد لأنوارهم أب
وليس يضاهى بهجة الشمس كوكب
أخير أسوى المولى إذا ساره وكب
فما ترتجى إلا الكرام تعقب
وأشرافنا من نسله تتشعب
إليك عمارات السعادة تنسب
به حرم من زاره ليس يرهب
فمن حل في جناته ليس يتعب
لها باحمرار النقش خد مذهب
وفيه لنا جارى الثواب مرتب
فياليتنى منهم أعبد وأحسب
ففيه إلى كل الطباع تحب

أرى علماً جاراً لهم وأظنه
تطاول أعلاه ليبلغ شأوهم
تلوح الثنايا منه باسمته لهم
وقد حل من خوف الوقود بقربهم
أيا حرماً نهوى بأفئدة له
على عرفات القرب هل لي وقفة
إليك أبا الأنوار أهدي قصيدة
معان يعاديهما الحسود وينثنى
تراوع من عادي وتبدي فصاحة
رقاق حواشيهما نسيجة وحدها
إذا رضى المولى بمدح محمد
عرائس لا ترضى بغيرك ما هرا
بمدحك رقيها ومدح بنى الوفا
فإن حفيها منك القبول فحبذا

وقال بمدحه :

حرم فيه للملائك أمن
خاتم الرسل جده وبهذا
آل طه ذخيرتي المدح فيكم
أنتم سادة الورى ولعمري
مددانا إلا المودة يتلى
مد مدحتهم فى لوح كل وجود
وأبو الأنوار الذى بجماه
أفق العز مشرق بسناه

وطواف بركنه واستلام
فى وفاء للأولياء ختام
وأرى حبكم هو الإسلام
لاتضاهى ساداتها الخدام
فهو فينا لفضلكم إعلام
بالذى عنه تعجز الأقالام
تساوى الليوث والآرام
فاليالى تضىء الأيام

وقال يمدحه :

وماله أحد في فضله جارى
وهم أعز الورى جاهها وأنصارا
وهم يلوحون للأغصان أزهارا
وسعده فاق بالإشراق أقمارا
حاز الفخار وأحيا منه آثارا
ومن أحبهمو لن يدخل النارا
أراد حصر نداء زاد إحصارا
مبشرا أن وقت الصفو قد زارا
بالنصر تزداد إسعادا وأنوارا

نجل الإمام الذى مولاه كرمه
آل الوفاء على الدنيا لهم شرف
أهل الولاية أغصان بروضتها
وللمفرد القطب شمس الدين سيدهم
وعن على أبى السبطين والده
من الذين إله العرش طهرهم
ياسيدا حاز أنواع الكمال فمن
هنتت مولاي فالعام السعيد أتى
والسعد ناداك والبشرى تؤرخه

وقال يمدحه :

ويدوم وقتك بالمسرة عيدا
وأدام حظك وافرا ومديدا
قربا وایس الفضل منك بعيدا
فى عصرک المأمون دمت رشيدا
والله باسمك شرف التجميدا
فى بابکم کل الملوك عيدا
أرجو لأوقات الهنا تجديدا
تأبى لغير جنابکم تقليدا
حسبى ولا أبغى عليه مزيدا

فى أبرک الأنوار دمت سعيدا
وحباك بالعمر الطویل وبالهنا
قد حزت بالخلفاء آل محمد
كن واثقا بالله معتصما به
فالناس بالتجميد شرف قدرها
لولا انحصار الملك فيكم لم تكن
آل الوفا إني بكم وبجدمكم
كم صغت فيكم من قلائد فكرة
حبي لكم ولجدمكم ياسادتي

وقال يمدحه :

لكنها بسوى الأفراح لم تمد
كالقطر والبحر إحسانا بلا عدد

لمصر عادت بك الأيام مقبلة
ياسيد للورى أفضت مكارمه

على حماك علا الأبرار مرصدة
 عن الأنام الذي أسياف سطوته
 مكرم الوجه ذي العزم الذي عجبت
 كن واثقا بنوال الله مكتفيا
 حبة لقلوب الناس مطلقها
 أنشأت قاعة أنوار مشيدة
 تحرير فكرك في إتحاف بهجتها
 أقسمت بالشمس من لآلاء عزتها
 ومن رآها وقطب العصر حل بها
 من منهل العلم والإفضال واردة
 على عماد التقى والدين قائمة
 جناتها تحتها الأنهار جارية
 سماء مجد بشمس الدين مشرقة
 مشكاة نور على نور زجاجتها
 راقت بها لبنات كاللجين بدت
 تحكى الكواعب حسنا وهي لآبسة
 أنت السعيد بإذن الله في أزل
 سدوارق وانعم وحز بشري مؤرخة
 لما علا الجد بالتسليم قد ختمت
 لقاعة الجسد إسعاد بمنشئها
 لها السرور به والحفظ يصحبه

توفيق ربك لا بالوفق والرصد
 لها قلوب العدا من جملة الغمد
 منه الملائك في بدر وفي أحد
 ياخير معتصم بالله مرتشد
 أنت الصني ومن عادك في الصغد
 قديمة الفضل تروى الجسد عن أدد
 يريك جوهرة جاءتك بالزبد
 مامثلها حرم للأمن في البلد
 يخالها أشرقت كالشمس بالأسد
 ومثل رونقها في الدهر لم يرد
 دعائم الحفظ تغنيها عن العمد
 وماؤها ككوثر أحلى من الشهد
 على إمام بفعل الخير مجتهد
 تزهو بمصباح سر منه متقد
 تصفو دنائير خديها لمنتقد
 ملونات حلّى من نقشها جدد
 دامت حياتك يامولاي في أبد
 تهن وابق ولح في عزة وزد
 كان السرور بها باسم الإله بدى
 دامت به كعبة للرفد والرشد
 يحل منها محل الروح في الجسد

ومن مو شحاته :

مالن أسباني * ثاني * في ملاح العصر
 ساحر الأجفان * جاني * بالجفا والهجر

أنا منه عانى	* فاني	* وهو بي لا يدري
	دور	
بانخديد الوردى	* يبدى	* نزهة الأرواح
وبنخال ندى	* يهدى	* جنة الأرواح
ولماه الشهدى	* عندى	* جالب الأفراح
ثغره المرجاني	* حاني	* من شذاه سكري
	دور	
منهل الأسرار	* جارى	* عند أهل المجد
سادتى الأبرار	* وارى	* زندهم بالسعد
وأبو الأنوار	* قانى	* ذو العلا والنصر

وقال .

حيبي بالذى ورد شقائق خدك التبرى
وثنى قدك المفرد بجمرة ثغرك الدرى
ومنك الجفن قد سود على هاروت بالسحر
أدر كأس الطلا واغتم زمان الفوز بالرضوان

وقال .

ملك أوحد العصر وفى صادق الوعد
بدا فى طلعة البدر وهيبة طلعة الأسد
صديق العز والنصر حليف الجود والمجد
لهذا ترجم الأعجم بمدح الكتخدبا رضوان

٩ - الخشاب

قال متغزلا :

أدر السلاف على صدى الألمان
واستجل بكر الراح في ظل الربى
نشمس لها من فوق خد مديرها
نور ولكن من سنا لألأها
نار لها في وجنتيه . وكفه
من كف معتدل القوام كأنه
نشوان من سكر الشباب يهزه
ومنهف ماء الحياة بوجهه
واني فعاتبني على وصلى النوى
فأجبتة والوجد يجرى عبرتي
يا أيها الرشأ الذي ألحاظه
أبسحر بابل قد كحلت سوادها
يا نخجل الفصن القويم ومن إذا
كيف اللقاء وأسد قومك غابها
وكأه آلك نارهم ما كسروا
من كل ماضى العزم حد سيوفه
ليث العرين له تلفت جؤذره
متلائيء تحت الشعور جبينه .
عربي لفظ أعجمي المنتمى
غصب النجوم فصاغهن أسنة
ولديه بيض المشرفية حولها

ودع المذول بجعله يلحاني
بين الرياض تزف والعيدان
شفق الصباح إذا بدا الفجران
في الخد نار فؤادي الوهبان
لهب به أعشـو إلى النيران
قر يلوح على غصين البان
من خمر فيه وراحة السكران
يروى بهى شقائق النعمان
والشوق يضرم ناره بجناني
ويكاد يجبس عند ذاك لساني
إن أومات فتكت بغير تواني
حتى غدت فتاكة الأجفان ؟
ما لاح يوما يختفى القمران
بين الظبا وعوامل المران
يوم الوغى من أسهم وسنان
وسهام لحظ عيونه سيان
يفتر عن در وعن مرجان
كحسامه في غيب الميدان
هندي لحظ صائل بيان
وبفيه نظمها عقود جان
سمر اللدان جداول الأغصان

تنشى سوابقهم سحائب عثير
خرص الرماح فان يطف بلطائف
صيد جموك بكل سهم موتر
وعويندى حسدا عليك ولائى
فاقبل فدتك النفس عذرى إنه
ولقد أقول لعاذلى ألا اكففا
ولقد يمدح شيخ السادات محمد أبا الأنوار :

ولعت بسود أجفان الملاح
وشاقتك القدود ألت تدرى
حذار ظبا الكناس فثم ريم
ومن علق الهوى يلتقى هوانا
ومعسول الرضاب شهى فيه
أسيل الخد درى الشنايا
يصول من اللحاظ بممرضات
إذا ما افتر مبسمه أرانا
رشا أحداقه عبثت بلبى
الأم على هواه ولست أصغى
ودون مزاره حجر المنايا
يبرق فرندها يحمى حماه
فلو نسر السماء أراد يدنو
توقد وجنتيه له بقلبي
وفيه تغزلى قد رق معنى
أبو الأنوار وابن الطهر طه
فريد العصر أوحداه علاه

وهن أحد من بعض الصفاح
كهنون الحتف فى لدن الرماح ؟
يصيد ليوث آجام البطاح
ومن يغتر بالغرر الصباح
يجول به السلاف على الأقاح
قوتهم القد مهضوم الوشاح
حشاي لوقمها دأى الجراح
عقود النجم فى شفق الصباح
كأن بغنجها أقداح راح
إلى هذيان أقوال اللواحي
وبيض الهند ماضية السلاح
وشهب رماح آساد الكفاح
إليه لعاد مقصوص الجناح
ضرام النار فى خفق الرياح
وفى مولى الورى راق امتداحى
سليل الأكرمين أخو السماح
رفيع القدر بدر سنا الفلاح

معضد ذولة المختار يدعو
مطاع لو أشار إلى ثبير
ذكي الذهن متقد لديه
هو البدر الذي أمسى سنابه
له قلم بعلم الغيب يجري
يحاور في أنامله يمينا
يعين تملأ الدنيا يسارا
تكاد المزن تمطرنا الآلى
خلال كالرياض زها بهاها
وألفاظ كثر الغيد تزي
فلو مثلت لنا كانت عقودا
أصفوة أحمد إني أرجى
فليس على محب بنى على
ولست بمبتغ عرضا سيفنى
فهاك عقود نظم كدت فيها

وقال :

ولرب ليل قد أبيت بجنحه
بأغر أجرد ضامر لكنه
متمود وطء الأسنة في الوغى
ظن السيوف جداولا وعوامل ال
وتراه يعرض في الأعنة مثلما
وكأنما صبغ الصباح أديمه
ولكم به جبت المفاوز والسها
أطوى هضاب فدافد ووهاد
جلد العزائم عند كل جلاذ
متجشم في الروع هول أطراد
مران أغصان النقا المياد
صدف المشوق بالدلال البادي
ونقطته يد الدجى بمداد
مكحولة أجفانه بسماذ

متقلدا عوض السيوف عزأني
حتى بلغت أبا السماحة والندی
الباذلين على الثناء عليهمو
فن ابن جعفر في السماحة عندهم
متسربلا بدل الدروع فؤادي
وابن السراة السادة الأجياد
ماقد حووا من طارف وتلاد
وبنو بويه ومن بنو عباد ؟

وقال في مغن يدعى مصطفى الصيرفي ، ومنشد له يدعى سليمان :

اشرب على نعمة الأحنان والوتر
واسمع غناء أبي داود تلق به
واصغ لمزهر ذاك الصيرفي ترى
عود يمازج روحى خفق مثلته
لو خال معبد يوما كف ضاربه
صوت رقيق ولحن حين يعربه
فلو تغنى لميت عاد من قدم
مارام يحكيه في إتقانه حسن^(١)
ماقيس يوما به في فنه رجل
وإن تعب العداة الحاسدون له
لازال يرقى سماء العز ما صدحت
راحا كشمس الضحى من راحة القمر
أنغام داود فيها لذة العمر
إيقاع منتقد بالبنغم ذى بصر
مزج النديم السلاف الصرف بالمطر
أمسى مقرا بفضل فيسه مشتهر
يأتى بما عنه تعبي طاقة البشر
جرت به الروح جرى الماء في الشجر
إلا وجاء بقبح غير منحصر
إلا كما قيست الحصباء بالدور
فالعنى تنجمل ضوء الأنجم الزهر
ورق الحمام بأعلى الدوح والشجر

١٠ - عبد الله المنزلى

قال يمدح شيخ السادات :

مهلا أبا الأنوار مهلا
أسهرت جفن مقيم
صب له من جفنه
وله فؤاد ذائب
لا تسمعن في الصب عدلا
عنه حديث الحب يتلى
نهر فما نهر المعلى ؟
ولواعج لم تحب أصلا

(١) هو حسن قسوة ، أحد المغنين في ذلك العصر

وله أنين زائد
دنف له في كل وق
ويرى كئيبا قد جفا
كبد له مقروحة
يمسى ويصبح من جيو
يا ابن الأماجد يا إماما
حاشا لمجدك يرتضى
حاشا لمحتدك الشريد
حاشا لمجلسك المنيب
حاشاك تمنحنى ضيا
فاسمح فديتك يا كريد
يا قطب آل بنى الوفا
قوم لهم فى المكرما
قوم همولى ملتجا
وهو غيائى من صحا
لاشك أنى فى حمى الس
فاصفح بفضلك عن ذنو
صفحا جميلا يستفا
لأقول للقلب المشو
وأكون ممن قدسقى

جنح الليالى ما استقلا
ت زفرة. أعيته حملا
من حزنه ولدا وأهلا
من فكره بالنار تصلى
ش الهم مشتبهها بشكلى
م المؤمنين فتى وكهلا
للعبد بعد العز ذلا
ف أرى ذليلا مضمحلا
ف يكون فيه الحر ندلا
ثم ترجع فيه كلا
م الناس أخلاقا وفضلا
جيد الزمان بهم تحلى
ت عرائس الأفضال تجلى
فى كل كرب قد أظلا
بالسوء من ندرى ومن لا
ادات قد نوديت أهلا
ب قدرت من قبل أن لا
ض حديثه بين الأخلا
ق لقد بلغت الآن سؤلا
كأس التقرب منه نهلا

وقال يمدحه :

الغيث الغيـث يا ابن النبي
قعدوى يحرف القول عمدا
وحسودى الكذوب لاشك مغرى
من عدو وحاسد وغى.
وهو خصمى وليس بالمرضى
من خبيث من فتية الأموى.

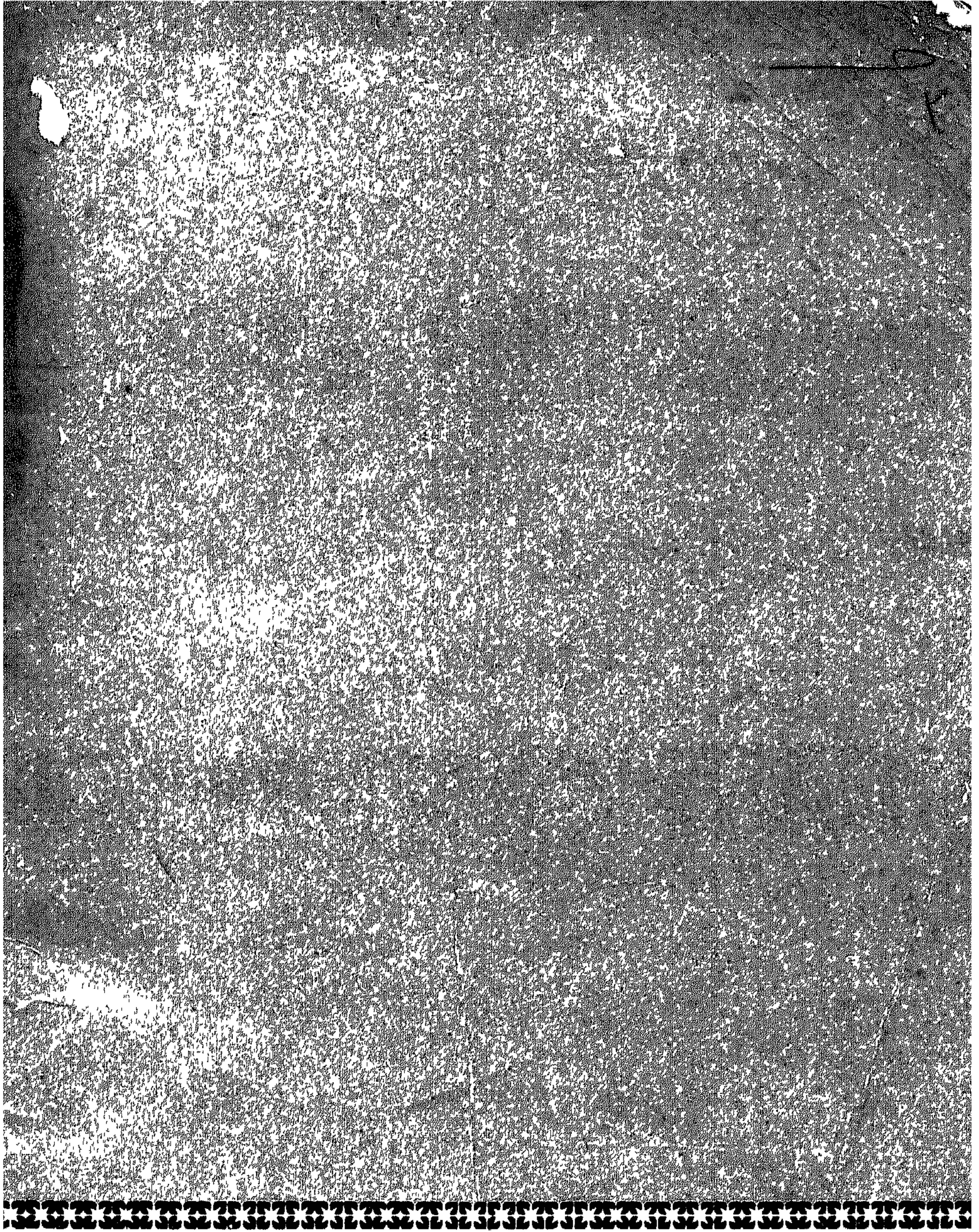
والغبي البليد يبيدي حديثا
قد رموني بالإثم ولزور والبه
وصفوه بكل وصف ذميم
ويجهم ويجهم أما يرقبون الا
أبعد الله هؤلاء زوالا
ليس فيهم راع لود كريم
هو نجل السادات آل وفاء
آل بيت مبرأون من الرج
ملجأ اللائذين غوث البرايا
يا إمام التحقيق في كل فن
أنت حقا باب المدينة للعد
لا تدعني فريسة لذئاب
فأجرني من هؤلاء فاني
واجل غني سحب الجفاء لكي
إنني الكوكب المضيء بنور
كنت قدما مطوي دهر ولكن
حاش لله أن أضام ولي عز
وإليك البديع قد زف بكرا
ذات در من المعاني مضيء
واعف غني عفوا يكون جميلا
فاعتراني بالذنب يوجب عفوا
وصلاة على النبي دواما
وعلى آله الكرام اللوالم
ما عبيد السادات قال ارتجالا

عن فلان بمكره الفرضي
تان عمدا وما ارعوا عن بني
حسبي الله ناصرى وولى
ه في عبده النصيح السوى
ومساء في الضحى والعشى
بل تدانوا بودهم للدنى
كرم الله وجههم بعلى
س بنص في المحكم العربي
مأمن الخائفين من كل شى
يامفيد العلوم يا ابن الوصى
م بحكم الوراثة الشرعى
ارتووا من دم الفتى المنزلى
لى عهد وأنت خير وفى
يبدو نورى للباد والحضرى
من سناك العظيم الأنورى
أظهرتنى يداك من بعد طى
عظيم فى جاهك الحسنى
بنت فكر فى حسنها والحلى
فاقبلنها بعفوك الشاملى
ناسخاً ما جنيت من كل غنى
من كريم عن المساوى برى
وسلام من العزيز العلى
وصحاب ذوى اللقمام الجلى
الغياث الغياث يا ابن النبى

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٨	الباب الأول : الفصل الأول : الحالة السيامية
١٩	الفصل الثاني : الحالة الإجتماعية
٣٥	الفصل الثالث : الحالة الفكرية
٥٧	الباب الثاني : الفصل الأول : الشعر ومذاهبه
٧٠	الفصل الثاني : المدرسة البكرية
١٣٥	الفصل الثالث : المدرسة العلوية
١٧٢	الفصل الرابع : المدرسة الأميرية
١٩١	الفصل الخامس : المدرسة الشعبية
٢٠٩	الباب الثالث : دراسات تكملية
٢٠٩	١ - الوصف
٢١٧	٢ - الغزل
٢٢٣	٣ - الإخوانيات
٢٣١	٤ - التوسل
٢٣٥	الباب الرابع : بعض مشاهير الشعراء
٢٣٥	١ - عبدالله الشبراوى
٢٣٧	٢ - عبدالله الإدكاوى
٢٤٠	٣ - ابن الصلاحى
٢٤٢	٤ - قاسم بن عطاء الله المصرى
٢٤٣	٥ - السبربائى
٢٤٥	٦ - الظهورى
٢٤٧	٧ - الحشباب

الصفحة	الموضوع
٢٤٩	الباب الخامس : النثر
٢٤٩	الفصل الأول : النثر الفني
٢٥٣	١ - المقامات
٢٥٥	٢ - الرسائل
٢٥٥	أ - الرسائل الرسمية
٢٦٩	ب - الرسائل الإخوانية
٢٦٦	الفصل الثاني : النثر المرسل
٢٦٦	١ - نقد المجتمع
٢٦٨	٢ - لغة التأليف
٢٦٥	الفصل الثالث : النثر الشعبي
٢٧٦	الباب السادس : الفصل الأول : بعض مشاهير الكتاب
٢٧٦	١ - الشهاب الخفاحي
٢٨٥	٢ - مرعي بن يوسف الحنبلي
٢٨١	٣ - عبد البر الفيومي
٢٨٤	الفصل الثاني : بعض مشاهير العلماء
٢٨٤	١ - داود الأنطاكي
٢٨٦	٢ - مرتضى الزبيدي
٢٩٣	٣ - الصبان
٢٩٥	الفصل الثالث : المؤرخون وأصحاب السير
٢٩٥	١ - ابن إياس الحنفي
٢٩٧	٢ - أحمد بن زنبيل الرمال
٢٩٦	٣ - علي ابن نور الدين الحلبي
٣٠٥	٤ - عبد الباقي الإسحاق
٣٠١	٥ - محمد بن محمد بن أبي السرور البكري
٣٠٣	مختارات من الشعر



يطلب في مصر والشرق العربي من
دارالفرجاني - ص.ب (٢٣٨٢) صر الجيزة - القاهرة

